

ديسمبر ٢٠٠٢ ـ العدد ٢٠٨

تشومسكى.. سيادة الشركات.. عبودية البشر

العالم.. المصادفة
والنقد الجدلى

مهرجان برلين
للأدب العالمى

خالد سعود الزيد
.. سيرة مثقف

الفلكلور..
والنص المقدس



الحصان





أدب ونقد

مجلة الثقافة الوطنية الديمقراطية

شهرية يصدرها حزب التجمع الوطني التقدمي الوحدوي

تأسست عام ١٩٨٤ /السنة الثامنة عشر العدد ٢٠٨ / ديسمبر ٢٠٠٢

المراسلات: مجلة [أدب ونقد] ١ شارع كريم الدولة / ميدان طلعت حرب /الأهالي

القاهرة / هاتف ٢٩/ ٢٨/ ٥٧٩١٦٢٧ فاكس ٥٧٨٤٨٦٧

الاشتراكات لمدة عام
باسم الأهالي / مجلة [أدب ونقد]: داخل مصر ٥٠ جنيها
البلاد العـــربية ٥٠ دولارا / أوروبا وأمريكا ٧٥ دولارا

الطباعة
شركة الأمل للطباعة والنشر

الأعمال الواردة إلى المجلة لا ترد لأصحابها سواء نشرت أو لم تنشر
يمكن إرســـال الأعمـــال على العنـــوان البريدي أو البريد الالكتروني:

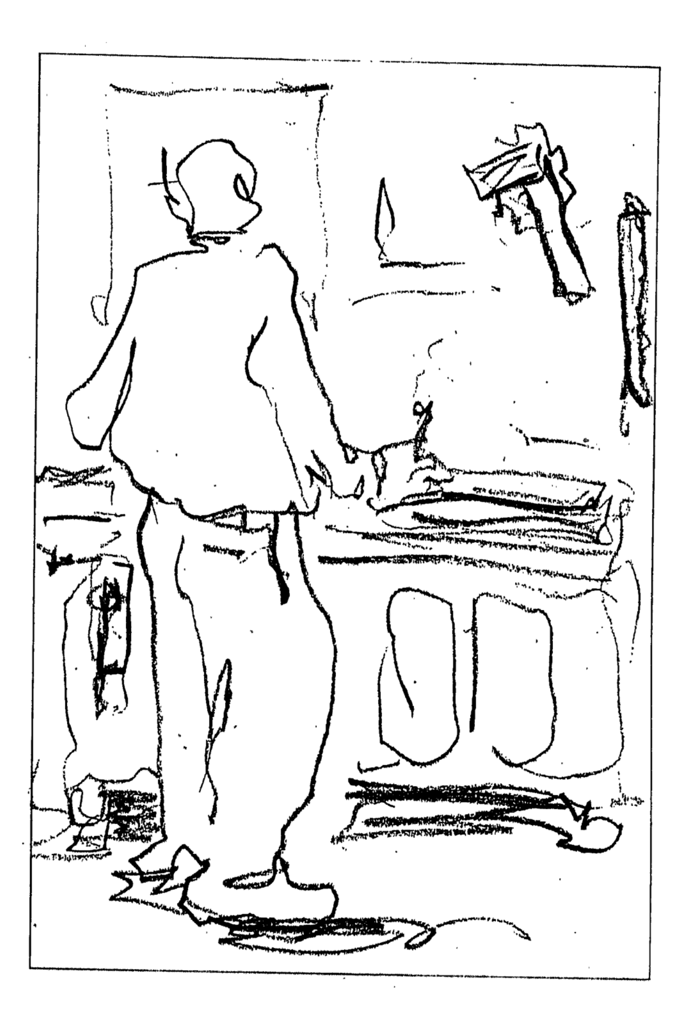
adabwanaqd@yahoo.com

موقع [أدب ونقد] على الانترنت: adabwanaqd.4t.com

ترجو المجلة من كتابها ألا يزيد عدد صفحات المادة المرسلة عن عشر صفحات أو ثلاثة آلاف كلمة

محتويات العدد

فرغلى عبد الحفيظ فنان مصرى معاصر له عديد من المعارض داخل مصر وخارجها وأيضا مقتنيات من أعماله فى أماكن مختلفة . له أسلوب خاص جدا ، سواء فى استخدامه للألوان أو مفردات الحياة.



أول الكتابة

فريدة النقاش

فى فيلم« البحث عن سيد مرزوق» لداود عبد السيد » مشهد قصير لكنه عبقرى فى بلاغته لسجين أثقل قيد محكم معصميه وأعيته الحيل حتى يتخلص منه دون جدوى وحين جاء سجانه ليفك القيد بعد إطلاق سراحه قال له ضم أصابعك إلى بعضها البعض جيدا ..هكذا ..وقام السجان بضمها وكان أن سقط القيد.

أتذكر هذا المشهد كثيرا خاصة كلما تراجعت وبهتت تلك الاجابات البديهية عن بعض الأسئلة الكبرى المطروحة على عصرنا من مثل كيف ستتجاوز البشرية مأزق النظام الرأسمالى القائم الذى تبرز فيه بشكل همجى تلك الجوانب الهدامة للرأسمالية وتتوارى جوانبها البناءة أو سؤال أخر له طابع ملح وآنى وهو كيف يمكن أن نمنع الحرب ضد العراق بعمل جماعى متصاعد وكفء.

فنحن نعرف أنه حين نشأ النظام الرأسمالى على امتداد القرون الخمسة الماضية محطما الإقطاع وأساليب إنتاجه وقيمه وثقافته كان قوة تقدمية إنتقلت بها البشرية إلى الأمام نحو حرية الفرد وحرية الإبداع وظهور العلم ووفرة الإنتاج وروح الخلق والتجديد أى الحداثة بكل تجلياتها وبرغم المآسى التى صاحبت ولادة هذا النظام فإنه شكل طفرة كبرى فى مسيرة المجتمع الإنسانى لأنه من رحم الرأسمالية ولدت الطبقة العاملة الصناعية التى حين تبلور وعيها بذاتها وبقدراتها الكامنة نما الفكر الاشتراكى العلمى وتأسست منظماته الكبرى على الصعيدين النظرى والعملى لتغيير العالم وبناء عالم جديد كانت تتفتح وروده فى ظل التقدم المتواصل للعلم والنضال الإنسانى معا .. فى ظل آلام وأشواق لاتحدها حدود ..آلام على طريق العمل والأمل وأشواق تتخلق فى السعى المشترك من أجل إنسانية جديدة، وحياة وجدانية أكثر غنى يتحرر فيها البشر من الروح النفعية المبتذلة وهم يبنون رؤى جديدة وعوالم داخلية متناغمة وقيما جديدة أساسها الرحمة والتضامن والعدل والعطاء المتبادل ،عمادها التسامح والمودة لكنها جميعا كانت سرعان ما تصطدم بمحدودية الأفق لنظام اجتماعى ظالم وإن كان قد نشأ على أنقاض نظام

سابق هو الإقطاع إلا أنه عجز عن تجاوز الأساس الأول الذى قام عليه هذا النظام السابق ألا وهو الاستغلال ، أى مراكمة الثروات لدى أفراد أو طبقات اجتماعية من جهد وعرق طبقات أخرى تعمل وتكد لتبقى على قيد الحياة بينما يكنز المالكون فائض عملهم.

بل إن البلدان الاستعمارية التى احتلت بلدانا أخرى ونهبت ثرواتها توسعت فى مراكمة الفائض من ناتج عمل شعوب المستعمرات وخيراتها فحققت هذه المراكز الاستعمارية تقدما هائلا وأخذت الفجوة تتسع بينها وبين البلدان الفقيرة حتى بعد أن نجحت حركات التحرر الوطنى فى إزاحة الاستعمار القديم بصورته العسكرية وخلخلة قبضته الاقتصادية بمشروعاتها التحررية الطموح للإنفلات من قبضة التبعية والسير على طريق التقدم الاجتماعى.

وشهدت بداية القرن العشرين حدثا جللا شكل فى حينه قطعا فى مسيرة الرأسمالية المنتصرة التى امتد نظامها ليشمل العالم كله تمثل فى إنتصار أول ثورة اشتراكية حين خرجت روسيا القيصرية من قبضة رأسمالية متخلفة وأنشأت نظاما إجتماعيا جديدا طامحا لتصفية الاستغلال والتبعية حاملا للإنسانية كلها آمالاً خفاقة ووعودا بالتحرر الشامل حين كان حليفا نزيها لحركة التحرر الوطنى ضد الاستعمار وحركة التقدم الاجتماعى فى البلدان المستقلة حديثا من أجل تصفية العلاقات القديمة وبناء علاقات جديدة أساسها العدل والمساواة بعد أن ارتفعت أعلام الاشتراكية على بلدان يزيد عدد سكانها على نصف سكان المعمورة خاصة حين أنجزت الصين الشعبية ثورتها الاشتراكية فى منتصف القرن العشرين وجاءت بما يزيد على نصف فلاحى العالم إلى معركة التحرر وإسقاط أغلال العبودية، وقام تحالف متين بين روسيا البلشفية والصين الشعبية فى مواجهة الامبريالية التى كانت تزداد توحشا مع قوة الضربات التى وجهتها لها الشعوب لكن هذا التحالف المتين سرعان ماتقوض وتراجع. هذه الاجابة البديهية عن واحد من أسئلة العصر الكبرى: كيف نتجاوز الرأسمالية ، وترهلت الأصابع المضمومة إلى بعضها البعض لكسر الأغلال ..وأحكمت الأغلال قبضتها من جديد .

وكان أن سقطت التجربة الاشتراكية الأولى فى مسلسل من الانهيارات نعرف كل تفاصيله الفاجعة ..ومع هذا السقوط التراجيدى انتشرت على نطاق واسع فكرة أنه لا بديل للنظام الرأسمالى ، وإرتبطت الفكرة بالروح العدمية اليائسة وبأشكال لاحصر لها خلقتها الرأسمالية الامبريالية للتحكم والضبط الاجتماعى بعد أن طغى جانبها الهدام على توجهها الخلاق ، بعد أن إنهارت القوة التى كانت بما لها وما عليها ترفع شعارات العدالة والمساواة والحرية والتضامن وتزرع فى وعى البشرية فكرة أن هناك بديلاً اشتراكياً للنظام الرأسمالى ، وأن هناك صورة أخرى ممكنة للعالم.. وأنه «لسه الأغانى ممكنة» على حد تعبير الشاعرة كوثر مصطفى . وأن تضامن البشر وسعيهم المشترك يمكن أن يجترح المعجزات.

ومع هذا السقوط تهيأ البشر لتقبل أوضاعهم مهما كانت يائسة ومزرية ، فلا طريق للخروج مما هم فيه ، كل الأبواب مغلقة ومستعصية على الفتح خاصة أن النظام الرأسمالي الاحتكاري انقض بوحشية على منجزات دولة الرفاه الاجتماعي التي كانت ثمرة تفاعل عنصرين بالغي القوة هما نضال الطبقة العاملة والكادحين في صفوف الأحزاب الاشتراكية والنقابات في بلدان العالم الرأسمالي المتقدم من جهة ، وما كانت التجربة الاشتراكية تحققه على مستوى الرفاه الاجتماعي في كل من الاتحاد السوفيتي وبلدان أوروبا الشرقية والصين من جهة أخرى .

وكانت هذه التجربة تشكل تحديا حقيقيا للنظام الرأسمالي وهي تبنى البدائل وتفتح الباب لإمكانية تجاوزه ..والبناء على قيمه الإيجابية ..وكانت جرجرة الاتحاد السوفيتي للدخول في منافسة في ميدان تقدم التسليح مع أمريكا هي بداية الانهيار الحقيقي لدولة الرفاه الاشتراكية التي بنتها ثورة أكتوبر ١٩١٧. هذه خطوط عامة لبحث يحتاج لمزيد من الدقة عن كيفية الاطاحة سواء في الواقع أم في وعي البشر بفكرة البديل إطاحة تستهدف القبول بالأمر الواقع كما هو ولتبقى أرجلنا وعقولنا مزروعة في أوحاله ونحن عاجزون عن التحليق ..عن الحلم من ممارسة الأمل.

وبهيمنة الرأسمالية على العالم كله شماله وجنوبه وشرقه وغربه .. وبروز قوة عسكرية عظمى واحدة تمارس البلطجة جهارا نهارا هي أمريكا في غياب رادع طالما مثله الاتحاد السوفيتي في زمن سابق جنبا إلى جنب سيطرة المؤسسات المالية العالمية.وهي أذرعة العولمة الرأسمالية من صندوق النقد الدولي للبنك الدولي إلى منظمة التجارة العالمية وهي محمية كلها بالذراع العسكري الذي يمثله حلف الأطلنطي وقد أخذ يبتلع دول أوروبا واحدة بعد الأخرى -تلقت الحركة الاشتراكية وهي البديل الأكثر جذرية للنظام الرأسمالي ضربات قاسية في كل مكان حتى أن الحريات العامة والحقوق الديمقراطية التي هي مفخرة النظام الرأسمالي رغم أنها حصيلة نضالات مريرة للطبقات الكادحة أخذت تتراجع وتشهد أمريكا التي هي معقل أساسي لهذه الحريات والحقوق محاولات الادارة الجمهورية اليمينية العدوانية للانتقاص من الحريات تماما كما تنتقص من الحقوق الاجتماعية للشعب الأمريكي لكي تراكم كل من شركات السلاح وشركات النفط أرباحا فلكية ولو كان ذلك من دماء الشعوب وبإشعال حرب ضد العراق تجمع البشرية-إلا أقلية ضئيلة-على رفضها وضرورة تجنبها ولكن تواجهها هذه الحالة العدمية التي خلقتها رأسمالية وحشية مزهوة بنصرها والتي تقول إنه لا يوجد بديل.

ما تقرأونه الآن في هذه الافتتاحية هو حكاية أخرى أو جانب آخر للحكاية الدامية التي يحكيها لنا المفكر الأمريكي التقدمي النزيه «نعوم تشومسكي» في الفصل الذي اخترناه لكم من كتابه الجديد« الدول المارقة» وترجمته الزميلة العزيزة غادة نبيل. وحتى يستقر في الوعي

الجمعى للشعوب وللكادحين عامة أنه لاتوجد بدائل لبرامج الرأسمالية المتوحشة والعولمة التى تتحكم فى فيها «تقدم أدبيات صناعة العلاقات العامة فى القرن العشرين مخزونا غنيا وإرشاديا من المعلومات عن كيفية زرع روح العصرية الجديدة ، وذلك بخلق مطالب مصطنعة ، أو بتسيير عقل الجماهير فى كتائب خاضعة للنظام تماما وبإدخال فلسفة اللاجدوى وانعدام الهدف فى الحياة وتركيز الانتباه الإنسانى على الأشياء الأكثر سطحية التى تشكل أكثر أنماط الاستهلاك عصرية ، وذلك حتى ينسى الناس الأفكار المتمردة ، أو «المخربة» كما يصفها النظام».

ورغم هذا الوجود الثقيل للعولمة الرأسمالية التى تدمر الأمل يصنع البشر أملا .. ويحملون بالبدائل بل يتوجهون بجسارة لصنعها فى مواجهة هذا الوحش الدامى الكفين والقدمين لا فحسب فى شكل الحركة العالمية المتنامية لبناء عولمة بديلة قائمة على التضامن والمساواة وإعادة توزيع ثروات الكوكب على أساس عادل، بل يحرزون فى بلدان كثيرة أيضا انتصارات يومية ملموسة تتجلى بصورة مفرحة فى أمريكا اللاتينية وفى انتخابات الرئاسة فى بلدين محوريين حيث فاز فى كل من «فنزويلا» و«البرازيل» رؤساء جمهوريات من الاشتراكيين الحقيقيين المنحدرين من أصول عمالية مناضلة حيث تتفتح الآفاق على الأمل .. ويتخلق البديل ..رغم أنف الرأسمالية المتوحشة وشركاتها وبورصاتها.

المحررة

• فى العدد القادم •

* قصص من إيران : مختارات من مريم جمشيدى

* النقاد تجاهلوا الرافعى

* الطيب صالح والهجوم على الأدب المفارق

* قصص لـ إداور الخراط ، موسى نجيب موسى، عاطف سليمان.

* قصائد لـ : أحمد السعدنى





إذا ماتوا .. انتبهوا

مدحت منير

١- حرية الاختيار

(إلى الاسماعيلية)

كل البيوت اللى كانت هنا

سابت .. مسافة

سموها ..

(حرية ..

.. الاختيار)

الدبابات ..

.. والبحر

كانوا عارفين الحقيقة

لما خرجنا عليهم

.. بالمناديل

ساعتها بس

كان الرمل شايل الشجر

وبيزحف .. ف اتجاهنا

والسلك ..

بيجرى بالعصافير

ساعتها بس

كشك الشاى

اللى ف ضهر مديرية الإسكان

بص على الراجل

اللى كان بيسقى الجنينة

ورغرغ...
.. بالدموع

٢- وجايز .. مش أنا
جايز أكون
ماشى ف مدينة
خطفها الجن
وحفت .. على القلب لحظة

جايز
أكو ن خفت
وهربت على الرصيف التانى
من وش كنت أعرفه
وأستلف م العمر شئ
ومارد هوش

جايز
أكون
قولت حاجة لبياع
وماهتمش

وجايز..
...
يكون
بيقع .. على الأسفلت شئ
...
وماهتمتش

عنف .. ومحبة
أظاهر
انهم بطلوا عنف ومحبه
حتى ماعدش حد فيهم .. بيضرب
عشان حد تانى .. يقف لحظة يقول..
(لاحول ولاقوة إلا بالله)

ومع إن الشارع مليان
وأنا لوحدى..
اللى طالع المطلع
ماحدش لاحظ غيرى
(الراجل..
اللى كان بيزق الست
على الكرسى امبارح..
بدل .. وياها .. المنظر)

اظاهر...
إن الألوان .. اللى بتنزل ع الجلد بسرعه
وتدوب ف الزحمه
بتزغلل..
أكتر م الكرباج..
....
....
....
.
والمطلع
مابينتهيش

سيادة الشركات... عبودية البشر

ناعوم تشومسكى*
ترجمة: غادة نبيل

تأكدت عبر العام الماضى العديد من القضايا الكونية ضمن مفهوم السيادة أى ، حق الكيانات السياسية أن تختار مسارها - والذى يمكن أن يكون محموداً أو قبيحاً - وأن تفعل ذلك بحرية بدون تدخل خارجى.

وفى العالم الواقعى ، فان ذلك يعنى التدخل من جانب قوة شديدة التركيز ومركزها الرئيسى هو الولايات المتحدة.

وتوصف هذه القوة الكونية المركزة بأوصاف شتى وذلك بحسب أى جانب من جوانب السيادة والحرية يكون فى ذهن المرء وهو يصفها ولهذا فهى أحيانا ماتسمى " باجماع واشنطن" أو" مجمع وول ستريت / الخزانة " ، أو حلف الناتو أو البيروقراطية الاقتصادية العالمية (منظمة التجارية العالمية ، البنك الدولى وصندوق النقد الدولى) أو ج - ٧ (أى الدول الغنية السبعة الصناعية الغربية) أو ج - ٣ أو بدقة أكبر عادة ج -١ وج هى إشارة إلى Great أى العظمى.

ومن جانب أكثر جوهرية يمكن لنا أن نصفها كمجموعة شركات عملاقة عادة ماتكون مرتبطة ببعضها بتحالفات استراتيجية وتدير اقتصاداً عالمياً والذى هو فى حقيقته نوع من الميركانتيلية المتحدة المشتركة تميل نحو حكم القلة فى معظم القطاعات وتعتمد بشدة على قوة الدولة لجعل المخاطرة والثمن ذات طابع اجتماعى ولإخضاع العناصر المتمردة أو غير المطواعة.

ثارت فى العام الماضى قضايا السيادة فى مجالين . أولهما له علاقة بالحق السيادى فى أن تكون (الدولة) آمنة من التدخل العسكرى وهنا تولد أسئلة فى ظل النظام العالمى الذى يقوم على

* فصل من كتاب «الدول المارقة»

سيادة الدول . أما الثانى فهو مسألة حقوق السيادة فى وجه التدخل الاجتماعى الاقتصادى.

وهنا تثور أسئلة عالم تسيطر عليه الشركات متعددة الجنسيات وخاصة المؤسسات المالية وكل إطار العمل الذى تم تأسيسه لحماية مصالحها ، مثال القضايا التى ثارت على نحو درامى فى المظاهرات المضادة لمنظمة التجارة العالمية فى سياتل بأمريكا فى نوفمبر من عام ١٩٩٩.

ولكن دعونى أتجه إلى الموضوع الثانى وهو موضوع هذا الفصل أى : أسئلة السيادة والحرية وحقوق الانسان التى تثور على الساحة الاجتماعية الاقتصادية.

أود أولا أن أسوق تعليقاً عاماً : أن السيادة لاقيمة لها بذاتها إنما هى ذات قيمة فقط بالقدر الذى ترتبط به بالحرية والحقوق سواء بزيادة وتعظيم هذه القيم أو بالانتقاص منها وأريد كذلك أن أخذ كمسلمة شيئا قد يبدو بديهياً ولكنه فى الحقيقة مثار جدل فلدى الحديث عن الحريات والحقوق فان مايكون حاضراً فى أذهاننا هو البشر ، أشخاص من لحم ودم وليس بنى سياسية وقانونية مجردة مثل الشركات أو الدول أو الأموال فاذا ماكان لهذه الكيانات أية حقوق على الإطلاق - وهو أمر قابل للتساؤل - فان هذه الحقوق يجب أن تنبع من حقوق الناس وهذا هو جوهر العقيدة الليبرالية الكلاسيكية كما أنه ظل المبدأ المرشد للنضالات الشعبية على مدى قرون ولو أنه يتعرض لمقاومة واسعة الآن سواء من قبل الأيديولوجية الرسمية أو من جانب دوائر الثروة والامتيازات ويصدق هذا على كل من المجالين السياسى والاجتماعى الاقتصادى.

المجال السياسى :

يظل الشعار المألوف فى المجال السياسى هو" سيادة شعبية لحكومة من الشعب ، بالشعب ولصالح الشعب " لكن إطار العمل الواقعى هو على العكس تماماً ذلك أن هذا الإطار يقوم على اعتبار الشعب عدوا خطرا ولابد من السيطرة عليه من أجل مصلحته !!!

وتعود هذه القضايا إلى قرون خلت ، إلى الثورات الديمقراطية الحديثة الأولى فى انجلترا فى القرن السابع عشر وفى مستعمرات أمريكا الشمالية بعد ذلك بقرن.

وفى كلتا الحالتين ، تلقى الديمقراطيون هزيمة ، ليس نهائياً وبالتأكيد ليس فى كل الحالات .

ففى إنجلترا القرن السابع عشر لم يكن أغلب السكان يريدون أن يحكمهم الملك أو البرلمان ولنتذكر أن الملك والبرلمان كانا هما المتنافسين (التقليديين) فى الصيغة المعتمدة من الحرب الأهلية ولكن ، كما فى معظم الحروب الأهلية لم تكن النسبة الغالبة من السكان ترغب فى الخضوع لأى منهما وكانت منشوراتهم صريحة فى إعلانها أن الشعب يريد أن يحكمه أناس من الشعب يعرفون مطالبه " وليس من قبل" فرسان ورجال يضعون لنا القوانين والتى يتم اختيارها للتخويف ولكنها تقمعنا بينما هم لايعرفون " آلام الشعب".

وقد ألهمت هذه الأفكار نفسها المزارعين الثوار فى المستعمرات بعد ذلك بقرن. لكن النظام الدستورى تم وضعه على نحو مخالف تماماً لتطلعات الأغلبية فقد حرص على وقف تلك الهرطقة حيث كان الهدف هو " حماية الأقلية الثرية من الأغلبية " و" ضمان أن تحكم الدولة من جانب أولئك الذين يملكونها"

لقد كانت تلك هى كلمات جيمس ماديسون الشخصية الرئيسية فى وضع إطار الدستور الأمريكى وجون جاى رئيس الكونجرس و أول وزير عدل فى المحكمة العليا.

ولقد دام مفهومهما طويلا غير أن الصراعات استمرت وتلك الصراعات عادة ماتأخذ أشكالاً جديدة كما أنها مازالت حية حتى وقتنا هذا ومع هذا فان عقيدة النخبة الثرية لم تتغير في الأساس.

وبالاتجاه السريع للقرن العشرين (سوف أظل هنا في الجانب الليبرالي التقدمي من الدائرة النظرية إذ أن الأمور هي أشد قسوة في الجانب الآخر) ، حيث تنظر الأقلية الثرية للسكان على أنهم " غرباء جهلة ومتطفلون " ينحصر دورهم في أن يكونوا متفرجين وليس مشاركين " وذلك على الرغم من فرص دورية للإختيار بين ممثلي السلطة الخاصة . وهذا هو مايعرف بالانتخابات.

وفي الانتخابات يتم اعتبار الرأي العام أساساً غير ذي بال إذا ماتعارض مع مطالب الأقلية الثرية التي تملك البلاد ونحن ، في الحقيقة نرى هذا الآن بوضوح. وأحد الأمثلة الصارخة (هناك العديد من الأمثلة) له علاقة بالنظام الاقتصادي العالمي-أو ما يسمى اتفاقيات التجارة.

إن الناس إجمالا ،وكما تظهر نتائج الانتخابات بوضوح يكونون معارضين بشدة لما يحدث لكن القضايا لا تثار في الانتخابات لأن مراكز القوة -الأقلية الغنية- موحدة في تأييدها لتأسيس نوع محدد من النظام الاجتماعي الاقتصادي وما تتم مناقشته يكون أشياء لا يهتمون بها كثيرا مثل ما له علاقة بالشخصيات أو بالاصلاحات التي يعرفون أنها لن تطبق.

وهذا موقف نمطي ويصبح ذا معنى من حيث افتراض أن دور الجمهور- بوصفه مجموعة من الغرباء الجهلة والمتطفلين -هو فقط أن يظل متفرجاً فإذا ما سعى الجمهور العريض- كما يحدث عادة- إلى تنظيم نفسه ودخول الساحة السياسية للمشاركة ولتقديم مطالبه فإن هذا يتحول إلى مشكلة، ولا تكون هناك ديمقراطية بل« أزمة للديمقراطية» ينبغي مواجهتها حينذاك.

المجال الاجتماعي الاقتصادي

هناك شئ مشابه لهذا في المجال الاجتماعي والاقتصادي .لقد نشبت صراعات متوازية مع السياسي أو ذات صلة قريبة بهذه الموضوعات لمدة طويلة جدا ففي الأيام الأولى من الثورة الصناعية في الولايات المتحدة ، في مقاطعة نيوانجلاند منذ ١٥٠ عاماً كانت هناك صحافة عمالية شديدة الحيوية تديرها نساء شابات فلاحات مع عمال من المدن.

وقد أدان هؤلاء «المهانة والخضوع» اللتين تميزان النظام الصناعي الصاعد حديثا والذي يضطر الناس إلى تأجير أنفسهم لكي يعيشوا.

وأنه لجدير بالتذكر وربما من الصعب التذكر أن العمل المدفوع الأجر(العمل بأجر) كان لا يعتبر مختلفا كثيرا عن العبودية في ذلك الوقت وليس فقط من جانب عمال المطاحن بل وفي الاتجاه السائد للمجتمع مثلما قال إبراهام لينكولن أو الحزب الجمهوري أو حتى الافتتاحيات في النيويورك تايمز (والتي ربما يفضلون أن ينسوها).

لقد كان العاملون يعارضون العودة إلى ما أسموه «المبادئ الملكية» في النظام الصناعي وطالبوا بأن يمتلك العاملون المطاحن التي يعملون فيها- روح الحزب الجمهوري وأدانوا ما أسموه «روح العصر الجديدة- اكسب الثروة ولتنس كل شئ عدا نفسك» وهي رؤية دنيئة ومهينة للحياة الإنسانية يتحتم أن يتم دفعها في عقول الناس بجهد مضن وهو -في حقيقة الحال لم يحدث منذ قرون.

وتقدم أدبيات صناعة العلاقات العامة في القرن العشرين مخزونا غنيا وإرشاديا من

المعلومات عن كيفية زرع« روح العصر الجديدة وذلك بخلق مطالب مصطنعة أو بين تسيير عقل الجماهير فى كتائب خاضعة للنظام تماما مثلما يقوم الجيش بتقسيم جنوده فى أفواج (إدوارد برنايز) وبإدخال «فلسفة اللاجدوى» وانعدام الهدف فى الحياة وتركيز الانتباه الإنسانى على« الأشياء الأكثر سطحية التى تشكل أكثر أنماط الاستهلاك عصرية».

فإذا أمكن تحقيق هذا ،فإن الناس سوف يقبلون الحيوات الخاضعة وغير ذات المعنى التى تناسبهم وسوف ينسون الأفكار المتمردة أو المخربه كما يصفها النظام أو الخاصة بسيطرتهم على حياتهم.

إن هذا مشروع كبير فى التحكم الاجتماعى وهو مستمر منذ قرون لكنه أصبح أكثر حدة وضخامة فى القرن الماضى (العشرين) وهناك وسائل عديدة لإنجازه من بينها بعض ما أشرت إليه وهى أساليب معروفة إلى حد أنها لا تحتاج للتوضيح والبعض الآخر تهدف إلى إضعاف الأمان وهناك أيضا عدد من الوسائل إن احدى وسائل إضعاف الاحساس بالأمان هى التهديد بالطرد من العمل أو النقل الوظيفى كوسيلة لفرض النظام .

ومن الأساليب الأخرى تدعيم ما يسمى بـ« مرونة سوق العمل» وسوف أقوم بالاقتباس من البنك الدولى الذى عرض المسألة بمنتهى الوضوح حين أعلن القائمون على هذا البنك «إن زيادة مرونة سوق العمل- على الرغم من السمعة السيئة التى اكتسبها ذلك التعبير كتجميل لخفض الأجور وطرد العمال (وهذه بالضبط حقيقة ذلك المصطلح) هو أمر حيوى فى كل مناطق العالم.

إن أهم الإصلاحات تتعلق برفع القيود عن حركة العمل ومرونة الأجور إلى جانب تحطيم الصلات بين الخدمات الاجتماعية وعقود العمل».

ويعنى هذا تقليص المنافع والحقوق التى تم كسبها عبر أجيال من الكفاح المرير.

وعندما يتحدث البنك الدولى عن رفع القيود عن مرونة الأجور فهم يقصدون المرونة الهابطة وليس المرونة التى ترتفع ولا يعنى الحديث عن حراك العمالة أن من حق الناس أن ينتقلوا إلى أى مكان يريدونه كما كانت تتطلب نظرية السوق الحرة منذ آدم سميث وإنما فقط تعنى الحق فى طرد العاملين عندما يريد رئيسهم ذلك.

وبموجب الصيغة الحالية من العولمة القائمة على المستثمرين يجب أن يظل رأس المال والشركات حرة الحركة ولكن ليس ذلك من حق الناس لأن حقوقهم ثانوية يمكن الالتفات إليها بالمصادفة.

ويتم فرض هذه الاصلاحات اللازمة مثلما يسميها البنك الدولى على أكثر دول العالم بما فيها الدول الغنية كشروط لمنح القروض وأن كان ذلك يحدث فى الدول الغنية بطريقة مختلفة.

ولقد شهد الان جرينسبان أمام الكونجرس بأن «عدم الأمان المتعاظم لدى العامل» كان عاملا مهماً فيما يعرف بـ« اقتصاد حكايات الجن أو الاقتصاد الخرافى» حيث ينخفض التضخم لأن العمال يكونون خائفين من أن يطلبوا الأجور والمزايا ويشعرون بعدم الأمان ويظهر هذا بوضوح فى السجلات الاحصائية.

عبر الخمس والعشرين سنة الماضية ، أى تلك الفترة من الرجوع للوراء ومن أزمة الديمقراطية ، ظلت الأجور ثابتة كما هى أو حتى انخفضت بالنسبة لغالبية قوة العمل وبالنسبة للعمال فى المواقع الدنيا بينما زادت ساعات العمل على نحو حاد وصارت الأعلى فى العالم الصناعى وقد لاحظت هذا بالطبع صحافة الأعمال التجارية والتى تصفه بأنه« تطور مرحب به وفائق الأهمية» حيث العمال يضطرون للتخلى عن أنماط حياتهم

الفخيمة بينما أرباح الشركات المتحدة مبهرة وهائلة الضخامة.

لا يوجد بديل:

فى الدول التابعة ، تكون الاجراءات المتاحة أقل كياسة . وأحدها هو ما يسمى بـ «أزمة الدين» والتى يمكن إرجاعها بصورة غالبة إلى برامج سياسات كل من البنك الدولى وصندوق النقد الدولى فى السبعينيات وإلى حقيقة أن أثرياء العالم الثالث فى الأغلب الأعم لا يتحملون أى التزامات اجتماعية وهذا صحيح على نحو درامى فى أمريكا اللاتينية وهو إحدى مشكلاتها الكبرى.

«وأزمة الدين» ليست حقيقة اقتصادية بسيطة بأى حال بل هى -إلى حد بعيد- بناء إيديولوجى ذلك أن ما يعرف بـ «الدين» يمكن إلى حد كبير التغلب عليه بعدد من الطرق المبدئية.

لكن هذا غير مسموح به . إن الدين سلاح قوى جداً فى السيطرة ولا يمكن التخلى عنه . وبالنسبة لنصف سكان العالم فى الوقت الحالى يقوم البيروقراطيون فى واشنطن بإدارة سياساتهم الاقتصادية الوطنية وكذلك فإن نصف سكان العالم (وهو ليس نفس النصف المذكور بل يتقاطع معه) يخضع لعقوبات أحادية من جانب الولايات المتحدة، وهى صورة من صور الاكراه الاقتصادى والذى مرة أخرى- يضعف السيادة بشدة ولقد أدين هذا الاكراه مراراً ومؤخراً من قبل الأمم المتحدة بوصفه غير مقبول لكن لا يبدو أن ذلك قد أحدث أى أثر.

وتوجد داخل الدول الغنية وسائل أخرى لتحقيق نتائج مشابهة ، ولكن قبل ذلك لابد من كلمة عما لا يجب أن نسمح لأنفسنا بنسيانه وهى أن الأساليب التى تستخدم فى الدول التابعة يمكن أن تكون بالغة القسوة.

فمنذ عدة سنوات عقد الجيزويت مؤتمرا فى سان سلفادور للنظر فى مشروع إرهاب الدولة فى الثمانينيات واستمراره منذ ذلك الحين بسبب من السياسات الاجتماعية الاقتصادية التى يفرضها المنتصرون.

ولقد أهتم المؤتمر بشكل خاص بما أسماه رواسب «ثقافة الإرهاب» والتى تستمر حتى بعد انحسار الإرهاب الفعلى ويكون من تاثيرها «استئناس توقعات الأغلبية» والذين يهجرون أى فكرة عن «البدائل» الأخرى التى تتناقض مع مطالب الأقوياء».

لقد تعلموا الدرس وهو أنه لا توجد بدائل-كما ورد فى عبارة مارجريت تاتشر القاسية- والفكرة -أنه لا توجد بدائل هى الآن الشعار المألوف لهذه النسخة من العولمة الجماعية.

وفى الدول التابعة يتمثل الانجاز العظيم للعمليات الإرهابية (الارهاب الأمريكى) فى تحطيم الآمال التى نشأت فى أمريكا اللاتينية والوسطى فى السبعينيات والتى ألهمها التنظيم الشعبى فى تلك المنطقة و«الخيار المفضل لفقراء» الكنيسة الأمر الذى تلقى عقاباً صارماً على ذلك الانحراف عن السلوك اللائق.

وأحيانا ما يجرى استخلاص الدروس المستفادة مما حدث بدقة محسوبة والآن يوجد سيل من مداهنة الذات عن نجاحنا نحن الأمريكيين فى إلهام موجة من الديمقراطية فى بلاد أمريكا اللاتيتية التابعة لنا.

ولقد تم عرض المسألة على نحو مختلف قليلا ولكن أكثر دقة فى مقال مهم من قبل أحد المتخصصين الرئيسيين حول الموضوع وهو توماس كاروثرس الذى -كما يقول- يكتب برؤية «العين الداخلية» حيث إنه عمل فى وزارة الداخلية ضمن برامج تعظيم الديمقراطية كما كانت تسمى فى إدارة الرئيس ريجان.

وهو يعتقد أن لدى واشنطن نوايا حسنة لكنه

يعترف أنه فى الممارسة على أرض الواقع سعت إدارة ريجان إلى الحفاظ على النظام الأساسى «لمجتمعات غير ديمقراطية تماما» وإلى تجنب «التغيير الذى يعتمد على الجماهير» وأنها -مثل إدارات سابقة عليها -تبنت» سياسات مؤيدة للديمقراطية كوسيلة لتخفيف الضغط الذى يطالب بتغيير أكثر راديكالية ولكنها فى نهاية الأمر سعت فقط إلى أشكال مقلوبة ومحدودة من التغيير الديمقراطى لا تجازف بخلخلة البنى التقليدية للقوة التى طالما تحالفت معها الولايات المتحدة» وربما أمكن القول -بدقة أكبر -«البنى التقليدية للقوة التى طالما ما تحالفت معها البنى التقليدية للقوة داخل الولايات المتحدة».

إن كاروثرس نفسه غير راض عن النتيجة لكنه يصف ما يسميه «بالنقد الليبرالى» على أنه معيب فى الأساس . ويقول (كاروثرس) إن ذلك النقد يترك القضايا القديمة بلا حل نظراً لنقطة ضعف أزلية «ونقطة الضعف تلك هى كونه لا يقدم بديلا لسياسة استعادة البنى التقليدية للقوة، وفى هذه الحالة حدث ذلك بإرهاب دموى خلف بضعة مئات الالاف من الجثث فى الثمانينيات وملايين اللاجئين.

كما خلف المبتورين واليتامى فى المجتمعات التى دمرت .

ومرة أخرى إذن نرى ذلك الشعار (الذى يختصر بكلمة (Tina)there is no alterantive) أي أنه لا يوجد بديل.

ولقد اعترف روبرت باستور- المتخصص الأساسى لدى الرئيس كارتر فى شئون أمريكا اللاتينية ، والذى يعد فى موقع الحمائم والتقدميين فى الدائرة أو المنحنى النظرى المسموح به- بنفس المأزق ولكن على مستوى آخر مختلف فى تلك الدائرة. فهو يشرح فى كتاب شيق لماذا اضطرت إدارة كارتر إلى تأييد نظام سوموزا الدموى والفاسد فى نيكارجوا حتى النهاية المريرة وأنه -حتى عندها -عندما تحولت البنى التقليدية للقوة ضد الديكتاتور فقد حاولت الولايات المتحدة الحفاظ على الحرس الوطنى الذى أسسته ودربته والذى -كما يقول باستور- كان يعتدى على السكان وقتذاك «بوحشية عادة ما تدخرها الدولة لعدوها» وكل هذا حدث بنية حميدة بموجب مبدأ « أنه لا بديل عن ذلك». وها هو السبب :«إن الولايات المتحدة لم تكن ترغب فى السيطرة على نيكارجوا أو دول أخرى بالمنطقة ولكنها أيضا لم تكن راغبة فى أن تخرج التطورات عن السيطرة لقد كانت تريد من نيكارجوا أن تتصرف باستقلالية «إلا» لو كانت تلك الاستقلالية ستؤثر سلباً على مصالح الولايات المتحدة».

وهكذا ، وبمعنى آخر ، فإنه يجب أن يحظى المواطنون الأمريكيون الجنوبيون بالحرية ولكنها الحرية فى أن ينهجوا بما يتفق مع رغباتنا ، نحن نريدهم أن يختاروا مسارهم بحرية الا فى حالة أن يقوموا باختيارات لا نريدها نحن وفى هذه الحالة يتعين أن نعيد البنى التقليدية للقوة بالعنف-إن لزم الأمر.

وهذا هو الجانب الأكثر ليبرالية وتقدمية فى الدائرة النظرية.

هناك أصوات خارج الدائرة -لا أريد أن أنكر هذا فمثلا هناك الفكرة التى تقول إن الناس يجب أن يكون لديهم الحق «للمشاركة فى القرارات» التى عادة ما تعدل أسلوب حياتهم على نحو عميق وأن لا تتحطم آمالهم بقسوة فى ظل نظام عالمى تتركز فيه القوة السياسية والمالية ، بينما تهتز الأسواق المالية بشدة ، مع النتائج المدمرة لذلك على الفقراء ، وحيث يمكن «استغلال الانتخابات بينما ينظر الأقوياء إلى الجوانب السلبية على الآخرين بوصفها غير ذات بال بالمرة».

إن هذه أفكار مقتبسة عن لسان المتطرف الراديكالى فى الفاتيكان (يقصد البابا) والذى لا يمكن نشر رسالته السنوية فى مطلع العام الجديد فى الصحافة القومية وهى بالتأكيد بدائل ليست فى خطة العمل.

لماذا يوجد هذا الاتفاق العام على أن الأمريكيين الجنوبيين -بل والعالم أجمع لا يمكن أن يسمح له أولهم بممارسة السيادة ، أى أن يسيطروا بأنفسهم على حياتهم؟ إنه النظير العالمى للخوف من الديمقراطية من الداخل.

وفى الحقيقة فإن تلك المسألة كثيرا ما كان يتم التعامل معها بوسائل بناءة جداً خاصة فى السجلات الداخلية التى لدينا (هذا بلد حر جدا ولدينا سجل حافل بالوثائق المسموح بالاطلاع عليها وهى شيقة جداً).

إن التيمة الرئيسية فى تلك الوثائق تتضح ،على نحو بارز فى إحدى أكثر الحالات تأثيرا وهو مؤتمر لنصف الكرة دعت إليه الولايات المتحدة فى فبراير ١٩٤٥ لمحاولة فرض ما كان يسمى بالميثاق الاقتصادى للأمريكتين الذى كان أحد حجرى الزاوية ، والذى كان لا يزال يقف صامدا فى عالم ما بعد الحرب.

ولقد عاد الميثاق إلى نهاية «القومية الاقتصادية (بمعنى السيادة) بكل أشكالها إذ كان الأمريكيين الجنوبيين أن يتجنبوا ما كان يدعى التنمية الصناعية «الزائدة» والتى يمكن أن تتنافس مع مصالح الولايات المتحدة وإن كان يمكنهم أن يقوموا بـ «تنمية تكميلية» وعلى هذا فإن البرازيل يمكن أن تنتج صلبا منخفض السعر لاتهتم به الشركات الأمريكية.

جوهريا ، كان يتعين علينا-كما قال جورج كينان- أن نحمى مواردنا حتى لو كان ذلك يتطلب «دولا بوليسية».

لكن واشنطن واجهت مشكلة فى فرض الميثاق وتم شرح ذلك بوضوح داخليا فى وزارة الداخلية فى ذلك الوقت على النحو التالى :

إن الأمريكيين الجنوبيين يقومون بالاختيارات الخطأ .لقد كانوا يطالبون «بسياسات تهدف إلى تحقيق توزيع أكثر إتساعا للثروة وإلى رفع مستوى معيشة الجماهير» كما أنهم كانوا مقتنعين بأن« المنتفعين الأوائل من تنمية موارد بلد ما يجب أن يكونوا شعب ذلك البلد» وليس المستثمرين الأمريكيين وهذا غير مقبول وعليه لا يمكن السماح بالسيادة.

لا يمكن أن تتمتعوا بالحرية، وإنما تكون لهم الحرية لاتخاذ القرارات الصحيحة (أى التى يستخدم المصالح الأمريكية).

وتقبع نفس هذه المخاوف فى خلفية الاتفاقات التجارية- على سبيل المثال «نافتا» لعلكم تذكرون أنه فى وقت «نافتا» (منظمة أمريكا الشمالية للتجارة الحرة) كانت الدعاية تقوم على أنها سوف تكون هدية رائعة للعمال فى الدول الثلاثة -كندا ، والولايات المتحدة والمكسيك غير أنه سرعان ما تم التخلى عن هذا عندما ظهرت الحقائق وظهر أن ما كان واضحا طوال الوقت تم الاعتراف به علناً فى نهاية الأمر.

كان الهدف هو «حبس المكسيك فى إصلاحات الثمانينيات» ، تلك الإصلاحات التى خفضت الأجور بدرجة هائلة وأدت إلى إثراء قطاع ضئيل إلى جانب المستثمرين الأجانب.

ولقد تم التعبير عن المخاوف التى تقع فى خلفية هذا الموضوع فى مؤتمر خاص بالتنمية الاستراتيجية فى أمريكا اللاتينية عقد بواشنطن عام ١٩٩٠ حيث تم التحذير من «انفتاح ديمقراطى» فى المكسيك يمكنه أن يختبر العلاقة الخاصة (بين المكسيك والولايات المتحدة) بتسهيل

وصول حكومة إلى السلطة تكون أكثر استعدادا لتحدى الولايات المتحدة على المستويين الاقتصادى والقومى».

لاحظو أن هذا هو التهديد نفسه الذى تمت إثارته فى عام ١٩٤٥ والذى تم التغلب عليه، فى هذه الحالة بحبس المكسيك فى التزامات الاتفاقيات.

إن هذه الأسباب نفسها تقبع طوال الوقت خلف نصف قرن من التعذيب والإرهاب وليس فقط فى نصف الكرة الغربى وهى أيضا فى قلب اتفاقات حقوق المستثمرين والتى يتم فرضها تحت شكل خاص من أشكال العولة والذى تصممه رابطة الاحتكارات المعممة للدولة.

الأقلية المركزة

ولنعد الآن إلى النقطة التى توقفنا عندها :القضايا الخلافية حول الحرية والحقوق ومن ثم السيادة من حيث قيمتها ،هل تعيش هذه القضايا بداخل أشخاص من لحم ودم أم فقط فى قطاعات صغيرة تتمتع بالثروة والامتيازات ؟ أو حتى فى بنى مجردة مثل الشركات أو فى رأس المال أو فى الدول؟.

فى القرن الماضى كانت فكرة أن هذه الكيانات لها حقوق خاصة حتى فوق الأفراد فكرة تحظى بتأييد كبير . إن أبرز الأمثلة هى البلشفية والفاشية وسيطرة الشركات الخاصة المتحدة والذى هو شكل من أشكال الطغيان المخصخص إثنان من هذه الأنظمة سقطا أما الثالث فهو حى ومزدهر تحت لواء «لا يوجد بديل» أى أنه لا يوجد بديل للنظام الصاعد لميركانتلية المركزة التى تتخفى وراء تراتيل مثل العولة والتجارة الحرة.

منذ قرن مضى وفى المراحل المبكرة من بزوغ المركزه فى الولايات المتحدة كان النقاش حول هذه المسائل صريحا تماما ،فقد أدان المحافظون منذ قرن مضى ذلك الاجراء واصفين الاحتكارات بانها «عودة إلى الاقطاع» وإحدى صور الشب[illegible] وهو ليس بتشبيه غير دقيق تماما . [illegible] كانت هناك أصول ثقافية مشابهة فى الأفكار الهيجيلية الجديدة حول حقوق الكيانات العضوية إلى جانب الاعتقاد فى الحاجة إلى وجود إدارة مركزية للأنظمة التى تميزها الفوضى -مثل الأسواق والتى كانت خارج نطاق السيطرة.

وإنه لمن الجدير بالذكر أنه فى ظل ما يسمى اليوم «باقتصاد التجارة الحرة» ،فإن عنصراً كبيراً جداً من عناصر المعاملات عبر الحدود (والتى تسمى تضليلاً التجارة) وربما نسبة ٧٠ بالمائة من هذه المعاملات هى فى الحقيقة داخل المؤسسات تدار مركزيا ، أى داخل شركات وتحالفات شراكة إذا ما أضفنا عادة استخدام عمال من خارج الشركات وأساليب أخرى للإدارات الحكومية.

وهذا بمعزل عن كل أشكال التعرجات الأخرى الحادة للسوق.

إن النقد المحافظ -ولاحظوا أننى استخدم مصطلح «محافظ» بالمعنى التقليدى فمثل أولئك المحافظين نادراً ما يوجدون الآن- كان يوجه سهامه ضد الجانب الليبرالى /التقدمى من الدائرة السياسية النظرية فى بدايات القرن العشرين ربما كأبرز ما يكون من جانب جون ديوى الفيلسوف الاجتماعى الأمريكى،الرائد والذى ركز عمله أساسا على الديمقراطية.

كان(ديوى) يقول إن الأشكال الديمقراطية ذات قيمة ضئيلة عندما تكون «حياة الدولة» فى الإنتاج والتجارة ووسائل الاعلام كلها محكومة بالطغيان الخاص فى نظام أسماه بـ «الاقطاع الصناعى» حيث يتم إخضاع العاملين للسيطرة الادارية وتصبح السياسة هى ذلك «الظل الذى تلقيه الأعمال التجارية (ورجال الأعمال) على المجتمع».

ولنلاحظ أنه هنا يتحدث بوضوح عن أفكار كانت شائعة تماما بين الفئات العاملة منذ سنوات ونفس الشئ يصدق على دعوته لإبدال الإقطاع الصناعى بديمقراطية صناعية تدار ذاتياً.

إنه لمن الشيق أن يتفق المثقفون التقدميون الذين كانوا يفضلون عملية المركزة بدرجة أو بأخرى مع توصيفه .مثلا ودرو ويلسون كتب أن «أغلب الناس هم خدام الشركات» المسئولون عن النسبة الأكبر من الأعمال التجارية فى الدولة وذلك فى أمريكا التى تختلف جداً عن أمريكا القديمة.. لم يعد هناك ذلك المشهد من المشروعات الفردية والفرص الفردية والانجاز الفردى» وإنما أمريكا جديدة حيث «توجد مجموعات صغيرة من الرجال يسيطرون على شركات كبرى ويملكون القوة والسيطرة على فرض الثروة والأعمال التجارية للبلاد «بحيث يصبحون» منافسين للحكومة ذاتها» ويضعفون السيادة الشعبية التى تمارس من خلال النظام السياسى الديمقراطى.

لاحظوا أن هذه (الكلمات) كتبت فى تأييد العملية إذ أنه (ويلسون) وصف العملية الاحتكارية بأنها ربما كانت تدعو للأسف لكنها ضرورية وأنها تتفق مع عالم تجارة الأعمال وخاصة بعد أن أقنعت انهيارات السوق المدمرة للسنوات السابقة كلا من عالم الأعمال التجارية والمثقفين التقدميين بأن الأسواق لابد وأن تدار وأنه لابد من تنظيم العمليات التجارية.

إن هناك أمثلة مشابهة حية إلى حد بعيد فى الساحة الدولية اليوم : مثل ذلك الحديث عن إصلاح المسار المالى وما إلى ذلك.

ومنذ قرن مضى استحوذت الشركات على حقوق الأفراد من خلال قرارات تشريعية راديكالية ناشطة وهو انتهاك متطرف للمبادئ الليبرالية الكلاسيكية .كما أنها (الشركات) تحررت من التزامات سابقة بأن تبقى ملتزمة بأعمال محددة أسندت لها. أضف إلى هذا فإن المحاكم وفى حركة مهمة -قامت بنقل السلطة تصاعدياً من حملة الأسهم ذوى الشراك إلى الإدارة المركزية والتى كان هناك تماه بينها وبين شخص الشركات المتحدة الخالد.

ومن ألف منكم تاريخ الشيوعية سوف يلتقط التشابه بين ما كان يحدث فى تلك الفترة وكما تنبأ فى الحقيقة نقاد البلشفية الفوضويون والماركسيون واليساريون إلى حد كبير . ذلك أن أناسا مثل روزا لوكسمبرج كانوا قد حذروا فى مرحلة مبكرة من أن الايديولوجية المركزية سوف تنقل السلطة من العمال إلى الحزب وإلى اللجنة المركزية ثم إلى الزعيم مثلما حدث بسرعة عقب الغزو الذى حققته سلطة الدولة عام ١٩١٧ والذى حطم على الفور كل أثر متبق للأشكال والمبادئ الاشتراكية. ورغم أن الدعائيين على كلا الجانبين يفضلون حكاية مختلفة وذلك لأغراض خاصة فإننى أعتقد أن هذه (أى ما قلته) هى الحكاية الأكثر دقة.

فى السنوات الأخيرة حصلت الشركات على حقوق أبعد بكثير من حقوق الأفراد وبموجب لوائح منظمة التجارة العالمية يمكن للشركات أن تطلب ما يسمى بحق «المعاملة الوطنية».

ويعنى هذا أن جنرال موتورز ، إذا كانت تعمل فى المكسيك يمكنها أن تطلب معاملة بالمثل مع شركة مكسيكية .وهذا حق فقط لأشخاص يتمتعون بالخلود وليس حقا لأشخاص من لحم ودم ذلك أن المواطن المكسيكى لا يستطيع أن يأتى إلى نيويورك ويطالب بمعاملة وطنية ولكن الشركات يمكنها أن تفعل هذا.

وهناك قواعد أخرى تطالب بأن تسود حقوق المستثمرين والمقرضين على حقوق الأفراد العاديين بعامة مما يضعف السيادة الشعبية ويقلص

الحقوق الديمقراطية.

إن الشركات تستطيع بطرق كثيرة أن ترفع القضايا وتحرك المواقف ضد دول ذات سيادة وهناك أمثلة شيقة فمثلا جواتيمالا حاولت منذ عدة سنوات أن تنخفض معدلات وفيات الأطفال بتنظيم تسويق تركيبة لغذاء الأطفال جديدة ورخيصة.

وما اقترحته جواتيمالا كان يتوافق مع المعايير الضابطة لمنظمة الصحة العالمية فقد التزموا بالمعايير الدولية لكن مؤسسة «جيربر» التى تنتج أغذية للأطفال أدعت أنها تتعرض للتجريد من الملكية وكان التهديد بشكوى لدى منظمة التجارة الدولية كافياً لكى تتراجع جواتيمالا خوفا من عقوبات على سبيل الرد من الولايات المتحدة حيث تعمل شركة «جربر».

وكانت أول شكوى بموجب لوائح منظمة التجارة الدولية هى تلك التى تقدمت بها كل من فنزويلا والبرازيل ضد الولايات المتحدة حيث اشتكت كل منهما أن القوانين الأمريكية حول البترول تنتهك حقوقهما كمصدرين للبترول ولقد تراجعت واشنطن تلك المرة أيضا بدعوى الخوف من العقوبات.

لكننى أتشكك فى ذلك التفسير إذ لا أعتقد أن الولايات المتحدة تخشى أن تفرض فنزويلا والبرازيل عقوبات ضدها والأرجح أن إدارة كلينتون ببساطة لم تر سببا جديا لحماية البيئة والصحة.

وتثور هذه القضايا على نحو درامى جداً بل وببذاءة الآن.

إن عشرات الملايين من الناس فى العالم يموتون من أمراض يمكن معالجتها وهم يموتون لأن الحماية التى تقدمها لوائح منظمة التجارة العالمية للشركات العملاقة لإحتكار حقوق التسعير بجعلهم عاجزين عن شراء الادوية فمثلا يكمن لكل من تايلاند وجنوب افريقيا اللتين لديهما صناعات للأدوية أن تنتجا عقاقير تنقذ الحياة بعشر تكلفة التسعير الاحتكارى لكنهما تخافان أن تفعلا هذا نظرا للتهديد بالعقوبات الاقتصادية . بل لقد قامت الولايات المتحدة فى عام ١٩٩٨ بالتهديد بسحب التمويل فقط فيما لو قامت منظمة الصحة العالمية بمراقبة تاثيرات الأوضاع التجارية على الصحة . إن هذه تهديدات حقيقية جدا اليوم.

ويسمى كل هذا «حقوقا تجارية» وحقيقة الأمر أن لا صلة لهذا بالتجارة .إنما له صلة بممارسات التسعيرة الاحتكارية التى تفرضها الاجراءات الساعية إلى الحماية والتى يتم إدخالها فيما يعرف باتفاقيات التجارة الحرة.

وتهدف تلك الاجراءات لحماية حقوق الشركات كما أنها تؤثر فى الانتقاص من التنمية والابتكار وهى جزء من منظومة قوانين تم إدخالها فى تلك الاتفاقات والتى تعوق التطور والتنمية. الشئ المهم هو حقوق المستثمرين وليس التجارة .والتجارة بالطبع لا قيمة لها بحد ذاتها إنما تكون ذات قيمة عندما تزيد من رفاه الإنسان وإلا فلا قيمة لها.

وبشكل عام فإن المبدأ الأساسى الذى تقوم عليه منظمة التجارة العالمية والمعاهدات المتصلة بها هو أن السيادة والحقوق الديمقراطية لابد أن يخضعا لحقوق المستثمرين .وفى الممارسة الواقعية يعنى ذلك حقوق أشخاص خالدين عمالقة لهم طغيانهم الخاص يمارسون طغيانا يخضع له كل الناس.

لقد كانت هذه من بين القضايا التى أدت إلى الأحداث المذهلة فى سياتل .لكن بمعنى ما أو بمعان عديدة فإن الصراع بين السيادة الشعبية والقوة الخاصة قد برز بشكل أكثر حدة بعد شهور من سياتل .وفى مونتريال تم التوصل إلى اتفاق غامض بشأن ما سمى بـ« بروتوكول الأمان الحيوى» . هنا تم توضيح المسالة تماما ، إذ قالت النيويورك تايمز إن اتفاقا وسطاً تم التوصل إليه

عقب «مفاوضات مرهقة كانت عادة تترك الولايات المتحدة مجرحة الوجه إذ تقف ضد الجميع تقريباً».

حول ما يسمى«بمبدأ الاحتراز».

فما هو مبدأ الاحتراز هذا؟.

لقد شرحه المفاوض الأول فى الاتحاد الأوروبى على النحو التالى:

«لابد أن تكون للدول الحرية وحق السيادة فى أن تتخذ اجراءات احترازية فيما يتعلق بالبذور والميكروبات والحيوانات والمحاصيل المخلقة جينياً » والتى تخاف من ضررها المحتمل .أما الولايات المتحدة فقد أصرت على إعمال لوائح منظمة التجارة العالمية والتى تقول إنه يمكن مصادرة منتج ما يتم استيراده فقط على أساس من الدليل العلمى.

ولتلاحظ الشئ المهمّ هنا وهو ما إذا كان للناس الحق فى أن يرفضوا أن يكونوا كائنات تخضع للتجارب . ولتجسيد الموقف تخيلوا أن يأتى أشخاص من قسم الأحياء بكلية العلوم ويدخلوا عليكم ويقولوا «إن عليكم أن تكونوا كائنات تجارب فى تجربة معملية ننفذها حيث سنقوم بتركيب مجسّات كهربائية فوق عقولكم لكى نرى ما الذى سيحدث ،ومن حقكم أن ترفضوا ولكن فقط إذا ما وفرتم لنا دليلا علمياً أن ذلك سوف يؤذيكم».

عادة أنتم لا تستطيعون تقديم الدليل العلمى لكن السؤال هو هل لديكم الحق فى الرفض أم لا؟.

لانه بموجب لوائح منظمة التجارة العالمية ليس لكم /لنا هذا الحق، بل يجب أن تكونوا مخلوقات تجارب وهو شكل من الأشكال التى أسماها إداورد هيرمان «سيادة المنتج» فالمنتج يحكم ويتعين على المستهلكين بطريقة ما أن يدافعوا عن أنفسهم ولقد أوضح (هيرمان) أن ذلك من مسئولية الصناعات الكيماوية والمبيدات أن تثبت أن ما يفرضونه على البيئة آمن وإنما هى مسئولية الجمهور أن يثبت علمياً أن تلك الممارسات خطرة وعليه أن يفعل ذلك من خلال وكالات شعبية لا تحظى بالدعم المالى الكافى والتى هى كذلك عرضة لتأثيرات تلك الصناعات من خلال جماعات الضغط وضغوط أخرى.

كانت تلك هى القضية فى مونتريال وتم التوصل هناك إلى نوع من الاتفاقات الغامضة.

ولتلاحظوا -وذلك لكى تكون الأمور واضحة -أنه لم تكن هناك قضية مبدأ . ويمكن تبين هذا من اصطفاف الفريقين حيث وقفت الولايات المتحدة من ناحية وإنضمت إليها بعض الدول ذات المصلحة فى تصديرها المكثف ومن ثم إمكانية خسارتها فى مجالات تصدير التكنولوجيا البيولوجية والمعدات الزراعية المتطورة تكنولوجيا وفى الناحية الأخرى كان الجميع -أى كل من لا يتوقعون الانتفاع بالتجربة.

ولأسباب مشابهة يفضل الاتحادالأوروبى تعريفات مرتفعة على المنتجات الزراعية تماما مثلما كانت الولايات المتحدة تفضل ذلك منذ ٤٠ عاماً ولكن لم يعد الأمر كذلك ولكن ليس لأن المبادئ تغيرت بل لأن توازنات القوة تغيرت.

ثمة مبدأ غالب مهيمن يقول هذا المبدأ أن الأقوياء وذوى الامتيازات لابد وأن يتمكنوا من أن يفعلوا ما يريدونه (وبالطبع هم فى أثناء ذلك يتوسلون بالدوافع النبيلة) والخط الموازى لذلك هو أنه لابد من التضحية بالسيادة والحقوق الديمقراطية للجماهير وتتمثل هذه الحالة -وهو ما يجعل الأمر دراميا جداً- تتمثل فى عدم استعداد الجماهير لأن تكون مخلوقات تجارب حينما تكون الشركات الأمريكية هى المستفيدة من التجارب.

وطبيعى أن تدافع أمريكا عن لوائح منظمة التجارة العالمية لأنها هى التى وضعتها.

إن هذه القضايا على الرغم من أنها حقيقية جداً وتؤثر على أعداد كبيرة من الناس فى العالم

إلا أنها فى الحقيقة ثانوية قياسا على وسائل أخرى لتقليص السيادة لصالح قوة القطاع الخاص.

وكان تفكيك نظام بريتون ودز فى بدايات السبعينيات من جانب الولايات المتحدة وبريطانيا ودول أخرى هو أخطر ما حدث. كانت الولايات المتحدة وبريطانيا هما من وضعتا ذلك النظام فى الأربعينيات . وكانت تلك فترة تأييد شعبى عارم لبرامج الرفاه والخدمات الاجتماعية والاجراءات الديمقراطية الراديكالية ولهذه الأسباب ، جزئيا، فقد قنن نظام بريتون ودز فى منتصف الأربعينيات معدلات الصرف ، وسمح بالقيود على سيولة رأس المال إذ كانت الفكرة هى تقليل المضاربة المبددة والضارة وتقييد خروج الأموال.

وكانت الأسباب مفهومة تماماً وتم التعبير عنها بوضوح ذلك أن تحرك الأموال بحرية يخلق أحياناً ما يسمى بـ«برلمان فعلى»من رأس المال العالمى والذى يمكنه أن يمارس سلطة الفيتو على سياسات الحكومة التى يعتبرها غير عقلانية ، وهذا يعنى إهمال أشياء مثل حقوق العمال أو برامج التعليم أو الصحة أو الجهود الرامية إلى تنمية أو إنعاش الاقتصاد أو حتى أى شئ يمكنه أن يساعد الناس وليس مجرد الأرباح (وعليه يكون ذلك الشئ غير عقلانى بالمعنى التقنى).

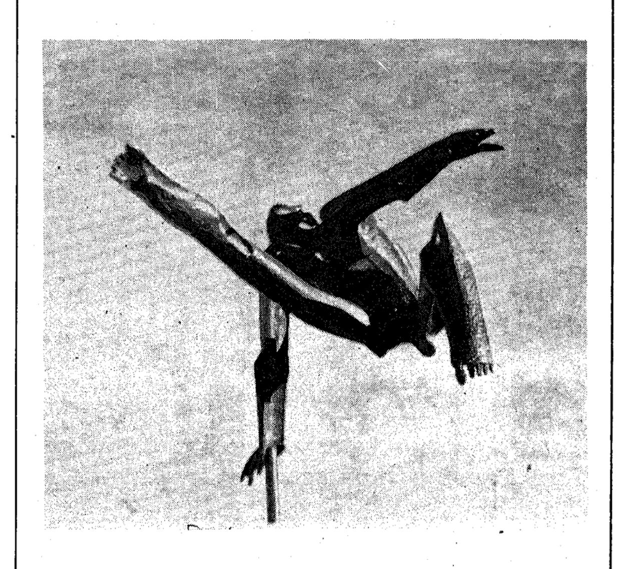
ولقد ظل نظام بريتون ودز يعمل تقريبا طيلة ٢٥ عاما ، وهذا ما يسميه العديد من الاقتصاديين بـ «العصر الذهبى للرأسمالية الحديثة» (أو -بدقة أكبر- رأسمالية الدولة الحديثة) .فقد كانت تلك المرحلة أى تقريبا حتى عام ١٩٧٠ ، هى مرحلة نمو تاريخى غير مسبوق للاقتصاد والتجارة والانتاجية واستثمار رأس المال والتوسع فى سياسات دولة الرفاه والخدمات . وانقلب ذلك فى بدايات السبعينيات إذ تم تفكيك نظام بريتون ودز بتحرير الأسواق المالية وتعويم معدلات الصرف.

وقد جرى وصف المرحلة التى تلت ذلك بالعصر الرصاصى . كان هناك انفجار كبير لرأس المال المضارب الطائر ذى الأجل القصير جدا وقد طغى تماما على الاقتصاد الانتاجى وحدث تدهور ملحوظ تقريبا فى كل مجال فمثلا تباطأت ، التنمية الاقتصادية الإنتاجية وتنمية استثمار رأس المال مع معدلات فائدة أعلى(والتى تبطئ من النمو) وتقلبات أكثر للسوق وأزمات مالية أكبر.

وولدت هذه الأمور تأثيرات إنسانية شديدة جدا ، حتى فى الدول الغنية : مثال ذلك الأجور الراكدة أو الهابطة ، ساعات أطول للعمل وعلى نحو لافت فى الولايات المتحدة جنبا إلى جنب تقليل الخدمات.

ولإعطائكم مثالا واحدا فقط على اقتصاد اليوم والذى يعرفه الجميع فقد عاد الدخل المتوسط للأسرة إلى ما كان عليه عام ١٩٨٩ وهو أقل مما كان عليه فى السبعينيات كما كانت تلك مرحلة تفكيك للاجراءات الديمقراطية الاجتماعية التى كانت قد حسنت الأوضاع الإنسانية، وبشكل عام فإن النظام العالمى المفروض حديثاً أتاح الفرصة على نحو أكبر لسلطة فيتو «البرلمان الفعلى» من الرأسمال الخاص للمستثمرين بما يؤدى إلى تراجع كبير للديمقراطية والحقوق السيادية إلى جانب تدهور كبير فى الصحة الاجتماعية عامة.

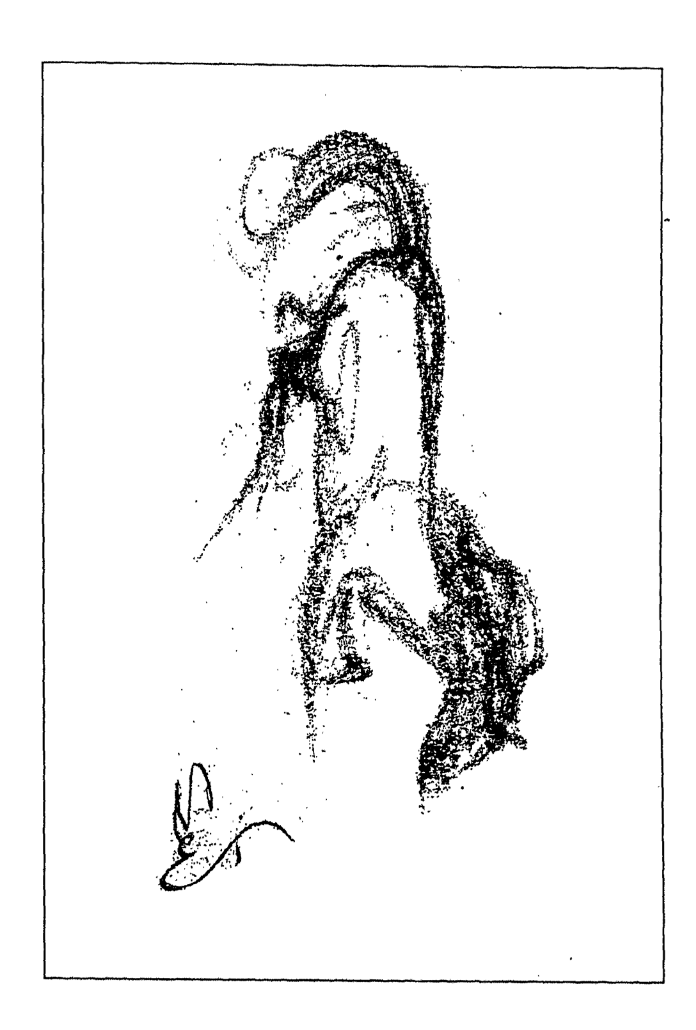
فإذا كانت هذه التأثيرات محسوسة فى المجتمعات الغنية فهى كارثية فى المجتمعات الفقيرة. هى إذن قضايا عابرة للمجتمعات ولذا من الخطأ القول إن هذا المجتمع يزداد غنى وذاك المجتمع يزداد فقراً لأن قطاعات من السكان على مستوى العالم وطبقا للبنك الدولى تزداد غنى وإذا قارنا دخول أعلى خمسة بالمائة(٥٪) من سكان العالم بآخر خمسة بالمائة (٥٪)نجد أن



النسبة كانت ٧٨ إلى ١ عام ١٩٨٨ وأصبحت ١١٤ إلى ١ عام ١٩٩٣ (وهذه أخر مرحلة توافرت لها الاحصاءات) ولابد أن النسبة أعلى الآن بكثير ونفس الاحصاءات تبين أن نسبة الواحد بالمائة من سكان العالم تتمتع بنفس دخل الـ ٥٧ بالمائة (٥٧٪) الأخيرة أو الدنيا ، أى أن واحد بالمائة يحصلون على نفس ما يحصل عليه ٢ر٧ مليار شخص.

إنه لمن الطبيعى تماماً أن تفكيك النظام الاقتصادى لما بعد الحرب (العالمية) يجب أن يتلازم مع هجوم كبير على الديمقراطية الحقيقية -أى على الحرية والسيادة وحقوق الإنسان تحت شعار «لا يوجد بديل» وهذا يبدو كأنه نوع من المحاكاة الساخرة للماركسية الفجة.

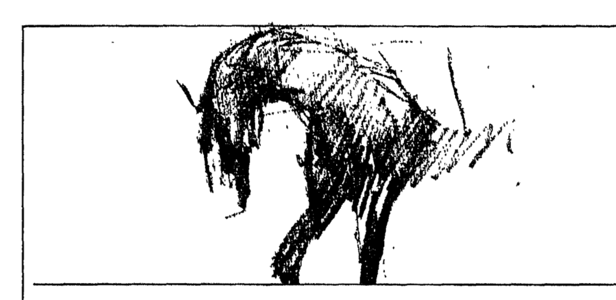
لا حاجة بنا للقول أن ذلك الشعار هو عملية نصب يستهدف مصلحة من يردده فى نظام اجتماعى اقتصادى يتم فرضة هو نتاج قرارات بشرية فى مؤسسات يديرها البشر . والقرارات يمكن تعديلها كما أن المؤسسات يمكن تغييرها وإذا ما دعت الحاجة يمكن تفكيكها واستبدالها بأخرى مثلما دأب المخلصون والشجعان على أن يفعلوا ذلك عبر التاريخ.





الحصان

تأليف : سيجفريد ستاندر
ترجمة : بدر الرفاعي



" الحصان " والطبيعة وبدر الرفاعى

أحمد الشريف

" الحصان " ، رواية الكاتب الانجليزى سيجفريد ستاندر . الطبيعة أو تجسيد الطبيعة فى الفن فكرة كنت أناقشها مع مترجمنا المصرى البارز بدر الرفاعى . فانا شغوف بالطبيعة بكل مفرداتها من غابات وغيطان وحدائق وأنهار وبحيرات وحيوانات وأرض وسماء وبشر . أؤمن بمقولة " سيزان" إن فى الفن كل شئ نظرى . يتطور ، يتحقق، بالصلة مع الطبيعة . هذه القناعة دفعتنى للحوار والنقاش مع الأصدقاء من الكتاب والفنانين ، حتى كان ذلك الحوار الرائع مع بدر الرفاعى والذى قال لى إن هناك رواية فذة كلها تجسيد لدور الطبيعة فى الفن ، وذكر رواية (الحصان) وأنه قد ترجمها ولكن لم ينشرها ..على الفور طلبت أن يحضر نسخة كى أقراها . وبالفعل أحضرها وقرأتها بمتعة كبيرة ، لكن لم أجد فى النسخة التى أعطانى إياها معلومات عن المؤلف ، عندما سألته عن السبب قال إنه لم يجد معلومات فى النسخة الإنجليزية الأصلية .

وبعد أن رآنى متحمساً لنشر الرواية فى الديوان الصغير (أدب ونقد) طلب منى أن أدخل على شبكة NET أو أجد من يدخل كى يجمع بعض المعلومات وبالفعل حصلنا على معلومات بسيطة مع ذلك تكفى للتعريف بالمؤلف ، كى يحظى القارئ بمتعة قراءة رواية مدهشة وأيضاً معرفة المؤلف.

---

* سيجفريد ستاندر ، كاتب إنجليزى مواليد ١٩٣٥،

- عمل بالصحافة وله عديد من الأعمال أهمها :

مكان صحراوى ١٩٦١ **this desert place**

الحصان ١٩٦٨ **The horse**

يوميات جوزفين ١٩٨٦ **The jaur.ny of jesephine**

فصل ليلى ١٩٧٧ **Night Season**

غير المرغوب فيه أو المكروه ١٩٧٤ ، بالاشتراك مع كريستيان برنار **The Un wanted**

في تلك الليلة ،كان في السماء ربع قمر ، وبمجرد اختفائه جاءت الأسود.

كان الرجال يتوقعون مجيئها منذ ما يزيد على الأسبوع ، عندما دخلوا ، مع خيولهم إلى المنطقة المشجرة التى تحف بالغور . في كل ليلة ،كانوا يقيمون سياجا من الأشواك ، يدفعون بخيولهم خلفه،ويشعلون إلى جواره نارا ضخمة من الجذوع الجافة ،فيتصاعد اللهب ، ويحلق صانعا أشكالا متحركة من الضوء اللامع ، تنعكس على جلود الأفراس المتزاحمة القلقة. وفي كل ليلة كانوا يعينون منهم حارسا ، يسهر أمام النار ، بينما ينام الباقون.

لكنهم- بعد مرور أسبوع لم يحدث خلاله شئ أو يأتي شئ، سوى ضبع متسلل أو ابن آوى سريع العدو- فقدوا الاهتمام شيئا فشيئا ، وصاروا يهملون أمر الشوك، ولا يثبتون الأوتاد بعناية ،كعادتهم ، أما النار فقد خبت لأنهم لم يعودوا يهتمون بجمع ما يكفى من العشب الذى يجعلها مشتعلة حتى الصباح .كذلك أصبح الحراس أقل يقظة ، لأن شيئا لم يحدث ،ولأن شيئا لم يأت.

في ذلك المساء، أصيبت الفرس الكستنائية بحالة من الهياج، فهي قد وضعت مهرها أثناء المسيرة ، وأصبح المهر الذى بلغ الأسبوعين من عمره، بساقيه الخرقاوين وخطمه الأملس الفضولي ، مصدر اضطراب لبقية الخيول، وعندما حاول الرجال دفعها مع المهر إلى داخل الحظيرة ، شبت وصهلت ، رافعة معرفتها في تحد واستدارت مبتعدة، وهو ما جعل بقية القطيع يدور معها ، لكن أحد الرعاة هرول مسرعا إلى الأمام ، حاملا سلاحه في إحدى يديه والحبل في اليد الأخرى ، محاولا تهدئتها بحمحمات متلاحقة .في تلك اللحظة، كانت الفرس والمهر يتأهبان للجرى ، لكن الرجل التف حولهما ببطء فدارا معه. ولحظة أن أصبح إلى اليمين منهما ، أطلق صرخة عالية مفاجئة ، ثم قفز إلى الأمام موجها ضربات متتالية بالحبل إلى كفل المهر. صرخ المهر من الألم واتجه نحو الحظيرة بخطوات متشنجة . ولحقت به الفرس القلقة، وتبعتها بقية الخيول طائعة.

تبادل الرعاة الضحكات وهم يسحبون المزيد من فروع الشوك ليسدوا بها البوابة ، وصاح أحدهم :« يواتسوجا ..كان خائفا » .ضحكوا من خوف المهر طويلا ، وحتى بعد أن التحفوا ببطاطينهم ظلوا يضحكون في سرهم كلما تذكروه.

كانوا من رجال «باتاوانا» الشماليين ، يتاجرون في الخيول بين قبائل «بامانجواتو» يخدعون بلا رحمة ،لأنهم أناس بسطاء يضحكون بسهولة لأشياء بسيطة.

هاهم يرتحلون جنوب الغور الضحل الواسع والذى يطلقون عليه« ماكارى كارى» ، والذى يمتد ميلا بعد ميل إلى ما لانهاية.

ظلوا بالدغل وسط الأشجار بالرغم من بعد المسافة بينه وبين الغور ، لأن الوقت وقت الجفاف ويمكن أن يموت الإنسان في هذه الأرض المقفرة ، أو يصاب بالجنون وسط هذا الأفق الفارغ.

..كما أنها غابة ملعونة.

شيئا فشيئا ، استقر المعسكر ..الرجال يتدثرون بأغطيتهم ،والجياد بعضها راقد والبعض الآخر يقف ساكنا ، تتلامس فى رفق ،وهى تحدق بعيون عمياء فى القمر الساطع خلف الأشجار.

خمدت النار ،فقام الحارس متثاقلا ليحضر مزيدا من العشب .كان رجلا بالرغم من عمره الذى لم يزد على السبعة عشر عاما ،، وكان حزينا لأنه اكتشف الورطة التى وقع فيها (أخبره بذلك الرجال الأكبر سنا ولم يكفوا عن إغاظته). كانوا فى طريقهم إلى المنطقة التى ينتشر فيها وباء «ناجانا» ،ومن المؤكد أن كل الخيول سوف تموت عندما يسقط المطر . فإذا ما ولدت الأفراس الآن ، اشتد عود المهور تحت المطر . أما وقد وضعت الكستنائية وليدها قبل الأوان ، فمن المحتم أن تنفق مع مهرها عندما يحل الوباء.

شعر الشاب بالمرارة بسبب هذه الخسارة ،فقد كان بإمكانه الحصول على زوجة مقابل الخراف الأربعة التى دفعها ثمنا لهذا الحصان الهالك.

جلس بتراخ أمام النار ، متدثرا بغيظه، يترامى إلى سمعه غطيط رفاقه ،تمتم :« لا ينبغى للمرء أن يتحمل كل هذا ». ثم توجه بالسباب للنائمين ، وشعر بقليل من الراحة.

غاص القمر بهدوء خلف الأشجار ، وفى مكان ما من السهول انطلق فجأة قطيع من الحيوانات فى عدو شرس .استيقظ أحد النيام وأنصت مع الحارس للحظة ،ولما لم تكن هناك علامة على ما أفزع الحيوانات ، سحب الغطاء فوق رأسه مرة أخرى ، تاركا الشاب لصمته وأفكاره الخاصة، وظل الشاب يحملق فى اللهب المتصاعد ، بينما غاب عقله فى حلم طويل أصبح فيه ، بطريقة أو بأخرى ،مالكا للخيول الثمانية عشرة التى يضمها القطيع .وبعد قليل ،نام هو أيضا .

جذع الشجرة المشتعل يتحول، شيئا فشيئا ،إلى رماد.

ماتت النار ،وغاب القمر.

عندما استيقظ الحارس كان أحد الأسود قد أصبح داخل حظيرة الشوك بالفعل.

كان الهجوم مخططا ومنفذا بإحكام لايخطئ .بعد الغروب بقليل ، اختبأ الأسدان واللبؤات الثلاث بين الأعشاب الطويلة، وعندما حان الوقت نهض أكبر الأسدين وابتعد فى الظلام دون أن يلتفت إلى رفاقه . سار بخفة فوق الأرض الرملية، يتحرك بثقة مطلقة، مدركا قوته وسرعته ، غير هياب ، شديد العزم لا يرحم، حام حول الحظيرة من الجهة اليمنى ، بعيداً عن النار ، وفى عكس إتجاه الريح.

بعد قليل ،ظهرت بقية الأسود ، وانتشرت مكونة ما يشبه الهلال ، تسير ، مع اتجاه الريح، نحو الحظيرة مباشرة .إنها واحدة من المناورات العديدة التى نفذتها الأسود مرات لا تحصى كل منها يعرف كل حركة من حركات اللعبة.

زأرة عالية من الأسد الأكبر كانت إشارة البدء ، اتجه بعدها يمينا نحو الحظيرة.

زأر فجأة وأظهر نفسه للفريسة المقصودة كى تلتقط رائحته ، فتعبر الأقدام الخمسة التى يرتفعها السياج فى قفزة واحدة ، وزأر مرة أخرى وهو يهبط وسط الجياد ، بينما ظلت الأسود الأربعة الأخرى

متحفزة دون حراك.

صهلت الجياد ، وزأر الأسد ، واندفع الحارس نصف نائم ،يتعثر فى قطع الفحم ويصرخ ،أما رفاقه الذين ظنوا أن الأسد قد أمسك به، فقد هبوا زاحفين يبحثون عن رماحهم وحبالهم.

أجابهم الأسد من داخل الحظيرة ،ملوحا بمخالبه فى وجه الجياد التى التفت حوله فى هياج جنونى ، لكنه لم يقفز أو يحاول القتل ،كل ما فعله هو محاولة تفادى الحوافر المذعورة الطائشة ، ثم أطلق زئيره مرة أخرى:

كما كان متوقعا ، فرت الجياد. فرس داكنة الحمرة قفزت فى فزع محموم لتتعثر فى أحد الفروع البارزة، وبصورة عمياء ، تبعتها بقية الجياد ،تحطم فى طريقها الأشواك ،وهى تصرخ وتصهل ، يركل بعضها البعض كى يعبر الفتحة أولا ، واندفعت خارجة بقوة فى فرار مذعور.

وكانت الأسود رابضة بين الحشائش ، تنتظر.

أفاق الرجل من المفاجأة ، غذوا النار بالحشائش الجافة وتمكنوا من العثور على أسلحتهم ، أمسكوا بحزم النار بدلا من المشاعل ، يقودهم الرجل الذى يحمل سلاحهم النارى الوحيد ، بندقيتهم القديمة المربوطة بأسلاك عريضة ، يحاولون السيطرة على الجياد.

تقدم الرجل ببطء عبر الفتحة التى أحدثتها الخيل وصوب بندقيته نحو الأسد الكبير الموجود بداخل الحظيرة ، توقف بحدة وأطلق النار ، فصفر المقذوف المعدنى حول وجه الأسد الذى شب مزمجرا فى وجه مهاجمه ، وبسرعة قفز مبتعدا ليختفى بين الظلال.

حوّل صوت الطلقة وصيحات الرجال القلقة اتجاه الجياد نحو اليسار ، بعيدا عن الكمين الذى كان ينتظرها ، وقت أن كانت الأسود تتأهب للقفز . ودارت الخيول مبتعدة ، تتخبط حوافرها فى الظلمة مثيرة الغبار أينما مرت ، وصدر عن إحدى اللبؤات أنّة قلقة. لم تفعل الأسود شيئا آخر، وعندما صدر عن قائدها ، الذى كان يقف على مبعدة منها ، صوتا ينم عن الفشل ، أخذت تتسلل واحدا وراء الآخر وقد تلاشى كبرياؤها .

جاء الأسد الكبير مسرعا ، وهو يخور، وعندما انضم إليها ، زأر من أعماقه بشدة ، لدرجة أن ثورا ضالا كان يتسكع بعيدا ، انتفض مرتبكا وانطلق يعدو.

خيم الصمت على الأسود ، وبدأت تتحرك على نفس الطريق الذى انحدرت إليه الخيول ، فلا زال الليل طويلا وهناك فرصة طيبة للإيقاع بهذه الكائنات المستأنسة.

فرت الفرس الكستنائية مع بقية الجياد ، لكنها تذكرت مهرها الصغير ، فدارت للخلف ، تستدعيه بصهلات عالية قلقة.

أخيرا ، جاء المهر متعثرا ، يترنح فوق قدميه الخلفيتين اللتين جرحتا أثناء المطاردة ، وهو يرتجف ،كانت رائحة الخطر قد انتقلت إليه من الخيول ، فاندفع معها ،غير قادر على تمييز مصدر الخطر ،وها.

هو جسد أمه المريح يلوح فوقه مرة أخرى ، وقد زال الخطر من مخيلته ،وتقدم من ثدى أمه برفق يتحسسه كى يرضع.

لكن الفرس ،مدركة أن الخطر لم ينته بعد، دفعت به جانبا بصبر نافد ووقفت ، برأس منتصب وآذان مفرودة ،تنصت إلى الأصوات المنبعثة من بين الأشجار حيث تجرى بقية الخيول ،ومرة أخرى ، أطلقت الأسود زئيرها لتندفع الفرس فى قفزات سريعة ،والمهر- يشاركها خوفها -جرى ليظل إلى جوارها، يتعثر فى البداية ، يترنح فوق أطرافه اللينة ، لكنه يكتشف فى النهاية الإيقاع الغريزى ، ويعدو فى الظلام ليجرى بحرية وإطلاق إلى جوار الفرس.

قبل أن تبدأ فى تقليل سرعتها بالتدريج ، كانت الخيول قد جرت لمسافة أكثر من ميل ،لكنها انطلقت تعدو مرة أخرى عندما عاودت الأسود البعيدة زئيرها من جديد . ميلين قطعتهما الفرس وسط الجحيم المطبق للأشجار ، تقطعت خلالها أنفاسها تماما ، أما المهر ، فقد أصبح منهك القوى ، يتنفس بصعوبة وترتعش أقدامه ، وأخيرا ، غاص بجسده وسط الحشائش الهشة ، وألقى برأسه وفرد رقبته معلنا استسلامه التام.

اقتربت الفرس بحنو من الجسد الصغير الرخو وأطلقت صهيلا قصيرا لتحثه على النهوض ،لعقت جبهته وأذنيه كما تلعق القطة صغيرها ، وبعد جهد كبير نهض المهر وهو يترنح.

رضع المهر ثدى أمه بنهم وامتنان.

كان لا يزال يرضع(بحثا عن الأمان هذه المرة ،حيث كان الجوع والعطش قد أشبعا) عندما عثرت عليهما الأسود ثانية.

كان التحذير الوحيد هو تكسر الأعشاب تحت ثقل الأسود ،وعندما استدارت الفرس وشبت على قدميها ، فوجئت بالأسد الكبير طائرا فى الهواء ،هبط الأسد ،بساقين نصف منفرجتين ، فوق كتفيها ليمزق الظهر ويضرب بوزنه الثقيل على الساقين ،صرخت الفرس ، وحاولت رفسه ،لكن الأسد تفادى حوافرها واندفع ثانية، واثبا فوق الرقبة ليكسر عنقها بضربة من مخالبه القوية ،اصطدمت رفستها المميتة بضلوع المهر، فدفعت به بعيداً مجروح الرأس، وامتلأ المكان بأشباح سوداء ثقيلة ، وخيمت عليه رائحة الخوف، وشق المهر لنفسه طريقا بين شجيرات الشوك القصيرة ، يدفعه خوف غامض لا يدرك كنهه.

وجهت إليه إحدى اللبؤات ضربة عارضة أخطأته ، وجرت خلفه عدة خطوات ، لكن خوار الأسد الذى كان يمزق الذبيحة ، استدعاها فتركت الحيوان الصغير يلوذ بالفرار.

خلال الليل توغل المهر فى البرية ومن حين لآخر ، كان الإنهاك يضطره إلى التوقف ، لكنه سرعان ما يعاود التحرك ثانية على أثر صوت غصن يتكسر خلفه منذرا بالسوء ، أو انتفاض عصفور فى نومه ، أو صفير ريح . كانت حركته الهائجة القلقة هى السبيل الوحيد للهرب مما يفاجئه من أخطار.

حل الفجر وقد أوغل فى السهول ، يمشى (فلم يعد قادراً على الجرى مطلقا) بين الأعشاب القصيرة

الهشة التى تمتد حوله إلى ما لانهاية .الكائن الوحيد المتحرك فى مرآة إلفرا غ اللامعة ،ومع خيوط الفجر الأولى ، انحدر نحو مياه الغور .كان وحيدا .لم يعرف من قبل معنى أن يكون وحيداً.

على البعد ظهرت أمامه شجرة« التبلدى» ذات الجذوع الكبيرة المتشابكة ، فاندفع نحوها بالغريزة باحثا عن ظل يقيه حرارة الشمس التى تسقط فوق رأسه ،كانت الشجرة قد ماتت منذ قرن مضى أفرغها النمل الأبيض ،ولم يتبق منها سوى قشرة من اللحاء الجاف ، لكنها ظلت واقفة كما كانت منذ قرن، وفى كهف صغيرة صنعته فروعها العريضة، ألقى المهر بنفسه ونام.

رقد هناك طوال اليوم ، يكاد لا يتحرك ، رعدة خفيفة كانت تسرى فى جسده ، من حين إلى آخر ، لتدل على أنه لا يزال حيا ، وأنه لم ينس الخوف.

وعندما انتصف النهار ، استيقظ ، وانتصب على قدميه بلهفة ، باحثا حوله عن الفرس ، كان جائعا ، ولم يفهم لماذا لم تأت لإطعامه ،إنها لم تخيب له أملا من قبل.

أدرك أخيرا أنه لن يجد الفرس ، فحك رقبته النحيلة فى اللحاء الخشن ليدفع الألم الذى سببته قرادة تسللت إلى جسده وأختفت بين ثناياه (يعتقد الباتاوانا أن القراد يولد تلقائيا من الغبار ، وربما كانوا على حق) .نهض واقفا ،واتجه نحو خط أسود رفيع من الشجيرات ، تراءى له على مرمى البصر.

لا يزال الجو حارا فى السهول ، تحول الآن من الجرى إلى السير .كان جائعا وعطشانا . تلاشت ذكرى رضعة الأمس ، وصارت كأن لم تكن.

لمح اثنين من الوعول الحمراء ،تندفع مبتعدة عن الحشائش ، فانتفض فى قفزات قصيرة شرسة وفجأة، هرول ابن أوى أسود الظهر ، فتوقف يراقبه عن بعد.

عند حافة الأفق ، غابت الشمس خلال السحب الشاحبة ،مخلفة وراءها دفقات من اللون البرتقالى والقرمزى ، وما زال الحصان الصغير متجها نحو الشجيرات البعيدة، يعدو حينا ويسير حينا آخر ،عائدا فى خط مستقيم مباشرة إلى الأجمة التى انحدر منها الليلة السابقة.

عندما تعرف على المكان من بعيد ، أطلق صهلة فرح ، وانطلق يعدو،وعلى بعد خمسين ياردة ، توقف فى حذر .كانت رائحة الأسد لا تزال باقية بين الأشجار ، مختلطة برائحة الإنسان وشئ آخر أكثر عذوبة ، فمال برقبته وتشمم بقلق مبهم .

ظهر القمر ، لكنه كان ينفذ بصعوبة من خلال الظلال ، حدق المهر مرتابا فى الظلام، وفى النهاية تغلب الجوع على الحذر ، فأخذ يرفع قدمه بعناية ، ويقترب .لم يستطع أن يتبين شيئا.

فجأة ، طار نسر ، ضاربا بجناحيه الأغصان العالية ، ففزع المهر وكاد يجرى ، لكنه توقف لبرهة ،فقد أعتاد أصوات الغابة المفاجئة الغريبة .كانت الرائحة المشئومة أقوى من كل شئ.

ما خلفته الأسود من الفرس ، أتت عليه النسور والضباع والذئاب ،ومن بين هذه الكومة من العظام المختلطة بالدم، والأشلاء التى اختلطت بالقذارة ، لم يتعرف المهر على شئ. أنذرته رائحة الموت، إلا أنه لم

يستطع أن يعرف من الذى مات ، وظل يجهل سر اختفا أمه الفرس.

مضى الوقت ، وبطبيعة الأشياء ، نسى وجودها.

عند منتصف النهار ، عثر الرعاة على الأشلاء ،قادتهم إليها النسور المحومة ، غضبوا ،وسبوا ،وأخذوا يقذفون بالحجارة والعصى بإبعاد النسور ، كانوا ، قبل ذلك ، قد تمكنوا من جمع بقية الخيول ، التى ظلت معا طوال الليل، والتى أنقذها موت الفرس . لم يهتم الرجال كثيرا لفقد الفرس، فهى قد وضعت مهرها مبكرا جدا بالفعل ، وهى على أية حال ملك لذلك الشاب الذى نام فى نوبة حراسته . بدا لهم هذا عادلا تماما ، وصار موضوعا للتندر أثناء رحلتهم إلى الشمال الغربى ، بل إنهم لم ينزعجوا حتى لفقد المهر ، كان من الواضح أنه ضل ، إذا لم يكن قتل بالفعل فى مكان ما قريب منهم ،وكان الطريق لا يزال طويلا أمامهم ، ومهر تعس لايستحق أن يكون سببا للتأخير.

بينما المهر يتشمم ما حوله ، خرج من بين الأشلاء ببطء، ضبع كبير يعرج، فقد أصيب أحد مخالبه فى معركة قديمة مع أحد قوارض «الشيهم الشوكية . تعود أن يفعل كل شئ بأرجله الثلاث ، إلا أنها ظلت عائقا كبيرا فى المعارك . وعندما جاء يقفز بشغف نحو الأشلاء، كى ينضم إلى رفاقه الأكثر قوة ورشاقة ، كانت دفعاتها ولكزاتها المزمجرة تفقده توازنه ، فيبتعد إلى ركن ناء ، يرقب الوليمة بامتعاض وصمت مرغم . نصيبه لايزيد ، غالبا ، عن بقايا العظام ومايخلفه رفاقه من فتات ، لذلك ، أصبح هزيلا ناحلا ، تساقط الشعر الكثيف من حول رأسه ، وامتلأت رقبته ببقع من الجلد الأحمر العارى.

برغم جبنه وحالته هذه ، كان الضبع لايزال حيوانا ضخما ، يتمتع بعظام طويلة وقوة شرسة. وبانقضاء النهار ، انتابه اليأس وزاد إحباطه ، وكف عن محاولاته الخفية لانتزاع قضمة من اللحم، وكان مستعدا لتنفيس غضبه فى أية ضحية ترسلها المصادفة.

ضاع الحذر ، وضاعت معه مهارات الصياد ، لو انتظر ، لو مكث فى مكانه ، لنجح الضبع بلا جدال ، فرائحته العفنة كانت قد ضاعت وسط الخليط المذهل للروائح الأخرى ، لم يكن عليه أكثر من البقاء هناك ، مختبأ فى تجويف ضلوعه المتعرجة ، وانتظار المهر حتى يقترب ، وعندئذ تكفى اندفاعة وقفزة.

لكن الاقتراب المتردد لفريسته المأمولة زاد من نفاد صبره ، وفجأة، قفز مزمجرا وانطلق فى أثر المهر ، انفلت المهر بمجرد سماع الصوت ، لكن هجوم الضبع المفاجئ جعل المسافة بينهما نصف خطوة ، وأصبحت مصيدة الأسنان الصلبة على بعد عدة بوصات من شعر حافر المهر .

جريا لثلاثين خطوة ، بذل الضبع خلالها جهدا يائسا للحاق بالمهر ، الذى كان يتأرجح من جانب إلى الآخر. كما أن الضبع ، بأقدامه الثلاث، لم يكن يملك القوة الكافية للقيام بقفزة قاتلة ، وبزمجرة أخرى ، غاضبة ويائسة ، كف عن المطاردة ، ووقف يرقب المهر وهو يقفز مبتعدا. أطلق عويله ، وانصرف ، يدوس فى طريقه هيكلا عظميا لأحد النسور.

ما زال باستطاعة المهر تخيل الرائحة النتنة لأنفاس مطاردة ، ولازال فى أذنه وقع أقدام الضبع وهو

يعدو خلفه ، فر ، بلا توقف ، قاصدا السهول المكشوفة حيث الأمان ، كما تعلم ،

لكنه لم يجد الراحة فى أى مكان فى تلك الليلة ، ولاحتى عندما رأى شجرة التبلدى التى تشبه السجق ، الخوف أولا ، ثم الجوع ، دفعاه إلى تجاوز الشجرة والسير بعيدا إلى السهول ، حيث ضوء القمر البهيج.

قبل أن يشرق الصباح ، كان قد قطع عدة أميال وهو يسير باطراد نحو الشمال ، وفى كثير من الأحيان كان عدوه ينقلب إلى قفز ملهوف عندما يرد على خاطره أن الفرس موجودة حتما خلف المرتفع التالى . وبالتدريج ، بدأت المروج تضيق . وعندما حل الصباح ، كان قد بلغ حافة الغور الكبير . وهناك وقف طويلا.

شعر بغربة المكان ، بانسحابه وبروده ، وبدأ ينتابه الخوف . لكنه كان شديد العطش ، وأدرك أنه فى مكان ما لابد وأن يجد الماء . وأخيرا ، هبط ضفة الضحل ، المنبسطة والملحة.

تفتت قشرة الضفة تحت حوافره ، لكن تحت القشرة كان هناك غلاف من الطمى الجاف ، فاستجمع شجاعته وانطلق يعدو بطول الضفة . كانت تنتصب أمامه جزر صغيرة غريبة تنمو عليها الحشائش الخشنة ، وقف على إحداها قطيع من الظباء يرعى العشب . وعند مرور المهر رفع ظبى رأسه ، وفى الحال ، فعلت مثله بقية الظباء دون أن تتحرك من مكانها ، وواصل المهر سيره أمام الجزر ، وراقبه قطيع الظباء حتى تضاءل بعيدا ، قبل أن يواصل الرعى.

قطيع آخر ، خليط من الأصفر والأحمر ، قفز مبتعدا ، ربما بدافع الحذر ، أو لمجرد الابتهاج بالحركة ، اندفع قائد القطيع ، الكبش الكبير ذو القرون الطويلة ، فى عدو مفاجئ . ودون جهد ، جرى إلى الأمام بقفزات واسعة ليتجاوز المهر ، ضاربا بحوافره لأعلى فى سخرية واستهزاء.

بالكاد أدار المهر رأسه.

سار على ضفاف الضحل لعدة ساعات قبل أن يصل إلى منخفض موحل مطروق ، تبعثرت على جنباته عظام ثور ضال ، أتى ليموت . كان الهيكل العظمى شديد البياض ، وقرن الثور الثقيل متناثر فوق جمجمته البيضاء.

تشمم المهر العظام وشرائح الطمى ، وبلهفة ، قفز فى الوحل الطافى وسط حفرة الماء . وعندما لامست قدماه الأماميتان جافتها ، انهارت ، وسقط متمددا فى الوحل . طفت المياه من حوله . لعقها . كانت مشبعة بالملح ولها طعم الصبار.

أدار المهر رأسه للخلف ، فأرداً رقبته ، وكأنه يقدمها قربانا للشمس ، وسخرت منه الجمجمة الحائرة بأسنانها العارية.

ظل يصارع فى صمت حتى نجح فى تخليص أرجله ، وبضربتين دائريتين طفا وانتصب واقفا ، ينفض عن جسده الوحل الذى علق بجلده ، وهو يلهث.

بعد برهة عاود المسير ، لتعثر عليه الكلاب المتوحشة.

***

كانت الكلاب قد حاولت قبل ذلك مطاردة أحد قطعان الظبى ، آملة دفع إحدى الظباء الضعيفة إلى الفرار ، فتنفرد بها وتلتهمها ، لكن كلبا صغيرا أفزع القطيع قبل أن تتخذ بقية الكلاب مواقعها ، وفشلت المناورة.

أحاطت الكلاب المتوحشة اللاهثة بالمهر وهى تتقافز فى تشكيل مفتوح، بطول قاعدة نتوء يمتد لخارج الغور وتغطية الحشائش الخضراء ، وعندما لمحته طليعتها يمر عبر النتوء ، انقلبت هرولتها إلى قفز ، وانطلقت بقية الفريق فى أثرها وهى تنبح ، لكن المهر دار بعيدا فى نصف دائرة ، ثم اندفع يائسا إلى الأمام ، إنه يفوق الكلاب فى السرعة ولكن ليس فى الاحتمال ، لذلك لجأت الكلاب إلى النمط الشائع فى المطاردة ، كلب للهجوم وآخر للمناوشة ، وبقية الكلاب فى الخلف.

أخذ نتوء العشب يتسع ، خارجا إلى متاهة من الكثبان الصماء ، تقسم حافة الغور إلى سلسلة من المسطحات المكشوفة ، رمح خلالها المهر بحثا عن منفذ إلى السهل الأوسع ، ليجد نفسه فى وجه المصيدة .. ممر ضيق بين الكثبان ، ينتهى بحافة عالية ، كان عليه أن يصعد هذا العائق الرملى الناعم ، لكن نباح الكلاب الممزوج بنبرة الانتصار جعلت محاولته لبلوغ قمة العائق مستحيلة.

عبرت الكلاب التقاطع متجهة إلى اليسار فى محاولة لإنزاله ، وهى تتقافز بآذان مشرعة وسط الأعشاب العالية ، ومرة أخرى ، دار المهر بحدة جاريا جهة اليمين بطول التقاطع مخلفا الكلاب وراءه ، لكن السير كان ثقيلا وسط الرمال الناعمة والحشائش الخشنة . التى تنتهى بالعوائق والكمائن ، أصابه الإنهاك وأوشك على الانهيار ، ولحقت به الكلاب ، عاد ، مرة أخرى ، نباحها العميق ، الواثق ، المنتصر ، قمة من الرؤوس الباحثة المتلهفة تشق طريقها بين الحشائش.

بعد خمسين خطوة أخرى ، انحرف المهر يمينا وهو يتعثر وينزلق فوق الكثبان . وعلى مسافة مائتى خطوة ، توقف قطيع من حمر الوحش المخططة كان عائدا من بركة الماء المالح ، أخذ القطيع ينقل بصره بين الكائن المذهل الذى يندفع جهته يائسا ، بأرجله الطويلة المختلطة بالوحل ، وبين مجموعة كلاب الصيد المتوحشة التى تنطلق خلفه . صهلت الحمير وهزت ذيولها ، علامة على الخطر.

غريزيا ، وبدافع من الحذر ، كان على الحمير أن تجرى مبتعدة لمجرد رؤية الكلاب ، تاركة المهر يلقى مصيره ، لكن النمر قتل منذ أيام مضت واحدا من جحوشها ، ومنذ ذلك الحين لم تكف الأتان الثكلى عن البحث عنه . وبمثابرة ودأب ، حاولت اجتذاب جحوش أخرى من أمهاتها ، وتحملت بصبر ما واجهته من صد وعزوف ، ويبدو أنها قد وجدت ضالتها أخيرا فى صورة هذا الحصان الضال ، الذى يخفى الوحل ملامحه ، فانسلخت عن القطيع الحذر مطلقة صيحة ابتهاج ، واندفعت نحو المهر.

كان قائد القطيع ، بجلده اللامع ورقبته المقوسة ، يقف خلفها ، قلقا ، أطلق الفحل صرخة تحذير من

منخريه لكن الأتان تجاهلتها واستمرت فى عدوها نحو المهر، صاغراً، تقدم الفحل وتبعه بقية القطيع (خمسة وأربعون حمارا ، بينها ستة جحوش) ليقيم خطا مانعا أمام المهاجمين.

تمايلت طليعة الكلاب ، ثم أبطأت السير ، فعلى الرغم من أنه يسهل إثارة الخوف فى قطيع من الحمير بحيث يهرب، مضحيا بأحد أفراده ،فإن الكلاب تعرف من التجربة أن قطيعا تحت المراقبة ،ومحاصرا مع جحوش صغيرة يحميها ، يشكل تحديا هائلا، فضربة طائشة من تلك الحوافر الفاجرة قد تنطق باقرة بطنا أو مهشمة رأسا. لذلك. قفز أحد الجراء الصغيرة قفزة حذرة، توقف بعدها نصف رابض ، يرقب المهر وهو يقفز باتجاه الحمير المخططة ،ونظر الكلب إلى رفاقه فيما يشبه الاعتذار ، بينما هبطت بقية الكلاب بأردافها صانعة حوله نصف دائرة ،وهى تلهث بألسنة تتحرك كالمكوك، وأعينها الصفراء الباردة على الفريسة التى غابت.

***

تشممت الأتان جسد المهر بلهفة .كان هناك شئ غريب ،رائحة غير مألوفة تنبعث من جسده ، لم تنجح طبقة الوحل فى إخفائها تماما. استدارت غاضبة، وابتعدت .أما المهر ، فقد التقط رائحة الأم المنبعثة من اللبن الذى ينز من حلماتها ،نطحها ، تواقا لإشباع جوعه ، نافد الصبر لتلكؤها. وأخيرا .استسلمت الأتان.

شرب حتى امتلأ ، ووقف متثاقلا يتدلى رأسه بين ركبتيه ، ثم عاد ورضع مرة أخرى ، والقطيع ينتظر على مضض ، تقدمت بعض الأتان لتتشممه ، لكن أمه بالتبنى استدارت إليها مبعدة إياه بقدميها الخلفيتين . وأخيرا ، أعطى الفحل القائد إشارته ، وتحرك القطيع.

سار المهر مع القطيع ، يمشى برفق إلى جوار جسد الأتان الذى يبعث فى نفسه الطمأنينة، يلكزها بخطمه من حين لآخر ، لابسبب الجوع (فقد كانت بطنه ممتلئة ومشدودة كالطبلة) وإنما ليؤكد لنفسه أن اللبن لايزال موجودا ، بعد أن ظل محروما منه لثلاثين ساعة مضت . وقبل أن يصل القطيع إلى حافة الضحل، شعر بالغثيان بسبب اللبن الخفيف الذى لم يعتده ، لكنه، ولمرة أخرى ،رضع بنهم.

باحساس بالاتجاه لايخطئ ، قاد الفحل الكبير قطيعه إلى حيث يضيق الدغل وتقل أخطار الكمائن، قاصدا المرعى المعتاد.

كان المهر صغيرا ، غير قادر على الرعى. وعندما أراد أن يرضع ثانية ، لم تستسلم له الأتان التى جف لبنها ، وبعضه حازمة ، أبعدته ، وقف حزينا يرقب الفحل الكبير وهو يرعى بالقرب من قطيعه ، وعندما اقترب منه ، رفع الحمار الكبير رأسه وحملق فيه بعينين شاحبتين حمراوين ، ففزع مبتعدا.

رأى المهر الحمير الصغيرة وهى تلعب وسط الحمير الكبيرة التى كانت منهمكة فى الرعى ، مثيرة الجلبة والضوضاء . توقفت الحمير لمرآه.، وأخذت ترقبه فى فضول ،وخلال أسبوعين ، هى كل عمره ، أصبح فى طول معظمها ، لكن دون قوتها وعضلاتها . فقد استأثرت أرجله ورقبته بمعظم حجمه.

أراد أن يشارك فى اللعبة ، لكنه لم يحفظ المسافة ، تضاربت الجحوش وتراكلت بحماس الحمير الكبيرة ، وبعد فترة ، وبسبب ألم فى ضلوعه ، قرر أن ينتحى جانبا ويرقب اللعب عن بعد ، وواصلت الحمير لعبها ، متجاهلة إياه فى الوقت الذى كان ينتقل فيه القطيع ، خطوة فخطوة ، فوق العشب ، هنا ، على الأقل ، كان واثقا من أنه فى مأمن.

قضى القطيع ليلته فى بركة ضحلة أسفل « ماكارى كارى» ، كانت الحمير المخططة فى شركة مع عدد كبير من القوفز (ظبى جنوب أفريقى ، رشيق القفز مرحا أو ذعرا) ، المهاجر نحو الجنوب لأسباب مدفونة فى ذاكرة موروثة ، وأثناء الليل ، فزع القوفز عند مرور جماعة كبيرة من الأسود ، وعلى الرغم من أن الفحل الكبير قفز عند سماعه صرخة التحذير الأولى والحوافر التى تزأر ، إلا أن الخوف لم يتسرب إليه ، كانت الأسود راضية ، بعد أن قتلت تيتلا إفريقيا ضخما فى مكان ما جنوب الضحل وأكلته، وكان الفحل ، بشكل أو بآخر ، يدرك ذلك ، لذلك وقف ، وهو يراقب الأسود ، رزينا ، فخورا ، كاشفا عن مكانه أربعة عشر أسدا فى صف واحد ، بأحزمتها الفضية الرمادية ، تعبر ممر الحيوانات بالطول.

***

هل كان مستاءً من القوفز ، أم هو فى عجلة من أمره ؟ الفحل الكبير لايعرف الإجابة بالضبط ، كل مايحس به هو أن الوقت قد حان للانتقال إلى منطقة جديدة ، فالمطر قليل هذا العام ، وحشائش السهول صفراء ، جافة ، متكسرة ، وما زالت حفر الماء التى تختبئ حولها الخنازير بعيدة.

حان وقت الرحيل ، وبعد أن اتخذ قراره لم يتردد لحظة . وبدلا من الدوران للخلف ببطء ، باتجاه منطقة الرعى المعتادة ، قاد قطيعه إلى الجنوب الغربى ، عبر مروج الداتورة إلى الأراضى الصحراوية حيث تمتد بقايا سيقان الحشائش على مدى البصر ، وطوال المسيرة ،كان القطيع ينضم إلى قطعان أخرى ،ثم ينفصل عنها ، وينضم مرة أخرى ، وهكذا.

آلاف الحيوانات تضمها مسيرة هذا الشتاء ، تهتدى بالمجرى المتعرج للنهر القديم الذى يمتد لأميال عديدة شرقا وجنوبا ، يندفع أسفل طوفان المسيرات وبين التلال العالية الناتئة . وهنا ، يصل عرض المجرى إلى ثلاثين ميلا وطوله إلى سبعين ، حيث يفقد ، فجأة ، قوة الدفع والهدف ، ينقسم ويدور حول نفسه ، مكونا مجار ومستنقعات صماء ، حتى يختفى نهائيا فى رمال الصحراء.

كان الخيار البرى ينمو بغزارة ، تنتشر سيقانه على الأرض فيما يشبه السلسلة . أما نخلات الماكالانى ، فقد بدت عليها آثار بداية القحط . ألف ، بل ربما مائة ألف من الحيوانات (فالعين تعجز عن عدها) المنحدرة إلى طريق الهجرة القديم، تتلقاها الصحراء ، تصفر حولها الريح الغربية ، بطيئة فارغة ، تنبئ بالأيام المجرقة ، والسماء فوق الرؤوس مثل أسطح الأفران .

برغم هنا بدأت الحيوانات لعبة الهجرة ، خارجة إلى الفراغ ، مستسلمة بلا تفكير للقوانين التى تنظم دورة حياتها ، عجلة الحياة والموت الكبيرة التى تضمن بقاءها النهائى.

وعندما حان الوقت ، توجه الفحل أيضا بقطيعه نحو الصحراء ، وذهب معه الحصان.

كان المهر محظوظا من عدة أوجه ، فالسير كان بطيئا وقطعته العديد من الاستراحات الطويلة كلما توفر الظل . كما أن الأتان سمحت له بالرضاعة ، وهو ماأبقاه حيا ، فهو لايملك القدرة الجسمانية للحمير المخططة ، والتى تمكنها من السير طويلا بلا ماء . كان الأمر أكثر مشقة بالنسبة للجحوش الكبيرة ، التى فطمت منذ حين ، ومات ثلاثة منها خلال الأسابيع عند مرور القطيع بمنطقة من النهر أصابها الجفاف.

أما الحيوانات الكبيرة فقد سقط منها اثنان ، ماتا ، أو قتلتهما الكواسر التى كانت تتتبع مسيرة الهجرة ، ومات كذلك العديد من الطرائد الأخرى ، من أبقار « الكود» الوحشية والتياتل ، وحتى من القوفز الأحمر القوى الذى يقطن المناطق القاحلة.

لكن الفحل الكبير استطاع ، بمزيج من الحظ والدهاء والحكمة ، أن يصل بقطيعه دون خسائر كبيرة فهو لم يترك حميره تتسكع عمياء بغير هدى أملا فى الحصول على الماء ، ولأنه يعلم أن لاماء هنالك ، فقد دفع بها نحو الغرب بخطى غير سريعة ولامتراخية ، أما تلك التى سقطت ، فانه لم يأسف عليها أو يحزن لمصيرها.

ومع نهاية الشتاء ، وصلت مقدمة المسيرات . انتهى الانحدار البطئ لأرض المستنقع بقنوات المياه الغزيرة وخطوط البرك الراكدة بين البوص والأشجار المتشابكة . وهناك ، أصبحت الحيوانات فى مواجهة مع الفراغ والنمور التى تمارس القنص كل مساء ، وسط ظلمة الأشجار المقبضة.

شعر الحصان بابتهاج عظيم فى الماء . إذ عندما اقترب القطيع من القناة ، حاولت الأتان منعه برأس ممدود غاضب ففشلت ، ولأن الفحل الكبير غير بارع فى فنون المهارة والرشاقة – الأمر الذى مكنه من البقاء لخمسة عشر صيفا قبل أن يبتلى بهذا الحصان العنيد – فقد كان نافد الصبر أمام أى تأخير وبعد أن راقب المهر ، للحظة ارتباك القائد الكبير ، بفضول ورأس ممدودة ، انسل بعيدا عن الأتان متوجها نحو الماء.

ما أن بلغ المجرى حتى انزلق فى الوحل ، مباعدا بين رجليه ، بصورة جعلت بطنه المترجرج يغوص ، محدثا صوتا يدفع أى حيوان إلى الإختباء ، وبإحساس بالنصر ، غير مبال من خوفه ، تمرغ فى الماء الوحل ، بينما الأتان على الضفة مهتاجة ، قلقة ، ووقف الفحل يرقب مايجرى بوقار ، مقوسا رقبته ، فقط عندما أشبع المهر رغبته ، أخرجته صهلات الأم المحببة ، غير نادم على مافعل.

خلال رحلة الصحراء الطويلة كان معظم الوحل الذى التصق بشعره قد تساقط . والآن ، أذاب الاستحمام ماتبقى منه ، خلال شهرين ، بدأ لونه الحقيقى يظهر، رماديا داكنا ، موروثا عن أبيه العربى ، مع خطوط لامعة تحت الشعر لاتظهر إلا فى ضوء معين ، أصبح مظهره ورائحته مألوفين الآن بين القطيع ، ولم تعد الحمير تنفر من الفرق الواضح :

استأنفت الحمير المخططة طريقتها القديمة فى المعيشة ، متكيفة دون جهد مع طرق واحتياجات هذه

الأرض الخضراء السعيدة.

كان القطيع يتحرك فى دائرة كبيرة بين أماكن الماء ومناطق الرعى ، راضيا مسرورا غير عابئ بمشاق الرحلة إلى أماكن الماء التى كان عليه أن يقطعها مرة فى منتصف النهار وأخرى فى المساء ، قبل أن يتحرك ليلا إلى السهول المكشوفة . وكانت الحمير تحتمى من حرارة الظهيرة بالرقود تحت الفروع المتشابكة ، فتذوب علاماتها النحاسية وتختفى فى الأحمر الذهبى للظلال.

من حين لآخر ، كان الصيادون المحليون يمرون بها ، فى طريقهم إلى الأنهار الكبيرة ، وغالبا ماكانوا يتجاهلون الحمير المخططة لأن أعدادا كبيرة منها تتوافر بالجنوب ، وهم ، على أية حال ، إنما يسعون وراء ظبى « العلند» الأفريقى الضخم ومهاة « الجمزبوكة » والخيول والأفيال ، لمبادلة جلودها وأنيابها مع التجار البيض.

وعلى الرغم من لونه المميز ومعرفته الذهبية التى جعلت رقبته تبدو أكثر نحافة من رقاب بقية الحمير ، لم يهتم الصيادون بالحصان الصغير ، وحتى لو لاحظوا آثار أقدامه الملساء بين أقدام القطيع المفلطحة ، فلربما حسبوها آثار قطيع مشترك مع الوعول.

من حين لآخر ، كانت مقدمة القطيع تقترب من حواف المياه حيث أعواد البوص أطول من رأس الفحل من ظبى صغير ينطلق مصفرا كى يحذر رفاقه.

كان على الحمير ، فى معظم الأحيان ، أن تفسح الطريق أمام الأفيال الآتية من غاباتها ، تعدو بأقدام ثقيلة خرقاء وجلد متجعد ، لتشرب وترش الماء مثل أطفال متوحشين يرتدون ملابس الحداد .كانت الأفيال تمكث لساعة أو أكثر ، بينما القطيع يقف بعيدا فى نصف دائرة ينتظر دوره ، بحذر ، ثم ، وببطء تتحرك الأفيال مبتعدة ، نصف نائمة ، تتوقف من حين لآخر لتقضم فروع الأشجار الصغيرة ،وفى النهاية تختفى بين الظلال مثل أشباح رمادية . بعد رحيل الأفيال ،كان على الطرائد أن تضاعف من حذرها وهى تتناوب النزول إلى الماء والطلوع منه ، مثل فرق من الراقصين الأدعياء . أما الحصان الصغير ،فقد وقف بصبر نافد ينتظر اللحظة التى يفلت فيها من الأتان ليضع حدا لهذا التقليد من الحذر المضحك.

وذات صباح، عند منتصف الصيف ،وكان المهر قد بلغ شهره السادس ، التقى القطيع بالأفيال مرة أخرى عند منطقة المياه .كان القطيع كثير العدد ،وكان على الحمير الانتظار لساعات طويلة حتى تأخذ الحيوانات الضخمة كفايتها وترحل ،وانتظر المهر على مضض ،وبعد انصرافها انطلق كعادته ، يهبط الضفة قاصدا الماء.

فى الحال ، أدرك أن شيئا ضخما وخطيرا يشاركه الماء ، رأى دوامة ثم ، وبسرعة ، تكسر سطح الماء خلفه بصورة مفاجئة ، رفس يائسا فى كل اتجاه ، لكن أينما ذهبت رفساته يكون الشئ قد اختفى بالفعل ، ليندفع مرة أخرى محدثا سحبه شديدة تحمل الحصان لخطوات بعيدا عن الضفة ، حاول ، لاهثا ، أن يعوم عكس انسحاب الماء.

في مواجهته ، انشق الماء عن رأس موحل لوعل صغير ، فاضطرب بشدة ، فتح الوعل فمه وقذف مابه من ماء وثغا بوهن . كان الدم يسيل من جرح في عنقه ، صانعا دوامات وردية بطيئة فوق سطح الماء ، وفيما بينه وبين الضفة ، كان التمساح يطفو ويغوص ويتلوى مثل ثعبان.

منذ أقل من دقيقة ، وفي فجوة بين حائط البوص العالي ، أمسك التمساح ، الذي كمن منذ الصباح ، صابرا صامتا كالموت ، بالوعل ، كان الوعل يسير على الضفة بخفة وحوافر وجلة ، وظل لمدة طويلة يحملق في البوص ، وفي النهاية ، انحنى ليشرب حيث فوجئ بالتمساح يهاجمه ، سريعا ، مندفعا ، لايعوقه شئ . وقبل أن تصدر عنه نأمة ، أمسك بالوعل من رقبته وغاص به في الماء.

سحب التمساح الوعل إلى كهف في المياه العميقة أسفل تجويف الضفة ، حيث قفز المهر إلى الماء ، وهو يطرطش في كل الاتجاهات مثل فرس النهر أو فيل جاء طالبا الثأر ، وهذا ماجعل التمساح يترك فريسته، الوعل المتوسل ، لحزنه الدامي . لكن الطمع سرعان ماتغلب على الحذر ، فطفا استعدادا للغوص ثانية ، لأن حياته تساوي حاجته.

ظل التمساح متخبطا للحظة يترجرج وسط التموجات التي أحدثها ، تنتقل عينيه في تردد بين وجبة مضمونة وفريسة محتملة ، لكن الوعل حدد مصيره عندما ثغا مرة أخرى بصوت واهن حزين ضائع ، ليجذب إليه أعين التمساح الباردة المحملقة . زفر التمساح الهواء بقوة ، كما لو كان ينعى عجزه عن ابتلاع أكثر من قضمة في وقت واحد ، ثم أطبق بفكيه مرة أخرى على الوعل المنهك وذهبا معا تحت الماء محدثين دوامة عظيمة.

تحرك المهر باتجاه الشط وهو يبقبق ، ينتفض فوق الماء كما لو كانت نارا . رحبت الأتان الثائرة بالمهر بصهلات فرح ويعنقها اللين مسحت على ظهره الرطب وأجنابه في لهفة وحنان ، ولوهلة ، وقف الفحل الكبير يراقب مايجري ، ثم دار محتدا يضرب الأرض بحوافره.

في اليوم نفسه ، هاجم القطيع بسرب من الذباب البني كانت الحمير ترقد في ظل الشوك الخطافي المتشابك ، هربا من وهج الشمس ، وظلت الذيول الطويلة المخططة تضرب وتضرب في الشوك المدبب لكن الذباب اللحوح لم يدعها تخرج إلى شمس الظهيرة إلا على مضض وحتى في الخلاء ، وبرغم الوهج المحرق ، تتبعها لفترة قبل أن يدور عائدا ، بحثا عن الظل مرة أخرى وعن فرائس جديدة.

لدغ المهر أكثر من مرة ، وخلال الأسبوعين التاليين ، هام القطيع بعيدا باتجاه الشمال ، موغلا نحو موطن ذباب التسي تسي ؛ وفي محاولاتها لاتقاء الحرارة في ظل دغل ، كانت الحمير تلتقي من حين لآخر ، بالذباب ، وأخيرا تعودت على ذلك ، وأصبحت تنام والذباب ، بطنينه المعهود ، يعض مؤخراتها .

لم يكن المهر ليتسامح مع تلك الحشرات المزعجة ، فكان يجعد جلد حاركه العضلي اللين ليطردها ، أو يهز رأسه ضجرا كلما تحلقت حول عينيه ، وعندما ينفد غضبه ، كان ينفلت وحيدا في قفز مجنون ، بحثا عن الشمس الشافية ، وبعد أن مكثت الحمير لأسبوعين ، دار القطيع خارجا من منطقة الذباب ، بتحرك

بترو عائدا إلى السهول الواسعة النظيفة ، حيث المراعى الغنية .

وفى صبيحة أحد أيام الأسبوع الثالث ، كان المهر قلقا ومضطربا ، وعندما توجه القطيع نحو الماء شب على قدميه الخلفيتين وسقط يتدحرج إلى أسفل ، توقفت الأتان ؛ ثم جرت عائدة تحث المهر على النهوض ، مجبرة إياه على السير الذى توقف بعد خطوات معدودة.

فى تلك الأثناء ، توقف القطيع أيضا . البعض من أفراده يحملق خلفه والبعض الآخر يأكل بتراخ ، وعندما انضم المتأخرون ، بدأ القطيع يتحرك بخطى بطيئة . كان المهر لايزال راقدا بالخلف ، فدفعته الأتان بقلق إلى الزمام.

عندما بلغ القطيع الماء شرب المهر قليلا منه ووقف يحملق طويلاً فى القناة الموحلة وفى اثنين من الطيور تطير بسرعة وتحمل فى مناقيرها بعض الحشرات .. عاد يتسلق الضفة متثاقلا ، وتعثر لأكثر من مرة ، ثم ألقى بنفسيه تحت أقرب ظل صادفه وقد هده التعب . كانت عيناه غائمتين ، وفقد شعره بريقه المعتاد.

بعد برهة جاءت الأتان ووقفت فوق رأسه وتصادف مرور الفحل بمعرفته الدائرية الغليظة ، وهو يخب بثقة واعتزاز بالنفس .. نفخ فى جسد المهر الواهن . ثم دار حوله بحثا عن خطر وهمى فى الماء ، وعاد ونفخ مرة أخرى ، موجها إلى الأتان عضة بملء فمه واستدار مبتعدا.

لكن الفحل لم يسر بالقطيع كالمعتاد . ومكثت الحمير ، أثناء النهار ، بالدغل ، قريبا من عين الماء ، تتحرك فى هدوء بين شجيرات الشوك ، وترعى مثل الأغنام

وفى الليل ، عندما أجبر على الخروج بالقطيع إلى المروج المكشوفة خوفا من الأسود ، عاد الفحل بمفرده ، قاطعا المر بطوله ، يسير بعيون مفتوحة وآذان مشرعة ، إلى حيث وقفت الأتان بلا حراك إلى جوار المهر الذى ذهب فى غيبوبة ، وقف يحرسهما طوال الليل حتى انبثق الفجر الأحمر.

طوال تلك الشهور التى أضعف فيها وباء « ناجانا» عضلات المهر ، وقفت الحمير إلى جواره صابرة تستحم مرتين يوميا فى نفس المكان (كان الفحل من الدهاء بحيث لاينزل بهم يومين متتاليين فى نفس الميعاد ، مدركا بالغريزة والخبرة أن التكرار هو بداية الاعتياد .. وهو ماينتهى بالموت وسط تلك القفار) ترعى على مسافة ميل من نبع الماء ، تستمتع فى تقدمها بالتهام مساحات الحشائش القصيرة اللذيذة.

وبفضل بقائه بجوار عين ماء صحراوية مع آتان متوحشة ، وحتى بدون وسيلة لوقف المرض ، تمكن المهر من الشفاء ، بل والنمو السريع ، لم يتحقق له الشفاء والقوة فحسب ، بل ازداد جمالا ، بمعرفة فضية وشعر معدنى منتصب وعضلات مقوسة مشدودة ، وخطوة رشيقة قوية.

مرت شهور طويلة قبل أن ينفض عنه آثار المرض ، وعندما فارقته الحمى كان هزيلا مثل خروف ولد لتوه يتدلى بجلده الكابى فضفاضا حول عظامه، لكن بالتدريج ، امتلأ جسمه ، وعندما استرد عافيته أصبح ندا للحمير المخططة وهى تهيم ببطء عائدة إلى الجنوب حيث المراعى النضرة التى سيكتمل

بفضلها شفاؤه .

عاد يجرى ويقفز وسرعان ماأصبح قادرا على مجاراة الجحوش فى طفرها إلى الأمام ، والحقيقة أنه ، فى خلال عام ، وبرغم عدم تمام شفائه صار أكثر عرضا وثقلا من أى من الجحوش التى تكبره بثلاثة شهور ، وأكثر من ند لها فى القوة والدهاء ، صار قائدها المطلع ، وأكثر وحشية ودراية من أى منها ، وأكثر ميلا لمضايقة الفحول الصغيرة والتحرش بها ، وكان مضطرا ، من حين لآخر ، إلى اللجوء إلى الأتان ، طلبا للحماية من فحل يعدو خلفه وهو يصهل غاضبا ، القائد الكبير كان الوحيد الذى يتمتع بحصانة خاصة ضد هذه المطاردات الثابتة ، فحتى الحصان كان يتعامل مع هذا الكائن المرعب ، ذى العينين الحمراوين ، بحذر واحترام ، ولسوف يدعم صدامه بالفحل ، يوما ما ، زعامة الحصان ويثبت شجاعته الانتحارية.

هو، موسم الأمطار الثانى ، خلال عبورها الصحراء ، يأتى ، ولمرة ثانية ، يجئ المطر شحيحا ، بلا سيول ، ليجبر القطيع على التحرك بعيدا باتجاه الشمال.

أصبح عدد أفراد القطيع الآن ستة وخمسين حمارا ، بعد استبعاد الجحشين اللذين سقطا فى الربيع مضافا إليهما الموتى المنسيين فى الصحراء ، كان العدد مع ذلك كبيرا ، وبذل عدد غير قليل من الفحول محاولات خفية للانفصال مع عدد من الأتان الراغبة فى ذلك ، لكن الفحل القائد ، الذى حافظ على مركزه المتميز بقوة يحسد عليها ، تمكن فى معظم المرات من إحباط تلك المحاولات.

غالبا ماكان انضباطه الشديد سببا فى التأخير (فى مرات كثيرة كان القطيع يضطر للبقاء عند الماء لساعتين أو ثلاث) والذى كانت الحمير تتحمله دون مبالاة . أما الحصان ، المستاء من السلالة والطبع ، فقد كان يغيظه هذا الانضباط الجبان ، وإن ظلت اللحظة الجامدة مع التمساح فى الماء حية فى ذاكرته ، ولن يخاطر ثانية بعين مغمضة ، إلا أنه لم يجد مبررا لهذا الاحساس الكهنوتى بالمسئولية عند الفحل فكان بمجرد أن يقرر أن لاخطر هنالك ، ينفلت متوجها نحو الماء دون توان .

لم يكن الأمر سهلا دائما ، إذ سرعان ماكان الفحل يتخذ وضعه ،فيتقدم الصفوف لإحباط أى محاولة فجة للخروج على النظام ، موقعا عليه عقابا قاسيا ، وكان لبقاء الحصان ليومين ، يعرج على قدميه الخلفيتين ، أن يعلمه فضيلة الدهاء والمكر ، وأصبح يكرر نمط الحركة المتفق عليه رسميا باخلاص ، مثل خطوات معقدة فى رقصة تقليدية.

قاد الفحل قطيعه باتجاه الماء ، وعيناه على ضفة النهر الممتدة والسهل الكثير التعرجات ، والخالى إلا من اثنين من الجمزبوكه ، تشربان بتأن ، تقدم بحذر ، والقطيع خلفه ، تتباعد المسافات بين أفراده بسبب المشاكسات الدائرة بين الأتان وبعضها.

دار الحصان بمفرده مبتعدا نحو الدغل ، جرى لمائتى خطوة ، ثم انحرف مع اتجاه الريح ، ليبطئ الخطى فوق الرمل الثقيل .أمامه ، وجد ممرا آخر(تنتشر هذه الممرات بكثرة قريبا من الماء) وبلا تردد ،

انطلق يعبره مسرعا .كان الدغل من حوله ، هادئا تماما ، ولا يزال الجو حارا وسط الأشجار العالية ،وعلى البعد ،وسط الأشواك النضرة، كانت حمامة تهدل بصوت خفيض.

بلغ الخلاء الواقع عند انحناءه .. النهر مرة أخرى ،وهو يسير فى الاتجاه الذى ترك فيه القطيع ،بحث عن الحمير ،وعندما لم يجدها ، شعر بقلق ، ثم رآها وهى تنسحب بمؤخراتها فوق شجيرات الشوك، تحملق ببصرها فى حافة الماء.

متحيرا من اهتمامها المشلول ، استدار الحصان كذلك ليمعن النظر.

وبينما الحصان واقف وسط الدغل ، ظهر عند الماء ثور كبير يسير ،بمفرده ،جرت الجمزبوكة خائفة ،وبعناد مفاجئ ، عادت ثانية ببطء ، بأقنعتها المموهة وقرونها الهائلة التى تشبه السيوف ، التى تضفى عليها مظهراً فظا يثير الفضول ،وبين الحين والحين، تلكز إحداها الأخرى كما لو كانت تحذرها من الانسحاب.

كان الثور شريدا ، طرده قطيعه ليهيم وحيدا ، وكان حاد المزاج ،رمق الجمزبوكه، وهى تقترب ، بازدراء ،وحملق فيها قليلا ، ثم هز رأسه هزة خفيفة كما لو كان يطرد ذبابة.

وعلى أثر هذا التحذير تراجعت الجمزبوكة قليلا لأسفل ، لكنها لم تتوقف تماما ، إذ تقدمت ثانية بحذر وقرونها مشرعة إلى الأمام مثل السيوف ، تتمايل بخفة من جانب إلى الآخر لحماية أجسامها.

زأر الثور نافخا الهواء «جف .. ر.. ر.. ر» واندفع نحوها بقوة، دارت الجواميس على أرجلها الأربع ،مثل قطط ،وفى قفزة شامخة ابتعدت ، تتحرك عضلاتها بنعومة تحت شعرها الأملس ،واندفع الثور بضع خطوات أخرى قبل أن يدرك أنه يطارد الريح، فنزل متثاقلا ، يدفع كتفيه ويهز رأسه بغباء، ليتجه فى آخر الأمر إلى الماء.

وفى الحال ، أدركت الجمزبوكة أن المطاردة انتهت ، فرجعت ، ظلت تلعب لدقيقة ، تتشابك قرونها ثم تنفصل ، فى استعراض مبهر للمهارة والتوازن ، ثم ،وبتراخ ، عادت لمشاكسة الثور ، قفز ضجرا ، مهددا ، ومرة أخرى يفر معذبوه مبتعدين وهم يضربون الأرض بحوافرهم ، وبعد حين، تعب الثور من اللعب، وانصرف يدمدم غاضبا بحثا عن مكان آخر يشرب منه.

راقب الحصان المناورة وهى تتكرر أمامه أربع أو خمس مرات حتى أصابه الملل ، رفع رأسه وأطلق تحية للحمير الواقفة بين أدغال الشوك، استدارت بعضها برؤوسها ، بينما كانت غالبيتها منهمكة فى العرض القائم عند الماء ، فلم يتلق منها ردا على تحيته.

برشاقة كسولة، انصرف الحصان يقفز الحوائط العالية للأخدود الذى أحدثه المطر ، يسير بتؤدة نحو الخلاء ، سار يقلد المشية الملتوية المغرورة للجمزبوكة ، بينما الثور يسير أسفله عائدا من مهمته خالى الوفاض.

وقف الثور الكبير واستدار برأسه ، يحملق غاضبا فى المتطفل الجديد ، وبارتباك ضرب بحوافره فى الأرض ، ودار بجسده الاسطوانى الضخم ليواجه الحصان الذى توقف أيضا لينقى الهواء من رائحة الماشية العطنة.

فى هذه اللحظة ، دارت رؤوس جميع الحمير إلى تلك الناحية ،وعلى مسافة مائة خطوة وقفت الجمزبوكة مباعدة بين قوائمها الخلفية ، تحملق دون حراك.

سار الحصان نحو الماء ، يتحسس طريقه فوق الوحل الزلق.

لم تكن المسافة بينهما تزيد على الخمس عشرة خطوة عندما قفز الثور ، بغتة ، محددا هدفه بعين واحدة مثل صياد يصوب سلاحه ، دافعا بقرنه المثبت فوق رأسه الذى يشبه خوذة المحارب.

لكن الحصان الذى يحمل ، بالوراثة ، سرعة وخفة أسلافه الصحراويين ، مطايا جنود الأمراء التى حنكتها الحروب ، تفادى ضراوة القفزة الأولى المخيفة ، وغاص على كفله ،إلى الخلف ، وببرود ، راقب انحراف القرن ، وفى آخر لحظة ، مال جانبا ، بأرجل متراقصة ، بدا جسداهما متلاصقان للحظة، صامتان بلا حراك، يلفهما الغبار والرمل المتصاعد ،بعد ذلك ، ابتعد الثور وهو يخور ، رافعا رأسه ، كاشفا عن صدره ورقبته الضخمة ،ومن خلفه استدار الحصان ليرقبه ، ويبدو أن القفزة ، برغم فشلها قد خففت من غضب الثور، إذ تحول عدوه إلى خبب ثقيل ثم سير ، وابتعد عن النهر دون أن يتلفت حوله.

وبهدوء، وتوجه الحصان نحو الماء ، وبعد قليل تبعته الجمزبوكة والحمير المخططة.

***

تبخل الصحراء بما تقدمه من دلائل على تغيرات الحول ،والمطر الخفيف ، الذى تبعثره العاصفة ، ليس إلا مجرد تأخير للظمأ المحتوم ،وكان الشتاء الذى استهل به الحصان عامه الرابع هو سادس أعوام الجفاف ، وبفضل نشاط الفحل وحسن أدائه لواجباته ، استطاعت الحمير أن تنمو وتتعافى ،وفى البداية ، وبفضل سهولة الحياة فى أحواض الأنهار هذه ، تزايدت أعداد الفصائل الأخرى ، لكن المرعى بدأ ينفد تدريجيا ، وتتزايد أعداد الضوارى ،وهو ما حفظ للحياة البرية توازنها.

قاد الفحل العجوز قطيعه إلى سهل واسع ، يمتد أسفل تل صخرى صغير ، تكومت تحت أحد جوانبه الأحجار المتكسرة ، كانت هناك قطعان ضخمة من فصائل أخرى ترعى راضية تحت شمس الظهيرة . واعتقد الحمار العجوز أن كل شئ على ما يرام ، بالرغم من وجود هياكل عظيمة وسط الحشائش العالية ، لم يلحظها ربما ، أو ربما تجاهلها ،وعندما غابت الشمس ، تحركت القطعان تدريجيا نحو الغرب ، مبتعدة عن التل الوحيد.

فى الحال ،ومع آخر ضوء الشمس ، هبط القمة المنبسطة للتل صف من الأشباح لثمانية أسود، أجبرها الحر على الرقود فى مكانها طوال النهار ، ترقب الفرائس عن بعد، وراحت الأسود، بهدوء وبلا تهور، تهبط الحنايا المنحدرة بين الصخور ، وكان بين الأسود اثنان من الأشبال ، يشاركان فى الصيد

لأول مرة ،وقد بدا لهما الأمر كله بسيطا ومثيرا للغاية، لم يعرفا الجوع من قبل ،فقد كانت الأسود الكبيرة قادرة على القنص على بعد عدة أميال من التل أينما أرادت . وخلال وقت مبكر من المساء ، سرت فى الجو نسمة خفيفة، لكنها اختفت قبل منتصف الليل ،ومع هذا الركود المطلق ، شعر الفحل بقلق بالغ ،فهو بدون القدرة على الشم ، مثل محارب فقد درعه ، أما الرؤية والسمع ، فهى دفاعات أقل أهمية ، خصوصا وأن الليل كان مظلما إلا من ضوء شحيح منبعث من القمر الفضى.

عادة ما تكون الحمير ، سواء فى حركتها أو توقفها ،كثيرة الضوضاء والتململ ، دائمة الشجار فيما بينها .أما فى هذه الليلة فقد وقفت صامتة، وكأنها تشعر باهتمام قائدها .وعندما توقف فجأة ،بآذان منتصبة ورأس كالبندول يبحث عن خطر محتمل ، انتاب القطيع صمت مباغت ، متأهبا للانطلاق عند أول إشارة . لكن شيئا لم يأت من وسط الظلمة ،وبعد غياب الريح ، قرر الفحل التقدم بخط مائل ،عكس الاتجاه الذى كانت تأتى منه الريح ،وهكذا قاد قطيعه نحو الشمال الغربى ، بدلا من الحركة الأوسع خلال السهل ، ليسير ، دون أن يدرى فى نفس الطريق الذى تستخدمه الأسود وهى تقتفى أثر فرائسها.

كان الطريق يمتد بطول حافة شجيرات الشوك المدببة، التى تتخذ هيئة رأس حربة طويلة تبرز خارجة باتجاه السهل .وبالقرب من قمة الحربة ، وقف تيتل« النو» ذو القرنين المعقوفين ،الذى اختار هذا الركن من البرية مكانا لاعتكافه الليلى الدائم، يأتى إليه كل مساء مع حلول الغسق ، ويظل هناك حتى الصباح.

عندما كان الفحل جحشا صغيرا ، عاش مع قطيعه عيشة مشتركة ، لفترة ، مع فريق من « النو» .وكان دائماً ما يشعر بالطمأنينة لمرأى رؤوسها المؤطرة بالبروزات ، والآن ، يبدو النو العجوز الصامت ، بلونه الأسود وحملقته المقصودة فى الأغراب ، رمزا للألفة واليقظة ، لدرجة أن الفحل فقد بعضا من حذر وبدأ يرعى : يرفع رأسه من حين لآخر لينظر إلى النو هذا ، بالرغم من أنه لا يشم ولا يسمع.

تحركت الأسود بهدوء شديد ، لا يمكن معه سماع خطوها حتى فى السكون .وكذلك كفت الأشبال عن صخبها ، لكن خليطا من الأشياء المألوفة والأحاسيس والإدراك الغريزى حذر الفحل بصورة لاتخطئ .لم يعط أى إشارة ، وبعد أن أمعن النظر ، من خلال الشجيرات ، فى خط الغبار الباهت البادى فوق الممشى. ، توقع ظهورها .لاحظ ،ولاحظت معه الحمير ، ميلا للهدنة فقد أدركت الأسود من طريقة سير الفحل أنه على علم بوجودها ،وهو ،من جانبه ، يعرف أنها لن تحاول الهجوم إذا ما بدر منه ما يدل على معرفته بوجودها .

بطبيعتها ،كانت الهدنة مؤقتة ومن طرف واحد. إن آجلا أو عاجلاً ، سيأتى ، إلا أنه ، ولحين حدوث ذلك ،عليه أن يظل واقفا ، يرقب الأسود الذهبية وهى تخب منصرفة فى طريقها إلى ميدان الصيد.

انتظر ظهورها فوق الممشى كالعادة ، وعندما لم تظهر فى الحال ازداد قلقه ، وطفر ، يدفع الحمير كى تنظر إلى أعلى فى حذر ، وسرعان ما استعاد هدوءه ووقف يحملق بأقدام مشدودة ، وبشئ من المعاناة ، تحرك الفحلّ مبتعدا قليلا ، يحملق فى« النو» العجوز حينا ، وفى شجيرات الشوك ومنها إلى

المشى الشاحب ، حينا آخر . لم ير شيئاً بين الدغل أو خلفه.

بعد حين انساق القطيع وراء الفحل الذى استأنف الرعى ، يتوقف من حين لآخر ليحملق فى الأشجار المشبوهة .كان حذرا ، وإن لم يكن مهتما بحال وفى الخلف ،قريبا منه ، وقف الحصان بلونه الرمادى الفضى ، وفجأة ، رفرف طائر الزقزاق من بين الحشائش ، مطلقا صرخة ذعر محذرة ، وفى الحال ظهر فى أثره أسد يزمجر.

شب الفحل محاولا الإفلات عبر فجوة إلى يساره ، وعلى الفور ظهر أسد ثان، ينطلق فوق رقعة من الرمال ، دافعا الحمير بعيدا باتجاه الدغل ، اصطف القطيع وراء الفحل وجرى خلفه ، مجتازا «النو» الذى وقف يتقافز ويزمجر بارتباك ، ثم يندفع بقرنه مهاجما أعداء وهميين ، ومرة أخرى ينقطع طريق الهرب . فمن بين الأعشاب ، ظهر شبل صغير يعترض طريقهم بأكتافه العالية ، وهو يكشر عن أنيابه ، دار الفحل ، واندفع القطيع خلفه بعصبية.

اندفاعة سريعة بين الأسود ، كفيلة بإنقاذ الحمير ، فالضوارى على مسافة مائة خطوة منها، والفاصل بين كل أسد والآخر أكبر من هذا ، وهو ما يستحيل معه سد الفجوة بالسرعة الكافية، لكن الفحل ، فقد أعصابه والسيطرة على نفسه ،للحظة ، زعق بحدة، وتوقف ليشب كى يتفادى المهاجمين ذوى اللون الأسود المصفر بقفزاتهم الواطئة ،والتف القطيع حوله فى سعار ،قاطعا عليه أى أمل لقيادته إلى بر الأمان.

وتقدمت الأسود، منهكة ،مستميتة.

أصبح السبيل الوحيد للخروج الآن هو عبر شجيرات الشوك ، وبالفعل ، توجهت الحمير إلى هذا الطريق فى فرار تسوده الفوضى ، وجرى الحصان مع الآخرين بلا إرادة ، وفى الدغل المتناثر الأشجار ، كانت هناك رائحة لاذعة لأسد ، ذكرته فجأة بليلة بعيدة جدا ، وأصابته بالفزع ، صرخ ، ثم ارتفع بجسده لأعلى وسقط مرتبكا وسط الأشواك ، وعلى بعد خطوات قليلة ، انحرف أمامه فجأة حمار صغير ، وفى مواجهته ، استطاع الحصان أن يرى الشبح الأصفر ،رابضا ، لسعت الرائحة المخيفة خياشيمه فجأة . وصوبت العيون الفضية نظراتها اللامعة إليه مباشرة ، جفل ، وابتعد بعنف.

كشر الأسد عن أنيابه ، وتحول إلى فحل صغير آخر جاء يتعثر خلفه ، واصطدم الأسد ، فى قفزته السريعة ، بالحصان الذى كان يستدير فى تلك اللحظة ، فأصابه بمخلبه ، مخلفا خطا داميا بعرض الكفل ، نط الحصان إلى الأمام كمن مسه قضيب من الحديد شديد الوهج ، ومن خلفه أطلق الحمار صرخة مفاجئة وهو يقفز بعيدا ، وخلف الحصان ، ظهر ، مرة أخرى ، مرج مفتوح ، فقفز آخر حاجز من الآجام وانضم إلى الحمير وهى تجرى مبتعدة عبر السهل الحريرى ، تحت سماء الليل المنبسطة ، تثب مرحا ، احتفالا بنجاتها.

وفى الخلف ، عند فتحة الدغل ، كان الشبلان يتصارعان حول جثتين لفحل آتان ،، الفحل قتل فى

الكمين ، أما الأتان فقد أوقع بها أحد الأسود الثلاثة التى جاءت وراءها وهى تحاول القفز خارج الدغل وهاهو الأسد ذو المعرفة الكبيرة ينجح فى عمل فتحة فى بطنها ، وهو يزوم ، محاولا الوصول إلى الكبد.

وفى ممر الدغل ، توقف فجأة ابن أوى بظهره الأحمر ، مصوبا جبهته كالمخلب ، رافعا أنفه الدقيق فى الهواء يرتعش مبتهجا.

***

بعد ليلتين من واقعة القتل ، اتجه الفحل بقطيعه نحو الغرب ، إلى حيث حافة البحيرة الكبيرة التى جفت منذ سنوات وتغطيها الآن الحشائش . وفى الأفق البعيد ، عند انبساط البحيرة ، كان هناك ستة أشباح تدور باتجاه السماء المتألقة ، مثل دخان حى يغزل سلاسل معقدة وأشكالا أخرى ، تنفصل حينا وتأتلف حينا آخر ، يتغير شكلها ولونها بانتظام ، كانت أسراب ضخمة من طيور دقيقة ، خرجت أثناء النهار عابرة البحيرة بحثا عن الغذاء ، وهاهى الآن تعود إلى الدغل لتبيت (بالرغم من أن هذا النوع من الطيور خفيف مثل الريشة ، إلا أنها تتلاصق فى الأعشاش بأعداد كبيرة لدرجة أن الفروع تتكسر أحيانا تحت ثقلها).

فى تلك الليلة ، وسط المنخفض المكشوف ، ومن دون قطعان الفصائل الأخرى ، انفردت الأسود بالحمير المخططة وقتلت أتاناً ثانية . كما ضل أحد الجحوش خلال الفرار غير المنظم الذى تلا ذلك ، وفى اليوم التالى قتل اثنان من الضباع جحشا آخر، وخلال الأسابيع الأربعة التالية ، وبينما القائد العجوز يواصل مسيرته نحو الغرب ، كانت الحمير هدفا لقنص منتظم لايرحم.

فى الليلة التالية ، ومع مطلع القمر الكئيب ، كان القطيع قد فقد ستة عشر حمارا ، منها اثنان من الجحوش ماتا خلال القتال والاحتكاكات والضرب المعتاد بين أفراد القطيع ، والذى أصبح فجأة خطرا مميتا ، فخلال السنوات العشر التى تولى فيها الفحل الكبير قيادة القطيع ، بعد هزيمته للقائد السابق فى إحدى المعارك، لم يظهر من بين أتباعه من يملك الشجاعة ولا القوة الكافية لتحديه ، أما الآن فيبدو أنه أصبح لايتمتع بالحصانة ، ولم يعد الشجار مجرد لعب . لقد انتصر وتحققت له القيادة فى زمنه وفق قواعد وأصول ، وحسب نفس تلك القواعد لابد أن يخلى مكانه في زمن آخر ، وأن تحل به الهزيمة.

كانت المشاجرات تندلع فجأة وبلا سبب أثناء رقدة الظهيرة أو المسيرات الليلية ، وغالبا ماكان يحدث هذا فى أماكن الماء ، والغرماء (اثنان فى الغالب) على الرغم من أنهما يتضامنان فى أوقات كثيرة ضد آخر ، إلا أنهما ، بعد انسحابه ، يتحولان لمواجهة أحدهما الآخر، يندفع الواحد منهما بلا حذر ، يرفس ويضرب ، أو يثب لعض كتف مكشوف ، مطلقا صيحات غاضبة .

وفى نهاية المطاف ، برز حمار صغير قوى ، كأقوى المتنافسين ، أكثر طولا وأثقل وزنا من بقية الحمير ، كان فى حجم الفحل تقريبا ، والقاسم المشترك فى معارك الفحلين اللذين قتلا ، كان يدخل المعارك معهما إما منفردا أو كقائد لحليف منهما فى مواجهة الآخر . كان صغيرا وقويا وشديد الثقة

بنفسه ، يعض الحمير الأخرى ويطردها بعيدا ، ومرة بعد أخرى سلمت بمكانته، ويزهو واعتزاز ، بدأ يغازل الآتان.

راقب الفحل العجوز المناورات الخبيثة بتحفظ ، وعلى الرغم من ثقة الحمار الصغير الشديدة بنفسه ،إلا أنه لم يكن راغبا على مايبدو فى تلك المواجهة الحتمية . سنحت له أكثر من فرصة لمنازلة الفحل الكبير ، لكنه فى كل مرة كان يتفاداه بحركة مخادعة ، ويبتعد عابسا برقبة ممدودة ، متفاديا نظرات غريمه الباردة ، وفى النهاية ، قرر القائد العجوز أن يبادر بالتحدى .

كانت الحمير عند حفرة ماء مساء يوم شديد الحرارة ، واحد من تلك الأيام العاصفة التى تعرفها تباشير الصيف حيث تبدو السماء وكأنها تحيط الأرض برباط ضاغط.

النهار يلملم بقاياه وينسحب، والشمس تغوص تحت السحب المتناثرة التى تتسلل مبتعدة عن الشمال الغربى. (كان موسم الأمطار على الأبواب) ، ومنذ ماقبل الفجر بقليل ، صار الجو ، وللمرة الأولى ، باردا ، وانتابت الحيوانات حيوية غير عادية، وهى تعبر عن تحررها من أسر الشمس النحاسية.

وبعد أن فرغت الحمير من شربها ، انطلقت تلعب وتشاكس بعضها البعض فوق الرقعة المبتلة ، يتردد صدى صيحاتها المجلجلة فى أرجاء السهول الساكنة . وفى هذه المرة لم يحاول القائد العجوز حثها على المسير. لم يبد اهتماما بتنظيمها من أجل الإيواء الليلى. نزل إلى الماء لمرة واحدة ، وبعد أن شرب قليلا تهادى إلى أحد الأجناب ، وظل واقفا هناك بلا حراك.

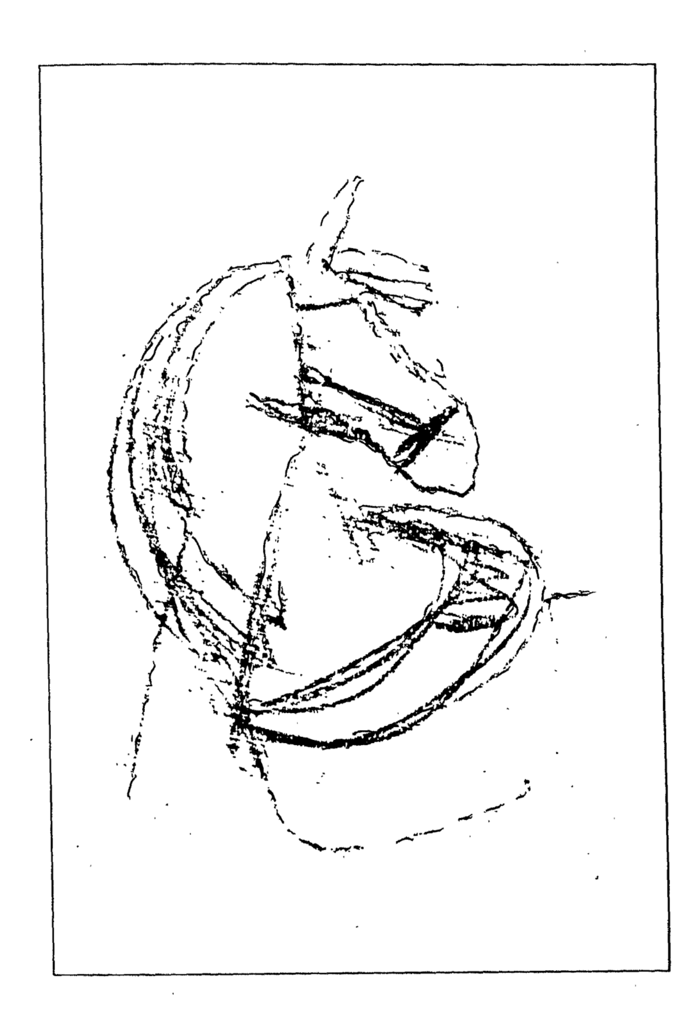
فى هذه الأثناء، مر الفحل الصغير عائدا ، ببراءة ، من رحلة الشرب الثالثة وبعد أن انتهى من اللهو مع الآتان.

حانت اللحظة التى كان ينتظرها . لحظة بعمره كله. اختبار أخير لمكانته ، بعدها إما أن يظل عظيما قويا كعهده ، أو يخلى السبيل لمنافس جديد . وبكل ما أوتى من قوة ، انطلق القائد العجوز.

امتصت الرمال الناعمة، التى داستها أقدام كثيرة ، صوت حوافره لدرجة أن الفحل الصغير فوجئ بالعدو مباشرة حاول أن يدور على قدميه الخلفيتين ليتلقى الهجوم ، لكنه تزحلق ، ووجه الحمار العجوز إليه ضربة مباشرة فى الصدر جعلته يتدحرج فوق التراب . وكمثل قط ، قفز القائد خلفه يدب حوافره وأسنانه فى الجسد المخطط السمين الغاضب ، كما لو، كان يسحق فى الجسد انتصار الشباب الذى لامفر منه.

صرخ الفحل الصغير من الخوف والغضب ، وخلص نفسه من تحت الحوافر الحادة ، لم يتمكن من هذا إلا بالتدحرج إلى الوحل الأصفر الزلق ، حيث يعجز مهاجمه عن الاحتفاظ بتوازنه والضرب فى وقت واحد . وعند ذلك ، انسحب الحمار العجوز مبتعدا ، بأرجل مشدودة لم يطالها الوحل ، ووقف مثل بغل حرون ، ينظر وقد تدلت رأسه.

بعد فترة ، استجمع الفحل الصغير شجاعته وحاول العودة إلى الأرض الجافة ، حتى يتمكن من



مواجهة غريمه على قدم المساواة ، وفى الحال ، قفز القائد العجوز ، مبدلا خطوته فى اللحظة الأخيرة ، ليمسك بالفحل من كتفه، ومرة أخرى جذبه من قدمه ، مستغلا سرعته ووزنه الثقيل ، ودفعه إلى الماء ، فتدحرج محدثا طرطشة شديدة ، ثم اهتز مبتعدا بهدوء يجرجر أقدامه . وكان القطيع يراقب مايجرى مستمتعا وكأن الأمر لا يعنيه لثلاث مرات، حاول الفحل أن يصل إلى الأرض الجافة الصلبة وفى كل مرة يدفعه الحمار العجوز بنفس الاتقان الخالى من الشفقة . وفى النهاية ،كف عن المحاولة وخاض مسافة فى الوحل، بجلد مبلد بالوحل ينزف منه الدم فى أكثر من موضع ،وكآبة واضحة تعلو وجهه.

لم يكن الفحل راغبا فى استمرار المعركة، كان دائخا بفعل البصريات العديدة التى تلقاها فوق رأسه ، مرعوبا من التماسك الذى أبداه الحمار العجوز أثناء القتال .وبعد أن لعق جراحه لفترة ، عاد إلى القطيع، عابسا متباطئا ، مبديا استعداده لإقامة سلام.

لكن القائد العجوز يعلم باقتناع مطلق، من الخبرة والغريزة ، أن هناك وقتا واحدا لهذا، وأن هذا الوقت هو الآن.

انتظر وقد آدار رأسه بعيدا ، بينما الفحل يقترب مترددا . وبعد أن اختار اللحظة بدقة ، هجم مرة أخرى ، ومرة أخرى كان يتمتع بميزة السرعة ، إذ أن تجواله السابق فوق الضفة ، والذى بدا بلا هدف ، أفضى به إلى الأرض العالية.

فى هذه المرة، كان الفحل قادرا على القفز وتلقى الضربة ، فتلاقى الجسدان بقوة سمع معها الصوت المكتوم لارتطام اللحم والعظام . أصاب الاصطدام كليهما بالدوار والألم . لكن القائد العجوز أخفى هذا، واستعاد توازنه بصعوبة قبل أن يندفع مرة أخرى ، بصمت ووحشية.

بالاضافة إلى خوفه الطبيعى ، زاد هذا الإلحاح المرعب واللامبالى من هلع الفحل .كان لديه يقين الشباب بالبقاء ،والثقة فى العضلات والأعصاب التى لا يمكن أن تكون ارتعاشتها خادعة .كانت معرفته وليدة الموت والتحلل ، ولذا فهو لن يعرف اليأس .أحنى رأسه للعاصفة ورقد أرضا ، يتمرغ على ظهره ، رافعا أرجله فى الهواء علامة على التسليم.

اندفع الحمار العجوز ، مكشرا عن أسنانه كاشفا عن بطنه البيضاء المائلة للصفرة ، يطلب الأعضاء التناسلية للفحل . لكن الفحل ، مدركا نواياه ،جفل فجأة ليتفاداه ، ولم تفز الأسنان سوى بنسيرة من الجلد من فوق ضلوعه.

قبل أن يتمكن الفحل من الوقوف على أقدامه ، استطاع القائد الكبير أن ينشب أسنانه فى جسده أكثر من مرة. ابتعد إلى مسافة لا يمكن معها اللحاق به ، يتألم متحيرا مما يحدث .جرى ، ثم توقف يرقب القطيع عن بعد ، وهذه المرة لم يحاول العودة.

وبرأس محنى فى وقار ، اعتلى الحمار العجوز الطريق ،مبتعدا عن الماء ، أما القطيع ، فقد تهادى قليلا فى شكل دائرى ثم تبعه مطيعا.

سار الفحل الصغير كذلك، تاركا مسافة بينه وبين ذيول القطيع ، أما القائد العُجوز ،فقد تجاهل وجوده ، وأثناء الليل، وتحت النجوم المظلمة ، تبع الفحل بقية الحمير ، لكنه لم يحاول الانضمام إليها.

وعندما حل الفجر كان قد رحل.

ربما لأن المطر نادرا جدا ما يأتى ،فقد أرسل بعلامات تبشر بوصوله ، فها هو النمل يتسلق المرتفعات العالية بحثا عن أرض جافة كى يبنى قلاعه الطينية ،والطيور الهائمة جاءت هى الأخرى مبكرا لتختار أعلى الفروع فوق الشجيرات التى تحد المجارى الجافة التى ستصبح أنهارا عما قريب ،والسماء لا أثر للغيوم فيها . رائعة بصورة يتعذر فهمها ،أصبحت أكثر نعومة وشحوبا ،وحرارة الشمس أكثر لطفا.

ثم جاءت السحب، عالية ومضيئة فى البداية ، مجرد شيب خفيف يمر عبر الزرقة ، وبالتدريج، ويوما بعد يوم ، تتحول إلى رمز للأمل والحياة . تسير مع الريح الجنوبية الغربية فى طوابير ، بمؤاخرات زرقاء مائلة للسمرة وجباه وبرية، تصعد إلى أعلى فأعلى صوب السماء اللامتناهية ، تتسلق الأفق بتثاقل ، وبتتابع صعودها إلى ما لا نهاية.

وأخيرا ، جاء المطر .

بعد هطوله ، ولفترة ، تبدو الصحراء خضراء تسر العين ، ومبشرة بمستقبل آمن. الحشائش تنمو بسيقان طويلة طرية، ممتلئة بالحب ، يهزها الريح فتتماوج مثل بحيرة واسعة ، ووسط السهول الصفراء تنمو الأزهار التى تخلب اللب.

سوف تذبل الخضرة بعد حين ، وتذوى البراعم ، لكنها كافية الآن، ولفترة قادمة.

***

بمجئ المطر ، داخل الحمار العجوز القلق.

لقد هام بقطيعه شمالا وجنوبا ، مع المسيرات ، على مدى ثلاث صيفيات وثلاث شتويات ، وها هو الصيف الرابع انقضى نصفه ، أصبحت الحمير تعرف كل ركن من أراضى النهر تقريبا. والمهور الإثنا عشر ، التى تخب بأرجل قوية ثابتة ،ولدت فى مثلثه الواقى ، وها هو القحط قد ذهب ، وجاء المرعى غنيا وفيرا كما فى البداية.

ومع ذلك ، ما زال الحمار العجوز يشعر بالتعاسة ، فالمعركة التى دارت مع الفحل ،منذ شهور ، كان لها آثارها ،والضلوع التى أصيبت أثناء هذا الصدام الكريه لم تبرأ بعد، وخلفت أوراما غليظة تحت جلده ،ولربما كانت الآثار غير المرئية أشد إيلاما ،فقد أصبح على علم بتقدمه فى السن وضعفه.

الآن ، ودون أن يعرف لذلك سببا ، يتوق بشدة إلى القفار الممتدة والغور الكبير الذى خرج منه بالقطيع منذ فصول مضت ،نفس القوة الغامضة التى لا تقاوم، والتى دفعته ليخرج من الغور ، تقوده الآن للعودة إليه ،لشهر ،هام على وجهه ، ينتابه قلق متزايد.

وبصورة غير ملحوظة ،أصبحت الدورة اليومية البطيئة بين الماء والغذاء تتجه نحو الشرق ، متخذة شكلا حلزونيا .

ويوم أن بلغ القطيع الحدود الخارجية ، امتدت الحركة الحلزونية لأقصى اتساعها ،ومرة أخرى ، مال القطيع إلى أرض الظمأ ،حيث الفراغ بألوانه المحرقة والشمس فوق الرؤوس مثل جرس عظيم الذوى ، مخلفا وراءه الأراضى الخضراء والماء.

لكن عبوره هذه المرة كان أسهل بصورة لا تقارن .كان المرج غنيا ،والماء يفيض من آبار رملية ، حفرها دب النمل وقوارض «الشهيم» الشوكية ، ثم هجرتها.

فى وقت ما، عندما تصبح الهجرة نحو الشرق شاملة ، لابد وأن تقتفى الضوارى من الأسود والكلاب المفترسة والنمور وسنانير «الوشق» ، أثر القطيع .أما الآن، فالحمير ما زالت تعيش آمنة فى الغرب .

وفى بواكير الشتاء، انفتح الدغل أخيرا على الغور ، يمتد على مدى البصر ، فضيا لامعا ، تغمره الشمس بأشعتها ، بحيرة ، بل بحر ، يزدحم بالأنهار الفياضة من أقصاه إلى أقصاه . مسطح يمتد لخمسة آلاف ميل مربع من الماء ، تتناثر على طول شاطئه جزر قليلة من البوص ، تعج بأعداد ضخمة من طيور الماء، تعمل بحماس لا ينقطع.

عندما اقترب القطيع بحذر(كان الماء خلال المسيرات ، دائما ما تعترضه القنوات أو يتدفق متجاوزا الأنهارأو تحجزه البرك، لم يكن مفتوحا أبدا أو متسعا مثل هذه البحيرة) فاجأه ما يشبه هبة الريح ، وطار من الضحال سرب ضخم من طائر «البشروش» صانعا سحابة وردية، جعلت الحمير تطلق صهلات التحذير لمرآها وتنطلق فى نصف قفز.

جرى الحصان معها ، لكنه ، بمفرده ، توقف بعد خمسين خطوة واستدار ، بآذان مشرعة وعضلات متوترة لينظر إلى العصافير الوردية،وهى ترتفع ببطء.كان بالأمس مهرا ، أما الآن فهو يقترب من الرابعة من عمره ، حصان رمادى داكن اللون، أصقلته الحياة القاسية وصلبت عوده .له معرفة ذهبية منسابة ، تشعثت بعد رحلة العبور خلال المروج والأدغال . وقف يراقب طيور «البشروش» لمدة وهى تخرج من الدغل . ثم ، وبخطوات طويلة نشطة ، ذهب خلف الحمير.

على مشارف الدغل ، أبطأت الحمير من سيرها ،فأمكن للحصان اللحاق بها دون جهد .جرى حتى أصبح فى المقدمة بجوار القائد . استدارا معا نحو حافة الغور ، يسيران جنبا إلى جنب والقطيع يسير خلفهما بخطوات مترنحة وفواصل متباعدة.

ظلت الحمير تسير حتى انتصف النهار ، عندما اكتشفت استحالة الدوران حول الماء الممتد فى يوم واحد أو حتى فى بضعة أيام، فانحدرت باتجاه أحد الخلجان الصغيرة. كان الماء عكرا ، لكنه كان قابلا للشرب ، سوف يصبح مالحا ومراً ، بعد فترة ، عندما تكف المياه العذبة عن تعويض ما تبخره الشمس ، لكن هذا لا يزال بعيدا الآن، وهناك ما يكفى من الماء.

عند الوصول إلى الماء ، توقف الحمار العجوز تماما . لكن الحصان ، بفضول وشجاعة شابة لا سلطان له عليها ، واصل هبوط الضفة . ووجهت بعض الحمير لقائدها نظرة عابرة ، ثم انسلت نحو الضفة الموحلة خلف الحصان ، ووقفت تشرب إلى جانبه.

ولم يتحرك الفحل الكبير.

خلال الجزء الآخير من الرحلة ، شكل مع الحصان شركة غير مريحة ، فالحصان يفوقه طولا بقدم ووزنا بعدة مئات من الأرطال . صحيح أنه لا يملك قوة الاحتمال أو المعرفة الغريزية للمخلوق الوحشى المحنك ، لكنه كان أقوى وأسرع فى العدو وأكثر ذكاءً ومكرا . ولهذا ، صار كل منهما يعتمد على الآخر . الحمار يستفيد من حذر الحصان الشديد كدرع ضد الضعف الذى بدأ يتسرب ببطء إلى نظره وسمعه ،والحصان يحتاج حكمة القفار التى يتمتع بها الحمار.

والآن ، يتوقف الحصان عن الشرب لينظر حوله مترقبا نزوله ،وعند ذلك فقط نزل القائد العجوز بخطوات بطيئة متكبرة ، وتبعه بقية القطيع.

ولثلاثة أيام متتالية ، هام القطيع بين الحنايا الواسعة لضفاف الغور، وأصبحت حركة الحمير من النبات بحيث لا يمكن تغييرها ،كما لو أنها بلغت نهاية الرحلة ولم يعد لها هدف .لكن فى اليوم الرابع ، وبصورة غير مفهومة ، غيرت من نظامها وقضت الليلة ترعى باطمئنان وسط سهل صغير ، قريبا من الغور.

وباعتماده على الحصان ،فقد الفحل العجوز جزءا من مهاراته التى أسعفته طويلا ، وبات مهملا ، كثير النسيان.

كان طريق الحيوانات من الغور إلى مراعى الحشائش يمر خلال حزام من الشعاب الطويلة الكثيفة. وفى البداية ،ومع كل خطوة من خطواته ، استطلع الفحل بعناية ، الغور، المنذر بالخطر .لكن الاعتياد جعله يقلل من حذره ويصبح أكثر ميلا للاعتماد على حكمة الحصان.

وفى إحدى الأمسيات ، انتابته حالة حذر مفاجئة تسببت فى تأخر ذهاب القطيع إلى الماء ،فعندما وصل إلى كتلة الغاب ،وكانت الشمس خلفه تقريبا ، مرت سحابة معتمة . توقف العجوز فجأة ، مشرعا أذنيه ، يحملق بارتياب .لم يكن هناك أثر لنسمة ترشده ، ولم يرشيئا ،وهو ما يعنى خطرا محتملا.

من حين لآخر ، يرتعش جلده لبطرى بعصبية فوق ظهره.

حذرته غرائزه كلها من التقدم أبعد من هذا .

لكن الحصان لم ير مبررا لهذا الحذر . وثق فى عينيه وأذنيه وأنفه . تشمم الطريق بعناية مبالغ فيها ، كما لو كان يؤكد للحمار أنه يتخذ الاحتياط التام، ثم صهل بلطف مشجعا إياه على التقدم.

واصل الحمار سيره فى الطريق الضيق ، وتبعه بقية القطيع . ذهبا إلى المقدمة ،الحصان أولا يليه الحمار، أصبح الطريق الآن خاليا من الأشجار ، والشمس المشرقة تحيل الحشائش أمام الحمير ذهبا ، بينما السماء فى الخلف زرقاء ،وهنا أتت من الخلف صرخة خوف وعذاب مفجعة ،ومن فوق فرع عال ، برز النمر بجلد مموه ، لا يرى بين أوراق الغابة الخضراء المجعدة ، المائلة إلى الصفرة . ظل هناك ساكنا حتى مر القطيع كله أسفل المكان الذى أختبأ فيه وفى آخر الصف ، كانت هناك جحشة صغيرة ، دفعتها

إلى المؤخرة الجحوش الأكثر قوة وخشونة ،وعندما وصلت أسفل مكمنه العالى مباشرة ، قفز النمر ليسقط فوق ظهرها مثل صخرة.

لكن النمر أخطأ توقيت القفزة فهبط فوقها بالعرض بدلا من أن يسقط عند الحارك ،حيث يصبح الوريد الوداجى قريب المنال ، صرخت الجحشة وقاومت حتى كادت تتخلص منه. لكنه تشبث بها ،فأراد جسمه بينما اندفعت المهرة بصورة عمياء لتصطدم بجذع شجرة ، ظلت تترنح وهى تجرى وسط الآجام، وعندما بلغت الخلاء كان الاصطدام قد فعل فعله ، فسقطت فجأة ، ليندفع النمر نحوها . طار فى الهواء بجسده المرن .وعندما جاء الحصان والحمار العجوز يجريان ، كان قد حط فوق قدميها ، عند أسفل الرقبة تماما.

بعد تفكير قصير ، فتح النمر فمه وعض على أعلى رأس الفريسة فتكسرت بين أسنانه مثل ثمرة من ثمار البندق ، ارتعشت الجحشة ، ثم همدت فى مكانها.

بعد لحظة ، قفز الحمار العجوز باتجاه النمر بجرأة وتهور . شب النمر على مخلبيه الخلفيين ، ليلقاه ، وقد قوس أكتافه متوعدا .لكن الحمار أتقن توقيت الاقتراب . ففى الوقت الذى أتم فيه النمر قفزته وهو يكشر عن أنيابه ،كان الحمار قد انحرف متجاوزا إياه ، فهبط بجسمه على الأرض . اندفع النمر مرة أخرى صوب الحمار ، فأخطأه ، وانصرف وهو يشعر بالمهانة ، واضعا فوق وجهه قناعا خاليا من التعبير ، يهز ذيله بعصبية واضحة، وبعد أن سار عدة خطوات ، توقف ونظر خلفه ليلقى نظرة على ضحيته.

الحصان ، مدركا لعبة الحمار، قفز هو الآخر ، لكنه أساء تقدير سرعة النمر ، وعندما استدار كان النمر يجرى بحذائه ، يتأهب للقفزة الفاصلة ،جنح الحصان متجاوزا النمر وسار ببطء.

هجم الحمار العجوز من الجانب الآخر.

فى هذه المرة استشاط النمر غاضبا . انطلق قاصدا الحمار ،وهو يطلق نخرات حادة مع كل قفزة ،وعندما أصبح قاب قوسين من حوافر الحمار ، انتقل الحصان إلى الجانب القريب تاركا مسافة كى يحصرا النمر بينهما .ثم ،وكما لو كان هناك اتفاق مسبق بينهما ، هجما على الأجناب ،جرى النمر ثم توقف متحيرا ، ينقل بصره بينهما.

كرر الحصان والحمار هذه المناورات لثلاث مرات ، وعندما افترقا فى المرة الأخيرة ،كانا قد سحباه لمسافة تبعد ما يقرب من الميل عن المكان الذى ترك فيه ضحيته ، وقف ينتظر أن يهجما مرة أخرى ، وعندما أبقيا على المسافة بينهما وبينه ، استدار ينظر إلى السهل عبر الظلام المتجمع فوق الدغل . هدر قليلا ، وطوح ذيله بغضب ، ثم سار مبتعدا ناحية الحشائش.

بطيئا ، متألما ، عاد الفحل العجوز إلى القطيع ، الذى انتشر يرعى بلا قائد ، مشى إلى حيث تتمدد الجحشة وتشمم الجسد الهامد.

وبعد فترة ، عاد.

***

فى ربيع ذلك العام ، دخلت إحدى الآتان موسم التلقيح للمرة الأولى . دافع الفحل العجوز عن امتيازاته بحمية ، وعلى مدى أسبوع ، حمى الآتان من العروض الملحة للفحول الصغيرة.

وفى صبيحة أحد الأيام ، والقطيع يستريح فى ظل الغابة، حاول الحصان أن يلقح الأتان .وفى الحال . وبشراسة ، هجم الحمار عليه ، وأمام عنف هذا الانقضاض المباغت ، لم يجد الحصان مفرا من التراجع ، ودون تفكير فى الضرر أو الألم ، ألقى الحمار بجسده عليه بكل قوته مثل خروف ينطح، تراجع الحصان ، وتبعه الحمار بأسنانه محاولا الوصول إلى رقبته ، يتلوى جسده من جانب لآخر مثل ثعبان مكسور الظهر، تقدح عيناه بالشرر ويرتسم على ملامحه غضب مجنون .

أخيرا ، أفلت الحصان منه ، أبعده بكتفيه وانطلق بعيدا ، لم يقتف الحمار أثره . وقف بينه وبين الأتان ، نصف مقرفص ، مباعدا ما بين ساقيه ، لم يكن حتى ينظر إليه.

عاد الحصان مترددا ، يمشى برشاقة مفرطة ويهز أجزاءه الخلفية. هاجمه الحمار ثانية بصورة أعنف من السابق .وفى هذه المرة كان الحصان مستعدا ، تحرك .ومال برشاقة مستخدما كتفيه لإضعاف الهجمة . وعندما حاول الحمار أن يلحق به ثانية ، زلت قدميه الخلفيتين ووقع.

فى الحال ، ومثل كرباج ،كان الحصان فوقه ، خطف عضة سريعة وانتصب مبتعدا فى قفزة ناعمة ، وسار نحو الأتان بخطوات غير منتظمة ، يبطئ من حين لآخر كى ينظر خلفه.

بوجه شاحب ، نهض الحمار وذهب خلفه.

لاقاه الحصان ورفسه بسرعة وقوة لكن بدون انفعال ، ثم جرى بعيدا.

ومرة أخرى ، وبصورة أبطأ من سابقتها ، نهض الحمار وجرى خلفه.

انقض الحصان عليه .كان يلعب أثناء الضرب، يثب مرحا أما الأتان التى وقفت هادئة، مستعرضا قوته وشجاعته ،لم يعد فى حاجة لأن يقهر ويدمر.

دفع بالحمار إلى الأرض وجرى مبتعداً.

نهض الحمار وذهب خلفه.

بدأ اليأس يتسلل إلى نفس الحصان ، ويشعر بقدر من الخوف ، صهل فى وجه الحمار بقوة ورفسه بغضب فأوقع به وجرى بعيدا.

وذهب الحمار فى أثره.

فى هذه المرة ، كان الحصان أكثر بطأ ، فأمسك به الحمار من منتصف الساق وضربه فى بطنه ،فوق الكبد تماما، كانت الضربة قوية مثل رصاصة ، تلوى الحصان وابتعد لاهثا ، يجر أجزاءه الخلفية وهو يتألم بشدة.

وجاء الحمار وراءه.

الآنَ ، يتصاعد فى نفس الحصان أكثرحقد عميق وحشى ، شب بكامل طوله ، برقبة مقوسة ومعرفة شعثاء متموجة ، وبصهلة عاصفة جوفاء ، انغرس فى جسد الحمار العجوز ، ارتعش ، وعض ، ورفس وهشم ، ومزق بغضب نارى ، وتحت الحوافر المدمرة ، مات الكبرياء.

لم يستسلم الحمار، ولن يستسلم ما دامت فيه عضلة قائمة وعرق ينبض بالحياة ،كان محطما وأمام هذه الحقيقة فلا معنى لأى شئ آخر .

وهكذا لم يستسلم إلا بضربة حظ كسرت العمود الفقرى عند قاعدة الجمجمة ، لفظ بعدها آخر أنفاسه مات.

لقد قاسى كثيرا فى حياته.

***

على مدى ثلاثة شهور بعد المعركة التى دارت من أجل حسم القيادة (هذا ما فهمه الحصان كسبب للمعركة) هام القطيع بعيدا عن الغور ، ربما كانت المصادفة وحدها وراء هذه الحركة الدائبة بحثا عن الغذاء والأمن والسلام ، وربما خشى الحصان البقاء فى الغور لأنه مكان للموت عليه تفاديه . أو ربما كان يفتقد رفيقا قديما ذهب يبحث عنه، يتوقع رؤيته فى أى لحظة وهو يعبر فتحة فى الأشجار وخلفه الأرض الذهبية المترامية والجسم البرميلى المخطط المألوف ، بمعرفته المنتصبة وخطمه البليد.

أيا كانت الأسباب ، فقد هام بعيدا عن الغور ، يتبعه القطيع فى طاعة اعتاد عليها ، على أن القطيع بدأ عدده يتناقص ، فقد انتهزت بعض الفحول الفرصة وانسلخت عنه ، مصطحبة معها عددا من الآتان . لم يغامر أى منها ، مهما بلغت جرأته ، بتحدى تفوق الحصان الذى لا ريب فيه، لكن لانه يفتقد العاطفة الأبوية التى يتحلى بها القائد القديم، فلم يبال بهذا التناقص ، وعلى أية حال فقد كان تناقص عددها يتفق مع رغبته ، لأنه كان متعجلا وقلقا ، ينفد صبره أحيانا من تلك الحمير الكسولة.

بقى معه اثنتا عشرة من الآتان وثلاثة من الفحول ، ومعها ، هام بعيدا بحرية.

كان المطر قليلا فى ذلك الصيف ، لكن هذا لم يمنع تلاحق العواصف الرعدية العنيفة القادمة من الشمال والسحب المظلمة ،وقرقعة البرق والرعد . وأحيانا كانت العواصف تتكسر فوق الرؤوس ، مرسلة قطرات كبيرة تنحدر مع الريح لتسقط عبر الدغل بصوت يشبه الحفيف ،وكان الحصان والحمير تتجمع فى تعاسة ، مولية ظهورها للريح ، تترقب انتهاءها بكآبة ممضة.

على أنه لم يكن هناك ، فى غالب الأحوال ، سوى الرعد والبرق يرسل ،عبر السماء ، بقطع من الثلج الخشن، تضرب ، بين الحين والحين ، الحيوانات والأشجار والجذور العفنة التى نمت حولها الحشائش الطويلة المكثفة .

فى عقل الحصان، دفنت، عميقا ذكرى النار ورائحة الدخان ، وأصبحت ترتبط عنده ارتباطا مبهما بالأمان واللبن الوفير الحلو.

لكنه شعر بالقلق عندما التقط هذه الرائحة مع النسيم الرائق بعد عاصفة شديدة ، هبت صباح أحد الأيام .جاءت الريح من الشمال الشرقى ، ولم ير خلالها سوى ضباب باهت يحيط بالأفق الجنوبى الشرقى.

عند الظهيرة، انحرفت الريح باتجاه الجنوب الشرقى واشتدت ، ثم سرعان ما بدأت تظهر سحب بنية داكنة فوق الدغل ازدادت الرائحة الحريفة بصورة لا يمكن تجاهلها ، واستدار الحصان ليقود القطيع نحو الشمال. يرعى أينما ذهب .

وطوال الظهيرة ، ظلت السحب الغريبة تزداد ارتفاعا وكثافة.

فى ذلك المساء ، شربت الحمير من حفرة ماء موحلة، لم يسمح الحصان لها بأى تأخير ، وبمجرد أن انتهت من الشرب ، واصل سيره بخطوات ثابتة نحو الشمال.

كانت السهول تضم قطعانا من أنواع أخرى ، تتحرك سريعا ودون انحراف قاصدة الشمال ، وهبط المنحدر العريض اثنان من النمور ، ذكر وأنثى .فزع قطيع من القوفز وفر إلى الضحال المقفزة جرى النمران بعيدا دون أن يلتفت أى منهما للقوقز.

عندما غابت الشمس ، غطت السماء غيمة ضبابية ، والآن ،تغطى السحب البنية فى الجنوب الشرقى نصف الأفق ،والريح ترعد فوق الرؤوس ،كانت الليلة الماضية غريبة .صفراء مثلما يحدث أحيانا قبل هبوب العاصفة ، وفور غروب الشمس توهج الأفق الشرقى كما لو أن فجرا جديدا ينبثق . وسار الحصان ، يمشى بخطوات مطردة ، والحمير خلفه.

سرت النار بسرعة مهولة ، كانت مشتعلة منذ حوالى أربع وعشرين ساعة ، وظلت تنتشر لمئات الأميال على هيئة قوس عملاق ، من الشمال إلى الجنوب ، حملتها الريح العفية فى البداية ، ثم استمدت من قوتها الذاتية الشرسة زخما جديدا وفى لحظات ، امتصت حرارتها الكاسحة القاسية الهواء فى لحظات ، تاركة فراغات ينفجر اللهب وسطها بزئير مرعب.

كان البعض منها محظوظا ،فحيوانات مثل الأفيال ، استطاعت بفضل سيقانها الطويلة الرصينة أن تسابق النيران ، وقطعان الحيوانات الكبيرة ساعدها إحساسها العالى بالخطر على الفرار . وهكذا تمكن معظم أفراد قطعان الجاموس والعلند والحمير المخططة و تياتل «الهرتبيس» والنو والقوفز والسمور والجمزبوكة من النجاة وكذلك البوش بوكه الخجول ، ووحيد القرن الغاضب أحيانا ،كما اختفى دهاة الضوارى منذ وقت طويل . أما القوارض ،فقد نجحت فى الهروب داخل حفرها العميقة حيث لا يمكن للنار أو تطالها أن يخنقها الدخان كان معظم الموتى من الصغار . فالقرود والجلاجوس كانت أجبن من أن تتحرك بعيدا عن أشجارها . اكتفت بالصراخ الهائج كلما اندفعت النيران ناحيتها . والحال كذلك بالنسبة لظبى «الديكر» و«الظبى الصخرى ، وبطيئى الحركة من السلاحف والقنفذ و«البنغول» آكل النمل ،والثعابين بكل أنواعها.

حتى الحيوانات الكبيرة كانت تخدعها أحيانا سرعة الريح أو إتجاه النار، فكانت ريح دوامة أو إنحراف غير متوقع أو سقوط مفاجئ لشجرة، كانت سالمة منذ لحظة ، يتحول إلى جحيم من لهب مسعور ودخان ونضال معذب للمأسورين فى قبضة الموت.

الغريب أن عددا من الزرافات سقطت بهذه الطريقة ، برغم طولها الذى يسمح لها بتحديد اتجاه اندفاع النار، وسرعتها اللازمة للهرب.

عندما بلغ التحذير أول حمار ، كان الحصان وقطيعه على مسافة ثلاثين ميلا من الغور ، جرت الحمير فى محاولة لتجاوز النار لكن السرعة كانت تفقدها القدرة على الانتقال إلى الأجناب ، فتضطر إلى التحول إلى الخبب السريع ، وعندما بلغت حافة الغور كان حزام النار بعرض ميل يفصل بينها وبين الماء الآمن.

انحرف الحصان جهة اليمين ، يجرى بطول الحافة المشتعلة للغور ،والحمير تتعثر خلفه ، وفى داخل الدغل كانت ألسنة اللهب تتصاعد فى الهواء لارتفاعات تصل إلى ما بين العشرين والثلاثين قدما .وكان اللهب يصنع أشكالا حمراء وصفراء ، تتراقص وسط الدخان المتصاعد .ومن حين لحين ، يأتى الصوت المروع الهادر لشجرة صمغ تنفجر وسط الحرارة المتوهجة ، مرسلة جمرات ملتهبة على فترات متقطعة ، تحرق الأخضر واليابس . وفوق ظهر إحدى الأتان ، سقط فرع شجرة مشتعل ، فزعت بعيدا ، وأطلقت صرخة هلع وخوف أرسلت الآخرين فى شتات مفاجئ شرس.

فوق هوة ضيقة بين الشجيرات المتناثرة ،عند الحافة البعيدة ، سقطت النار ، وإلى هذا الدهليز الذى يتصاعد منه الدخان ، اتجه الحصان بلا تردد ، تتبعه الحمير وهى تصهل فى خوف ، والدخان يلسع عيونها .

الآن ، تحيط بهم ألسنة اللهب من الجانبين ، تشع وهجا حارا ،والهواء لا يكاد يصل إلى رئاستها المجهدة.

فى عدوه ، ودون أن يدرى ،جرى الحصان لعشرين خطوة بين الأشجار الخطافية المنتصبة التى أحالتها النار إلى مشاعل عملاقة .أسفلها ، تناثرت شظايا العظام المتفحمة ، بعضها مثقوب وخال من النخاع ، وبعضها الآخر طويل مثل جمجمة الحصان ، ترك ليتحلل ،وهو يدخل الآن طور الاحتراق الأخير . لم يعرف ، ولن يعرف ، أو يتعرف على المكان ، البقعة الوحيدة المعزولة فى البرية التى شهدت الموت فى ليلة مخيفة أخرى منذ أكثر من أربع سنوات مضت.

واصل العدو ، والأشجار تحترق خلفه.

وفى هذه الليلة المشبعة باللهب ، فرت مخلوقات أخرى.

ضاقت النهاية البعيدة لدهليز الأمان حتى أصبح عرضها عشر خطوات فقط. وهنا وهناك ،تناثرت رقع من العشب المحترق ، ما زال الدخان ينبعث منها ..ومن واحدة منها ،زحفت حية «المامبا» بطول ثمانية أقدام كاملة قطعت طريق الحصان .جفل مبتعدا ، لكنها لم تلتفت إليه، وعبرت الطريق مثل مياه

داكنة مرتعشة عمياء تتجه نحو اللهب.

على آخر نفس ، وبأقصى سرعة ، اندفع الحصان تتبعه بقية الحمير ،إلى ما وراء الدغل، ثم انحرف إلى الضفة المظلمة المنحدرة ، حيث برد المياه العميقة التى لا ترحم.

***

مثلما أتت النيران على المروج الممتدة بطول مائة ميل وعرض ثلاثين ، محت من ذاكرته ما تبقى من أثر للحمار العجوز ،دفن قلقه فى تلك الليلة ، ولمدة طويلة بعدها ظل يرعى مع قطيعه العشب القريب من الغور ، بنفس راضية ، وحتى عندما تبخرت المياه بفعل الشمس وصارت مرة ، اختار البقاء داخل الدائرة المحكمة التى تحيطها ست من عيون الماء على بعد عدة أميال.

كانت الحمير تتقاسم المرعى مع قطعان أخرى ،ومع استمرار الرعى ، نحلت الخضرة واسمرت ، فتحركت قطعان الحيوانات الكبيرة نحو الشمال.

وبعد رحيلها ،جاء الصيادون.

وفى تلك الأثناء ، كانت هناك أسراب نعام ترعى حول الغور مع بقية القطعان ،وكان أحد هذه الأسراب يرعى بانتظام فى نفس الرقعة التى تشغلها الحمير ، متبعا نفس نظامها البسيط من شروق الشمس إلى غروبها . وأعتاد الحصان رؤية الطيور الضخمة ، بأرجلها الطويلة ،وهى تأتى متمهلة عبر الأدغال . وإذ تأخر مجيؤها فى الصباح الباكر ، كان يقف ليترقب ظهورها ، وأحيانا كانت الحمير والنعام ترعى جنبا إلى جنب وعندها الحصان يخفف من يقظته المعتادة، إذ كان ديك النعام العجوز بريشه الأنيق ، حارسا بارعا مثلما كان فحل الحمار الوحشى فى الأيام الخوالى.

يوما بعد يوم ، تنقل القطيع والسرب فوق أراضى العشب الغنية ، وكانت الطيور العريقة الحكيمة ترقب محاولات الحصان الفاشلة لتلقيح أتان، وغضبه الغيور لأى محاولة اقتراب من جانب الفحول.

بعيونها المعدنية ، شهدت الصراع القدرى من أجل الخلود، شهدته كما لو كانت تحتكر وحدها المعرفة الفذة فى رؤوسها المدببة المنبسطة ، تلك المعرفة التى لم تعد أى منها تتمتع ولو بذرة منها.

فى صباح أحد الأيام ، تأخر النعام عن موعده دون تفسير واضح ،وعندما ظهر أخيرا ، يسير فى قلق مثيرا خلف الغبار ،كان ينقصه إحدى النعامات البيضاء الرمادية ، وعندما رأى الحمير ، شرع فى الرعى ، لكن الفواصل بين النعام كانت قصيرة هذه المرة ، وخلفه وقف الديك دون حراك ، مثبتا عيناه على الشجيرات المتناثرة على حافة الغور.

لمح الحصان هذا الاحساس بالقلق وكان يرفع رأسه من حين لآخر ليحملق فى الشجيرات.

لم يتحرك شئ هنالك.

وفى ساعة متأخرة من الصباح ، ظهر فى مرمى البصر الشبح الطويل المألوف للنعامة. ارتفع فجأة من حفرة فى مرتفع يكسوه العشب . وعندما لمح الديك اقترابها ، استدار برأسه الصغير .كانت رقبتها

متصلبة ،خالية من التعرجات المتمايلة المعتادة ، وأرجلها قصيرة خرقاء.

ومع ذلك، كان التنكر الساذج بجلد نعامة يغطى جسم الرجل النحاسى الصغير ، الذى ربض وهو يمسك بقوسه فى يد وفى الأخرى سهم يبرز من حنجرة الطائر الميت ، كافيا لخداع العيون البريئة ،وحتى إذا لم يخدعها ،فقد كان منظره غريبا ومحاكاته منافية للطبيعة ،وهو ما أوقعها فى أسر الفضول.

اقترب الصياد الشاب حتى أصبح على مسافة مائة خطوة من الحيوانات التى وقفت ترقبه .كان عاريا حتى خاصرته ، يتصبب عرقا من شدة الحر والتوتر .ثم ،ومن خلال ثقوب الجلد التى ما زالت تنزف دما فوق عينيه، رأى حمارا وحشيا أبيض وقد أصابه الضجر، وقف يضرب الأرض بحوافره ،مقوسا ، متحفزا لإطلاق صوته الأجوف ليحذر بقية الحيوانات.

توقف الرجل وقوس أكتافه حتى انحسر جلد النعامة عن ظهره ،وفرد جناحى الطائر ذى الريش المنتصب انحنى ،فبدا كما لو أن النعامة تعبت وتوشك على الجلوس.

قرفص صياد «الماساروا» وسط السهل الواسع . ظل صبورا تحت مظلة الجلد يرقب فريسته ،والآن ، بعد أن نسى الحصان النعامة الوهمية ،خفض رأسه إلى الخلف نحو العشب.

ما زال صيادا «الماساروا» كامنا دون حراك ، يفكر فى حل للموقف . فجميع تجاربه السابقة مع الحمير المخططة تفيد بأنها عصبية وإن كانت بليدة الحس . إذ من السهل جدا افزاعها ، لكنها تنسى بنفس السهولة ،إلا أن حكمة الصياد أخبرته أن هذا الحيوان الأبيض الغريب شئ مختلف وحركة زائفة بجواره يمكن أن تدفعه إلى الفرار .

كان لايزال بعيدا عن المرمى المؤثر بعد أن استبدل قوسه الكبير ، الذى قتل به النعامة ، بسلاح أصغر يسهل حمله تحت غطائه الجلدى . فكر فى أن يترك الجلد ويقترب زاحفا . لكن الأعشاب الصفراء كانت قد أكلت وصارت قصيرة بدرجة لايمكن معها إخفاء حركته ، كذلك لم يكن هناك وسيلة بديلة للتخفى كان عليه إذن أن ينتظر كما تعلم فى مئات الطلعات الأخرى.

فى تلك اللحظة ، أخطأ ديك النعام التصرف . كان يراقب اقترابه غير المثمر بارتياب ، لكن عندما اجدودب الصياد جاءت حركته متقنة لنعامة تحط فوق عشها ، وسرعان ما استيقظت غرائز الديك الحارس . اقترب منه بضع خطوات حذرة ليكسر بذلك حالة الاستنفار القصوى التى كانت تربطه بالحصان الأبيض مثل شعرة دقيقة.

أطلق الحصان صيحة تحد ، وقفز خطوتين بطريقة استعراضية.

ارتفع الرجل مرة أخرى يهز عباءته ، فانتفش الريش وتقدم بثقة نحو الحمير ، التى لم تبد التفاتا .

الحظ وحده هو الذى أنقذ الحصان فى اللحظة الأخيرة ، فعندما جذب الصياد قوسه ، مصوبا نحو الرقبة الفضية الملساء ، برز أحد الحمير أمام خط التصويب ، ليقدم هدفا أكيدا ، ومن تحت جلد النعامة ، انطلق السهم الخشبى الصغير المطعم بالعظم ، وفزعت الأتان ، وصرخت من هول اللدغة المفاجئة ،

شب الحصان مذعورا عندما التقط رائحة الإنسان المختلطة بالدم . اندفع مع قطيعه فى عدو مجنون ، جرى النعام أيضا ، وألقى الصياد بعباءته الخادعة وذهب يقتفى أثر الضحية ليسترد سهمه ويرى بنفس راضية أن الرأس المزود بالسم قد أصاب الهدف بدقة ، ثم أشار لرفيقيه اللذين كانا ينتظران بصبر مماثل فوق الشجيرات القصيرة على حافة السهل .

اتجها إليه مسرعين ، وتحادث ثلاثتهم للحظة ، ساروا ، بحذر وظهور محنية ، يقتفون أثر الحمار الجريح ، جروا جنبا إلى جنب ، يتخاطبون من حين لآخر بالإشارة عندما يلحظ أحدهم نقطة دم على الأرض أو علامات غائرة لحوافر الحمير التى انطلقت تقفز ثانية على أثر تحذير مفاجئ من شئ ما . لم تكن أكثر من شجيرة شوك هزها النسيم قليلا ، تلك التى جعلت الحصان يقفز بعيدا ، مطلقا صهيله ، وهو ينز عرقا من الخوف.

ظل الحصان يجرى لفترة ، ثم انحرف نحو غطاء أكثر كثافة ، وواصل سيره برغم علامات الإجهاد التى بدأت تظهر على الحمير ، فقط عندما اختبأ بأمان بين الشجيرات ، شعر الحصان بالراحة.

عجل العدو السريع من سريان السم فى جسد الأتان . كان الجرح الصغير ، حيث لايزال السهم منغرسا ، ينبض بالألم ، واستدارت أكثر من مرة لتدليكه ، أصبحت أرجلها متصلبة ، تشعر بثقل شديد فوق أجزائها الخلفية . أخيرا ، رقدت ، وجاء الحصان ، مدركا مأساتها ، ليقف عند رأسها.

على هذه الصورة ، وجدهما صيادو « الماساروا ».

ظل الصيادون يحتفظون بالأثر طوال ذلك الصباح المضنى . لم يفقدوه حتى عندما كانت تعبر الأرض الوعرة ويبهت الأثر بحيث لاتراه سوى عيونهم الخبيرة ، واصلوا جريهم القصير الخطى ، ولم يبطئوا إلا عندما تأكدوا من اقترابهم من الضحية . قطعوا الخطوات القليلة الأخيرة على ركبهم وأياديهم ، وعندما تخطى قائدهم السياج الأخير من الأشجار صدرت عنه إيماءة قصيرة، تعبيرا عن رضائه وهو يرى الأتان راقدة على جنبها برأس متخشب، ورفع رمحه الطويل ورجع بذراعه إلى الخلف ليقذفه.

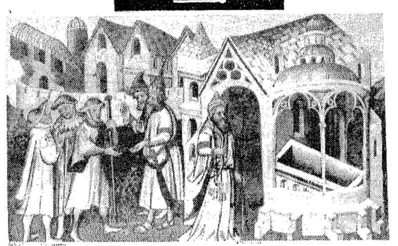
لكن الحصان الرمادى الكبير، الذى كان يقف حارسا تحت ظل شجرة ، اشتم رائحة الوجود الغريب ، فاندفع نحو المتطفلين بغضب أعمى .

تفرق الرجال وهم يطلقون صيحات الخوف ، أحدهم لم يكن سريعا بما يكفى ، فتلقى رفسة من الرجل الطويلة أصابت فخذه قبل أن يتمكن من الإفلات. ودار الحصان ثائرا ، يبحث عن عدو يسحقه ، وإلى جانب ، حاد رمح لبضعة سنتيمترات ليبقه حيا ، ابتعد الصيادون عن المكان ، واستدار الحصان عائدا إلى الأتان ، يحاول إقناعها بالنهوض والجرى ،

عندما يبدأ الحصان هجومه ، رفعت رأسها لمرة . لكنها أسقطتها ثانية باجهاد . وهاهى ترقد الآن بلا حراك ، عاجزة عن الاستجابة لإلحاحه.

وحوله، وسط الشجيرات ، همسات وهفيف ملح ، كما لو أن الريح تتآمر مع مطارديه . ومرة أخرى انطلق الحصان يهاجم ، لكن لم يكن هناك غير الريح .

عاد إلى الأتان ، لكنها كانت قد لفظت آخر أنفاسها.



برلين فى ١١ سبتمبر ٢٠٠٢

إدوار الخراط

فى صباح يوم من أيام الحر القائظ فى يونيو الماضى كان رنين التليفون فى شقتى الهادئة عاليا وعادياً .قال المتحدث بانجليزية فيها لكنة واضحة إنه يريد التحدث إلى إدوار الخراط ، عرفنى بنفسه : أولريخ شرايبر مدير مهرجان برلين الثانى للأدب العالمى، قال إنه مهرجان يتجمع فيه نحو ١٧٠ كاتباً وأديباً وشاعراً من جميع أنحاء العالم يسهم كل منهم بإلقاء قصيدة أو قصة أو فصل من رواية له بلغته الأصلية ثم تترجم إلى الألمانية ويلقيها ممثل أو مؤد أمام جمهور من الألمان.

لم أكن قد زرت برلين منذ تسع سنوات .وعندما مررت عابراً بها كانت برلين الشرقية ،بعد سقوط السور وتوحيد برلين، راعنى ما لمحته من مظاهر الإهمال ،والتردى ،وما يشبه الصمت أو النبذ فى ميدان الكسندر بلاتز وشارع أنتردين ليندين (تحت أشجار الزيزفون– رحمة الله على المنفلوطى)!.

أبرق فى ذهنى، وأنا على التليفون : مهرجان عالمى للأدب .. فى برلين .. قد ألتقى فيه بشعراء وكتاب عالميين .وألم مرة أخرى بمعالم برلين الشرقية والغربية بعد توحيدهما وأرى الصديق أحمد عز الدين الذى عرفته وأحببته عندما كان عبد الحكيم قاسم مقيماً فى برلين (الغربية).

قلت لمحدثى إننى موافق من حيث المبدأ ، على أن يرسل إلى تفصيلات المهرجان وعندئذ أوافيه بقرارى.

وبعد أكثر من شهر كنت فى الساحل الشمالى ، أقضى أسبوعى إجازتى السنوية فى قرية صغيرة خجول وهادئة على العكس من مارينا الصاخبة المبهرجة فاحشة الزواق ، وإن لم تكن غير بعيدة عنها ، حين جاءنى صوت شرايبر على

الهاتف المحمول يستأذن فى أن أشارك -إذا وافقت -فى ندوة تعقد يوم ١١سبتمبر ، بافتتاح المهرجان ، ويساهم فيها أعلام من المفكرين العالميين ، عن آثار ١١ سبتمبر على الأدب ، عن قضية التسامح ، وعن مكافحة الإرهاب وإرهاب الدولة.

ومرة أخرى قلت : موافق من حيث المبدأ . أرسل لى تفاصيل الموضوعات على وجه الدقة، وأسماء المشاركين.

عندما وصلتنى هذه التفصيلات ، بالبريد ، فى أواخر أغسطس أرسلت إلى شرايبر قصتى «دقات الأجراس لا تصمت» واقترحت عليه أن يترجمها الصديق المترجم هارتموت فيندريش الذى كان قد ترجم إلى الألمانية «ترابها زعفران» و«حجارة بوبيللو» ضمن نحو عشرين كتابا أو أكثر من الأدب العربى ، ولم أؤكد اشتراكى فى المهرجان إلا بعد أن جاءنى من شرايبر إن القصة قد ترجمت بالفعل وإن مؤديا مشهوداً له بالخبرة، طول الباع سوف يلقيها بالألمانية، وأن السيد : بياة اورسولا اندريس سوف تدير اللقاء ، وهى صديقة قديمة منذ أن كانت تعمل فى« دار ثقافات العالم» فى برلين ، وعرفت أن من الكتاب العرب المشاركين فى المهرجان الصديق الروائى المناضل الكبير صلاح ستيته من لبنان ، والروائية المرموقة آسيا جبار من الجزائر ، والكاتب المعروف طاهر بن جلون،وعادل قرشولى الشاعر السورى المقيم فى ألمانيا».

انعقد المهرجان فى« برلين انسامبل» مقر ومسرح بريخت العتيد، مبنى أنيق ، بين حدائق مونقة بالخضرة ، والنهر الصغير يتدفق غير بعيد ، صالة المسرح الجميلة غاصة بالجماهير التى جاءت تشهد افتتاح المهرجان صباح ١١ سبتمبر ، كتب الأدباء المدعوين مترجمة إلى الألمانية منسقة بالمئات فى ردهة المسرح- وذلك اللغط الأليف من التحيات والتشوف إلى الافتتاح يعمر الردهة والصالة ..نحن المدعوين الذين لا نعرف أولا نتقن الألمانية نلتقط أجهزة الترجمة الفورية ونشق طريقنا إلى مقاعدنا ، اسمع من يهتف باسمى ويحيينى بحرارة: حمد الله على السلامة ..أنت لا تعرفنى .. سمير جريس مراسل الإذاعة الألمانية من كولونيا .

اللهجة المصرية -بلكنة صعيدية غير محسوسة تقريبا-عذبة الوقع فى قلب هذا اللفظ البهيج.

وسوف أعرف أن سمير قد قرأ لى الكثير ، وأنه فرغ منذ قليل من«صخور السماء» وسوف تتوثق بينه وبينى فى الأيام القلائل القادمة وشائج صداقة وإعزاز.

دقات المسرح التقليدية الثلاث

صمت الترقب يهبط

نشرع نحن أجهزة الترجمة ، كلمات الافتتاح الرسمية الموجزة جداً، ليس فيها إشارة بتوجيهات أحد من المسئولين ، ليس فيها شكر مفروض فرضاً لرئيس أو محافظ أو عمدة ، المهرجان تنهض بأعبائه كلها مجموعة من المتطوعين ، مستقلة ، محبة للأدب(هل ثم ضرورة للتحسر المتوقع على أحوالنا؟) يلهمها ذلك الرجل الذى أخلص نفسه للمهرجان كما يخلص المرء لرسالة تملك عليه نفسه ، ألقى كلمة قصيرة ودعا زملاءه ومعاونيه ليظهروا على المسرح ، يحييهم الجمهور بحماسة ، يلقى مندوب اليونسكو كلمة فى دقائق معدودة ، يتلوه ممثل ما يمكن ترجمة بـ «اتحاد المؤسسات الثقافية». ثم يأتى دور زيفاد لعل صحتها أو زياد قره حسن كاتب من البوسنة والهرسك،وهو أساسا مسرحى لعل صحتها زياد قره حسن ، ليلقى كلمة الافتتاح الرئيسية حرر مجلة أدبية فى سيراييفو ، ودرّس الدراما وتاريخ المسرح فى جامعتها ، وكتب القصة القصيرة ، والدراما الاذاعية ،والمسرحية ،ونشر روايتين عالج

فيهما أحداثاً تاريخية تنصهر فيها تيمات من ألف ليلة وليلة، فى سرد يتسم ببراعة سيكلوجية وعقلانية تحتفى بالصوفية الإسلامية ،كما وصف سيراييفو التى مزقتها الحرب، هو مسلم بالديانة ،والكتابة عنده ، باستمرار، نوع من الالتزام.

المداخلة الافتتاحية للمهرجان التى ترجمها سمير جرجس عن الألمانية ،عنوانها الأدب كدفاع من التاريخ ،وفيها يدحض قره حسن دعوى هنتيجتون (المتهافتة أصلا) عن صراع الحضارات:

يفسر هنتينجتون قناعته بحتمية الصراع بين الحضارات المختلفة بالطبيعة البشرية:«الكراهية شعور إنسانى. البشر بحاجة إلى أعداء لتعريف الذات وإيجاد الدافع» .هكذا بالحرف الواحد .هل سيشك السيد هنتنجتون فى صحة نظريته إذا أقسمت له- أنا الذى أشعر أيضا بكراهية تجاه أشخاص معينين وأشياء معينة (فالكراهية شعور إنسانى) -إذا برهنت له بعشرات الأمثلة أن الأصدقاء لدى أهم مئات المرات من الأعداء فيما يتعلق بـ تعريف الذات وإيجاد الدافع»؟ هل سيشك فى صحة نظريته إذا أوردت له عشرات الأمثلة من حياة عشرات الناس التى تبرهن على أن الحب والصداقة يمثلان دافعا أقوى، وأنهما عند تكوين الهوية أكثر نفعا للإنسان من العداوة والكراهية؟ لا أعتقد . يعلمنا الفيلسوف اليونانى إمبدوكليس أننا لا نرى من الأشياء ولا نتعرف إلا على تلك التى نحملها داخلنا.

لكن، لنعد إلي موضوعنا :كيف لرجل يشتغل فى مجال الحضارات أن يضع كتابا يبسط فيه الحضارة والثقافة على هذا النحو الكاريكاتيرى ؟ إن كل ثقافة تؤلف -مثل اللغة- بين العام والخاص، وبين المطلق والملموس ، وبين الجماعى والفردى .الجانب الأول يجعلها منفتحة أمام كل البشر ويمد وشائج القربى بين الثقافة موطنا ذهنيا لجماعة معينة من الناس .نحن جميعا نشترك فى الموت الذى ينتظر كلا منا ، إلا أن الثقافات المختلفة تعدنا لاستقباله بطرق مختلفة ، وتقدم لنا صورا متعددة للموت وما يأتى بعده. يقول هوراتس إن ترتيب النجوم فى هذا الليل الذى نشترك فيه جميعا يختلف باختلاف بقاع عالمنا.

لهذا تشترك الحضارات جميعا فى جوهر كونى إنسانى عام، ولهذا أيضا يتسم المكان الذى تتراكم فيه الحضارات بالاتساع النسبى. إذن يستحيل- منطقيا-الصدام بين الحضارات، فإذا حدث ذلك الصدام المزعوم فإنه يعنى أن تتصادم أجزاء الحضارة الواحدة ضد بعضها البعض . إذا بدا لنا أن الحضارات المختلفة قد تصادمت وتصارعت فى عصور تاريخية سابقة، مثلا فى عصر الحملات الصليبية، فإن هذا الانطباع يتولد لدينا فقط بسبب التبسيطات الاسمية التى نقوم بها. لم تكن الحملات الصليبية صراعا بين الإسلام والمسيحية كحضارتين ، بل صراعا ذا برنامج سياسى استند إلى هاتين الحضارتين . لن نكون جادين إذا أجرينا نقاشا حول ما إذا كان البرنامج السياسى للبابا أوربان الثانى يتطابق بالفعل مع مبادئ المسيحية ، ولن نكون جادين إذا تناقشنا حول ما إذا كان ادعاء القديس برنهارد فون كليرفو بأن« مجد المسيح يتجلى فى موت كل كافر» يتفق مع جوهر المسيحية ، أيضا لن نجرى نقاشا حول ما إذا كانت مملكة السلاجقة تمثل الإسلام ، أو إذا كان الجهاد فى جيش السلطان صلاح الدين يعنى الجهاد فى سبيل الله . إذا أوجدنا رابطة بين تلك الحروب والحضارات ، أو إذا أصررنا على ذلك ، فالمقصود هو الصراع مع الرؤى ذات «التوجه السياسى» لتلك الحضارات، التى وإن تم جمعها إلى كل متكامل، فلا يعنى ذلك أنها تمثل حضارة ، بل منظومة أيديولوجية

فحسب . هذه المنظومات الإيديولوجية التى تنتزع من سياقها الحقيقى انتزاعا ، والتى تقلص إلى بعد واحد هو البعد السياسى ، نسميها حضارة مسيسة ، لهذه الحضارات الموجهة والمختزلة على شكل آيديولوجى كاريكاتورى أن تتصارع ، لكن هذه لم تعد تستحق أن تسمى حضارات ، لأن البعد الكونى لهذه الحضارة أو تلك قد سلب ، ذلك البعد الذى يتوجه إلى كل إنسان.

يمضى قرة حسن إلى ايضاح تصوره عن المشهد العالمى:

فى إحدى الصور أرى أفغانيات خلال حكم طالبان (وأيضا فى عدة مجتمعات يمارس فيها الأصوليون الإسلاميون نفوذهم) ، نساء متحجبات من قمة الرأس إلى أخمص القدم، قد تم اختزالهن إلى شكل وظل ، ثم حشروا حشرا فى علم الحساب ليتحولوا إلى محض مفاهيم متجسدة ملموسة ، تماما كأشكال إشارات المرور الضوئية .يحدث هذا كله باسم الحضارة التى أبدعت «ألف ليلة وليلة» ذلك الكتاب الأكثر «أنوثة» فى الأدب العالمى ، يحدث هذا باسم شهرزاد ، تلك المرأة التى تمثل الرمز المتجسد لكل نساء حضارتها. هذه الصورة الواحدة تكفينا لإثارة السؤال: أى حضارة إسلامية ، وأى إسلام يريد هؤلاء الذين أعلنوا أنفسهم حماة له؟ ربما يتبنون بالفعل شيئا ما أو آراء شخصية ما ، وربما كان للعالم الذى يريدون تشكيله علاقة ما. بالاسلام-على كل حال ليس لهذا العالم أى وجه شبه مع الإسلام الذى أعرفه وأحبه وأعتنقه فى صورة أخرى أرى وزارة العدل فى الولايات المتحدة ، حيث ألقوا بوشاح يغطى تمثال ربة العدالة يوستيتسيا ، التى تمثلها امرأة نصفها الأعلى عار . لم يكد يمضى وقت على النداء الذى وجهته الإدارة الأمريكية لخوض حرب للذود عن الحضارة الغربية تحت شعار :«إما أن تكونوا معنا أو ضدنا» (فلنتذكر مرة أخرى نكتة إيفيك السخيفة، ومنطقة الملعون «إما .. أو») .هل ندافع عن الحضارة الغربية إذا رفضنا رمزيا تراث القدماء؟ إذا أنكرنا قرونا عديدة من فن النحت ، كان الجسد يصور فيها على النحو الذى خلق عليه فى الفردوس ؟ برفض العدالة وكل ما يرتبط بها؟.

ثم يمضى إلى استخلاصه :

قال جوته ذات مرة إن السعيد هو من ينظر فى نهاية أيامه إلى حياته ويستطيع أن يجد فى تلك الحياة ، فى ذلك الوجود الأرضى ، كلا متكاملا ، شكلاً وربما تاريخاً . أى أن السعيد من نجح فى أن يصالح بين «الاسمية» والواقعية ، وبين البنية والتاريخ . السعيد من يخلق بينهما توازنا ، ومن يعيش وكأنه يبدع أدبا جيدا . هل لنا أن نأمل فى الوصول إلى السعادة التى يتحدث عنها جوته ؟ إذ نقف عاجزين أمام إرهاب الأسمية؟ لا أعرف الأمر كله يتوقف على مقدرتنا على إنقاذ حضاراتنا وثقافاتنا من أنياب «حماتها» الأصوليين ، ويتوقف أيضا على ما إذا كان لدينا أدب جيد كاف .إذا كان هناك فى عالمنا شئ يمكن أن ينقذنا من تغلغل «الحسابية» إلى عالم الأشكال الحقيقية فهو الأدب ، الأدب الجيد .الأدب الذى يعرف ومنذ أمد بعيد أن: «الوردة تزهر لأنها تزهر -بدون لماذا» (أنجليوس سيلسيوس).

«الاسمية» عند قره حسن ، بطبيعة الحال ، تعنى الاقتصار على الألفاظ والمفاهيم المجردة التى لا تكشف عن جوهر الأمور ولا عن حقيقتها .

والاسمية -مثل الحسابية البراجماتية التى لا تعنى إلا بالمصلحة المباشرة-كلاهما سلاح «الأصوليين» وسلاح المؤسسات العسكرية المالية السياسية الحاكمة والمهيمنة فى عالم اليوم.

***

بدأت الندوات الثلاث الأساسية فى يوم

الافتتاح ١١ سبتمبر ٢٠٠٢ ، موضوع الندوة الأولى :تفسيرات وتأملات عن ١١ سبتمبر ٢٠٠١ ،وشارك فيها عبد الوهاب المؤدب ، وطارق على، اليوت واينبرجر، وبرنارد* -هنرى ليفى.

الاتفاق على رفض الهيمنة «الامبراطورية» الأمريكية سائد فى مداخلات المشاركين جميعا مع تنويعات شخصية لكل منهم ولكن الأمريكى اليوت واينبلجر هو الذى شن أعنف وأقوى هجوم على حكومة بوش، وعليه شخصياً باعتباره قد« اغتصب» رئاسة الولايات المتحدة بالتزوير والألاعيب الانتخابية المعقدة ،باعتباره الممثل التراجيدى -أو التراجيكوميدى للمؤسسة الامبريالية العسكرية المالية الأمريكية التى لا تعرف إلا مصلحتها المباشرة بكل ما يعنى ذلك لا من قصر نظر فحسب ، بل بما يجره على العالم كله وعلى الولايات المتحدة الأمريكية نفسها من ويلات.

واينبرجر -بالمناسبة- هو أهم مترجم لاوكتافيوبان وبورخيس من الاسبانية إلى الانجليزية وهو أول أمريكى يحصل على« نوط نسر الأزتيك» من المكسيك.

أما طارق على فقد أمتع الحضور بحيويته وطلاقته ودقة رؤيته وما أظننى بحاجة للاشارة إلى اتجاهاته اليسارية ومقاومته للديكتاتورية العسكرية فى الباكستان مما ألجأه إلى الحياة فى النفى الانجليزى وهو يشارك فى نشر المجلة اليسارية الجديدة (نيوليفت ريفيو) ذائعة الصيت ،ولكن من غير المعروف عندنا انه يكتب الشعر والرواية والمسرحية ، فضلا عن كتاباته السياسية.

كان الاتفاق سائداً، كذلك ،مع تنوع الرؤى وتعدد وجهات النظر، على دحض ترهات «صراع الحضارات» و«نهاية التاريخ» ،باعتبارها أطروحات لاقيمة فكرية لها إلا أنها أداة أيديولوجية فى أيدى المؤسسة الامبريالية الأمريكية وحلفائها.

الندوة الثانية التى عقدت فى اليوم نفسه ، بعد استراحة الغداء القصيرة ،موضوعها ما الليبرالية والتسامح اليوم؟ وشارك فيها إلياس خورى بمداخلة تجمع بين مقاومة العدوان والتعصب والصلف الأمريكى والإسرائيلى خاصة وعرف كيف يبرز دور الكفاح الفلسطينى -والعرب؟ والمشروع والحتمى فى وجه الاجتياح والاغتصاب الامبريالى الصهيونى ،وتكلم طاهر بن جلون عن معنى التسامح(وهو موضوع كتابه إلى ابنته) وشارك فى اضاءة الموضوع على الساحة الأسيوية كاتب هندى مرموق هو آنان ثامورتى ، رئيس الأكاديمية الأدبية ساهيتيا فى دلهى ، ولكنه أساسا روائى ذاعت شهرته لا فى الهند فقط بل على الصعيد العالمى (متى نعرف كيف نترجم لهؤلاء الكتاب العظام)؟.

وعلى الساعة الرابعة جاء دور الندوة الثالثة «ما هى الفرص المتاحة أمام الثقافات والسياسات لمقاومة الإرهاب وإرهاب الدولة».

دعيت لافتتاح المناقشة ، فبدأت -كما هو طبيعى وعادى فيما نرى هنا ونحس عندنا ولكنه قد يبدو غير قانونى أو غير متوقع هناك، عندهم -بالتفرقة بين «الإرهاب» والمقاومة المشروعة الضرورية والمعترف بها فى وجه الاحتلال والعدوان ، ثم بالتفرقة بين الإرهاب الفردى وإرهاب الدولة ،حاولت -وأظننى نجحت فى دحض تعريفات الإرهاب الشائعة فى الغرب، بل استخدمت تعريف قاموس أوكسفورد للإهاب لكى أبرز وأؤكد الحافز الأساسى له- سواء عند افراد أو جماعات أو دول خاصة إسرائيل والولايات المتحدة الأمريكية -وهو الحافز الذى يصدر عن إيديولوجيات التعصب والظلامية سواء كانت أصولية تتشح بالدين -أى دين -أو كانت فاشية الطابع سياسيا ،أى معادية فى كل الحالات لقيم

أساسية هى حرية الفكر والتعبير والعمل السياسى» قيم الديمقراطية والتكافؤ والعدالة ، أى معادية لمبدأ العالمية (لا العولمة) والمساواة فى الحقوق والواجبات.

هل كنت بحاجة إلى أن أقول:

إن أعمال المقاومة الوطنية المشروعة والمبررة فى وجه الاحتلال الأجنبى والعدوان والقهر -وقد اعترفت بها مؤسسات القانون الدولى والأمم المتحدة إلى آخره -لا يمكن ولا يصح أن نطلق عليها «أعمالاً إرهابية» كما تفعل حكومات تسعى إلى الهيمنة والسيطرة وعلى رأسها حكومة الولايات المتحدة وحلفائها وخاصة إسرائيل».

نعم، كان من الضرورى أن أؤكد هذه البديهية ، فى مثل ذلك المحفل ، وقد قوبل ذلك بالإقرار ولم يرتفع صوت واحد ضده ، على العكس كان ثم تعاطف واضح مع كفاح الشعب الفلسطينى وحقوقه الأولية المشروعة.

أكدت مرة أخرى ما ليس بحاجة للتأكيد وان كانت ثم حاجة -فى مثل تلك المحافل -لضرورة قوله مرة بعد مرة، أعنى أن مبدأ الشرعية الدولية واحترام القرارات الدولية مبدأ لا يمكن المساس به ، وأن أية إجراءات استثنائية تتخذها أية دولة- وعلى الأخص الولايات المتحدة الأمريكية وإسرائيل-بحجة الأمن القومى أو الدفاع عن النفس إرهاب دولة مرفوض ومدان على جميع المستويات.

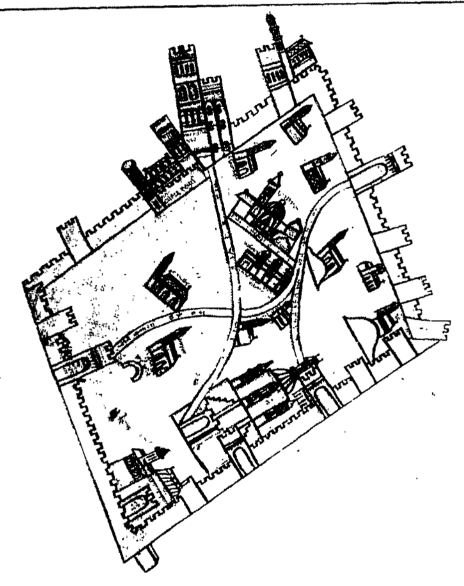
فى غضون كلمتى أشدت بالبيان الذى وقعه أكثر من ألفى مثقف ومفكر أمريكى تحت عنوان «ليس باسمنا» إذ أدانوا تقسيم العالم إلى» إما معنا وأما ضدنا» وإلى محورين : محور الشر ومحور الخير قلت إن ذلك تفوح منه رائحة التعصب البربرى فى القرون الوسطى وإن ذلك إنما يستخدم فقط لتعزيز الهيمنة السياسية والاقتصادية والعسكرية -وربما «الثقافية» أيضا- للولايات المتحدة الأمريكية.

مقاومة أشكال الإرهاب وخاصة إرهاب الدولة يتأتى بالاعتراف المتبادل للأنساق الثقافية المتنوعة لمبادئ العالمية والتكافؤ-الندية والعدالة. وما من خير يتأتى عن أن ثقافة ما تقيم علاقاتها وتفاعلها مع الثقافات الأخرى على أساس «التفوق» و«الاستعلاء» بل ما من مفر من الاتفاق على قيم ومعايير عادلة تحترم فيها الندية والتكافؤ .فما من ثقافة تتسيد أو تتفوق -بذاتها-على أخرى وعلينا أن نقاوم ، على نحو موضوعى ونزيه وعقلانى ، نزعة التمركز حول الذات وإدعاءات التفوق الجوهرى سواء كان ذلك من جانب الثقافة الأوربية أو الغربية أو من جانب أية ثقافات أخرى .ما من ثقافة هى وحدها مترادفة أو مقصورة على«الحضارة» فى المطلق ،الحضارة الإنسانية كل متنوع ومتناغم فى الوقت نفسه تندرج فيه مقومات ثقافات متعدّدة لكل منها حقه وإسهامه فيها ،كما تندرج فيها ما ورثته عن حضارات تاريخية أسهمت بدورها فى تكوين الحضارة الإنسانية السائدة الآن.

ذلك أساسا كانت أطروحتى للمسألة ، أطروحة ، بالطبع، تقبل المناقشة والحوار والتعميق والتفصيل.

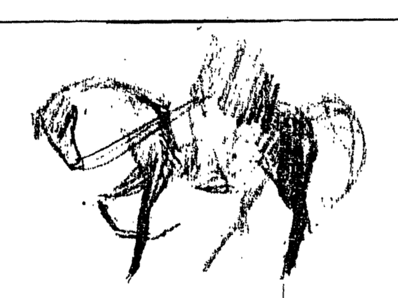
وهو بالضبط ما أتيح لنا- إن لم يكن على المنصة وفى الوقت المحدد الذى يضيق فى كل المؤتمرات والمحافل عن استيعاب النقاش المستفيض ، فقد كان ذلك فى أروقة مسرح البرلينر انسامبل وفى طرقات أرض المهرجان والخيمة التى أقيمت فى حديقته لاستقبال واستضافة المشاركين وعلى موائد الطعام حيث يحلو النقاش والشراب وأنس الصحبة.

يوم الجمعة ١٣ سبتمبر كان محدداً لإلقاء قصتى بالألمانية -بعد أن أقرأ منها نحو خمس أو عشر دقائق بالعربية- على جمهور من الألمان .



إن كان ثم مجال لذلك، وعلى خلاف ما يجرى عليه العرف أو ما يتفق مع العقلانية. فأنا أتفاءل بأيام الجمعة إذا جاءت يوم ١٣ فى الشهر!.

فى قاعة قريبة من مسرح بريخت العتيد -هى على الأدق إحدى القاعات الملحقة به-اجتمع عدد يزيد بكثير عما يتجمع فى «ندوات » القاهرة الثقافية ، وبدأت بياتى أورسولا اندرس بكلمة عن تصورها لعملى الروائى -كان إلى جانبى مترجم مستعرب كفء ، يهمس فى أذنى بما يقال بالألمانية -ثم تلت ذلك طقوس اللقاء : دقائق من القصة بالعربية الفصحى ثم إلقاء تمثيلى من الأستاذ هيرمان بيل ،وهو مخرج مرموق فى مسرح بريخت ، «برليز انسامبل» ، فإذا كان هذا الجمع قد أحسن الاستماع إلى قصة مصرية ، وأحسن مناقشة بعض ما أثارته القصة من تقنيات فى فن القص، ألا يمكن للقارئ العربى أن يقرأها هنا ، وله بالطبع أن يحسن قراءتها (وهو ما أتمناه أو أن يغفلها ، وأن يثير أسئلة تعن له عنها وهو ما اتطلع إليه) أو أن يعزف عن ذلك كله.



الفولكلور والنص المقدس

سيد إسماعيل ضيف الله

عندما كتب جيمس فريزر كتابه ذائع الصيت " الفلكلور فى العهد القديم " فى عام ١٩١٨ . كان يشعر بضرورة أن يعلن أنه لاياتى ببدعة عندما يطبق المنهج المقارن على الأدب العبرى القديم ، إذ سبقه إلى ذلك السبيل فى القرن ١٧ رجال دين أمثال القس الفرنسى صموئيل بوشار وكذلك " جون سبنسر " رئيس كلية " جسد المسيح **corpus christi** بجامعة كمبردج ، فضلا عن أستاذه المبجل " وليم روبرتسون سميث " بل إنه – وهو جيمس فريزر – كان ينصح نفسه قبل الآخرين بالإخلاص فى البحث والتهيب والتحفظ عند إعلان نتائج الأبحاث ، حتى أنه تمنى على قرائه أن يصححوا العبارات التقريرية التى لاتؤيدها الأدلة بالقدر الكافى (١)

كان " المنهج المقارن" وسيلة جيمس فريزر فى تعقبه لبعض معتقدات الإسرائيليين القدماء وأنماط سلوكهم الفكرية والعملية فى مرحلتهم البدائية ، منطلقا من اعتقاد راسخ لديه وهو" أن الطقوس بديلة للأسطورة والعكس صحيح ، فاذا ماعثر على أسطورة استطاع أن يحدس عن طريقها بالطقوس البديلة لها "٢

أما هدف جيمس فريزر فقد كان محددا ، إذ أراد أن ينفى أنثروبولوجيا وفلكلوريا عن بنى إسرائيل أنهم شعب الله المختار ، أو أنهم استثناء من التاريخ البشرى ، بل هو شعب تطور كبقية البشر من مرحلة بدائية يسودها الجهل والهمجية.

وفى ضوء وسيلة أو منهج فريزر وهدفه تحدد موضوع دراسته ، وهو تفسير المعتقدات البالية التى تنتمى إلى عصور بدائية والتى يحتفظ بها العهد القديم كأنها حفريات.

وهنا تبرز أهمية ملاحظة ألن ديندس **Alan Dunds** أستاذ الفلكلور والأنثربولوجيا بجامعة كاليفورنيا ، الذى يمثل حاليا إحدى المرجعيات

الأنثروبولوجية والفلكلورية على مستوى العالم ، حيث لاحظ أنه كان أمرا طبيعيا أن يقول فريزر بوجود نظائر فلكلورية لاتعد ولا تحصى فى العهد القديم لفلكلور الهمجيين والقرويين ، لكن الأمر غير الطبيعى من وجهة نظر ألن ديندس هو الحاح فريزر لإمكانية استثناء العهد الجديد من هذا القول .

وإذا حاولنا أن نخمن دوافع فريزر لهذا الاستثناء فربما لاتخرج عن احتمالين يكمل ويدعم احدهما الآخر:

١- أن هدف فريزر كان خلع قناع التميز الذى ارتداه بنو إسرائيل عبر التاريخ البشرى ومن ثم فحاجته تشبعها تماما مادة الجزء اليهودى (العهد القديم)

٢- أن انطلاق فريزر من المدرسة التطورية جعله يفرض تقسيماً مرحلياً على مفاهيم متداخلة ومتشابكة مثل السحر - الدين - العلم " ونظرا لتعصبه غير الخفى للجنس الأوربى فقد وضعه فى المرحلة الحضارية الثالثة وهى مرحلة العلم معتقداً أنه تجاوز مرحلتى السحر والدين.

وبذلك يكون فريزر قد خلع قناع التميز على الجنس البشرى عن بنى إسرائيل كاختيار إلهى ليلبسه للجنس الأوربى "الذى يراه فريزر " قد فاق بتطوره العلمى سائر الأجناس " ٣ هذا فضلا عما قد يتبادر إلى الذهن من احتمالات أخرى لها مشروعيتها كاحتمال أن يكون فريزر قد وظف المنهج المقارن لإزاحة الشوائب الأسطورية التى توارثها واعتقد فيها بنو إسرائيل ، عن صورة الرب ، إذ نجده فى أكثر من سياق وقد نجح فى تنزيه الرب عن صفات لاتليق . كالأنانية أو الزلة فى الذاكرة يفتخر بمنهجه المقارن مؤكدا أنه " دفاع قوى فى حق الرب ".

أما آخر احتمالات دوافع فريزر لاستثناء العهد الجديد من اشتماله على نظائر فلكلورية مثل العهد القديم (الجزء اليهودى) ، فربما يكون حرصه على مراعاة الظرف الاجتماعى والتاريخى اللذين سيطرح عليهما زفكاره ونتائج أبحاثه . وهو مايمكن أن نقرأه فى تعقيب رجل الدين والفلكلورى الرومانى موسيس جاشتر **Moses Gaster** على كتاب فريزر الفلكلور فى العهد القديم فى جريدة الفلكلور الإنجليزى فى ١٩١٩ ، وكان مؤيدا لفريزر ، إذ كانت تشتمل متابعته على المدح التالى: " إنه لشئ منعش ، أن نجد محاولة لأستاذ فى علم الفلكلور لأن يمد يده ويجلب الفلكلور إلى الإنجيل دون أن يجعل من الإنجيل فلكلورا "

أما ألن ديندس فله رأى مختلف تماما لأنه يشتغل على العهد الجديد ،، ليس استكمالا لنقص فى أبحاث فريزر وإنما اختلافا معه فى دوافعه وأهدافه واتفاقا معه فحسب فى المنهج المقارن . وألن ديندس لايسعى لتحديد حفريات فلكلورية تسربت إلى الإنجيل ، كما فعل فريزر مع العهد القديم ، لأنه ببساطة لايطرح على نفسه سؤال : هل الإنجيل فلكلور ؟ وإنما ينطلق من نقطة تالية لذلك السؤال ، إذ المقرر لديه أن الإنجيل فلكلور ، وبالتالى يكون شاغله الشاغل سؤال : كيف ؟

ومن ثم ، يطرح ألن ديندس فرضية بحثه فى شكل قياس منطقى على النحو التالى:

- الفلكلور متشعب ومتغير
- الإنجيل مخترق بهذا الحضور المتشعب والمتغير للفلكلور.
- الإنجيل فلكلور

***

هل قلت : فلكلور !

يبدو أنه ما زال أمرا حتميا على كل جيل من المشتغلين بالفلكلور أن يقدموا دفاعهم عن الفلكلور ، بل عليهم أن يجددوا دفاعهم لأنه يبدو أن الدفاعات السابقة عن الفلكلور سواء فى العالم العربى أو الغربى -وليس العالم عربيا وغربيا فقط- لم تحقق النجاح الكامل، إذ ما زال الفلكلور حبيس قفص الاتهام، أما التهمة الموجهة إليه فهى تهمة قديمة متجددة عابرة للقارات والثقافات ، يتحد تحت لوائها غالبا رجال

الدين والمثقفون وإن اختلفت صياغة كل فئة منها لنص الاتهام ، فرجال الدين يرون الفلكلور فى مجمله لهوا عن ذكر الله ، والمثقفون أو بالأحرى النخبويون يرونه من مخلفات الماضى التى تعوق النهضة أو التنمية ..إلخ وفى كل الحالات يقف الفلكلور متهما بأنه قرين الخطأ والمغالطة ، فيصدر الحكم غيابيا بالتعالى عليه لأنه«مجرد فلكلور» .وفى أحوال أخرى ينظر إليه على أنه أحد المنشطات التى تتقوى بها وزارات السياحة .وقد يلعب أحيانا دور« المرشد الأمين» الذى تستنطقه وزارات الداخلية أو الخارجية فى بعض البلدان. وفى كل الأحوال لم يخرج من قفص الاتهام إلا وقد حكم عليه بالازدراء والتسفيه أو التسخير وكأنه ينفذ حكما أبديا بالأعمال الشاقة!.

أما والحال هكذا ،فإن خير وسيلة للدفاع عن الفلكلور هى الكشف عن طبيعته الهجومية ، حيث يخترق كل ما يتوهمه البعض «فوق فلكلورى» بل يلعب فى جيناته الوراثية «فوق الفلكلورية»، ويصبح التساؤل حينئذ مشروعاً، ماذا يكونه الفلكلور وماذا لا يكونه؟!.

مبدئيا ، هناك صنفان من الفلكلور ، الصنف الأول تندرج تحته الأنواع ذات الجمل الحرة، أى التى تتغير كلماتها وتبقى الحبكة ثابتة مثل النكتة والأساطير .أما الصنف الثانى فيندرج تحت الأنواع ذات الجمل المقيدة أو الثابتة ، أى الثابتة فى اللفظ والمضمون مثل الأمثال والتشبيهات الفلكلورية . لكن كلا الصنفين فلكلور ، ودراسة الفلكلور تختلف عن دراسة الأدب مثلا ، فعادة ما يكون أمام الناقد الأدبى نص واحد فقط للقصيدة أو الرواية أو القصة القصيرة .

أما الفلكلورى فالطبيعى أن يكون أمامه أداءات متعددة وتحققات مختلفة لأسطورة واحدة أو نكتة أو حتى مثل واحد بل إن الفلكلورى يدرك تماما أمرين ،الأول أن هذا التعدد والاختلاف الحاصل بين هذه الأداءات وتلك التحققات ليس أمرا شاذا يتم بلا قياس بل هو الأمر الطبيعى . وثانيا فإن الفلكلورى يدرك تماما الإدراك أن هذا الاختلاف وذاك التعدد إنما هما بمثابة» شهادة جودة «للفلكلور».

ولكن ما علاقة ذلك بالانجيل ؟ سؤال مشروع تمام ، لأن كل أنواع الفلكلور سواء كان يتغير لفظها أو لا يتغير ، نعرف بداهة أنها تنتقل من جيل إلى جيل بالنقل الشفهى بينما الإنجيل وثيقة مكتوبة؟ وبالتالى تنتفى العلاقة وبالتالى تسقط أى تصورات عن إمكانية الاستفادة من التعرف على الطبيعة الاختلافية والتعددية للفلكلور فى فهم الإنجيل وحل بعض مشاكله العالقة.

لكن الحقيقة أن هذا السؤال ليس له إجابة واحدة، وإنما إجابتان ، وكل واحدة منهما تحدد نوعا معينا من العلاقة بين الانجيل والفلكلور ،فالإجابة الأولى أن الإنجيل فى الأصل تراث شفاهى ، ولا فرق بين العهد القديم والعهد الجديد فى ذلك.

أما الاجابة الثانية فهى أن النقل الشفاهى شائع لكنه ليس العامل الجوهرى فى تعريف الفلكلور ، فهناك فلكلور مكتوب مثلما هناك فلكلور شفاهى ، بل إن كلا من الفلكلور المكتوب والفلكلور الشفاهى يخضعان لنفس المعيار ، ألا وهو الاختلاف والتعدد . وإذا كانت أنواع الفلكلور الشفاهى معروفة فإن أنواع الفلكلور المكتوب كثيرة فى حياتنا ، لكن لا نتصور أنها فلكلور ونمر عليها مرور الكرام ومنها الأوتوجرافات المكتوبة أو الكتابة الساخرة أو الرسوم الساخرة سواء على الورق أو على الجدران سواء فى الشوارع أو فى غرف النوم ، وكذلك الاهداءات التى يكتبها التلاميذ فى المدارس أو الطلاب فى الجامعات على كتبهم الدراسية أو دفاتر الدروس والمحاضرات وأوضح ذلك ببعض الأمثلة:

١- للذكرى الهباب وأيام العذاب والزحف على التراب

حمدى عيده

متولى الصعيدى

محمد أبو المجد

مجدى أبو العلا

١١/ ٣/ ١٩٩٨

٢- الدنيا بسمة ودموع بسمة عند اللقاء ودموع عند الفراق

الدنيا نور ونار نور عند اللقاء ونار عند الفراق

منى محمد

سهام فاضل

بسمة خالد

٢٠٠١/٤/١٠

٣- إذا جلست على الشط وسمعت صوت البط فتذكرى صاحبة هذا الخط

رشا حمدى

٢٠٠١/٤/٢٥

٤- يا نعمة يا شربات يا علبة حلويات إوعى تنسى الذكريات وتقولى إللى فات مات .

إيمان على

٢٠٠١/٩/١

٥- أتمنى لكى ثلاثة أشياء

-تكونى قاعدة فى الزفة

-وشايلة ابنك فى اللفة

-وحماتك تجيلها هفة.

هبة محمود

٢٠٠١/٦/١٣

٦- ١+١ أجمع لكى السعادة

١-١ أطرح من عليكى الحزن

١×١ أضرب بيكى المثل الأعلى

١على ١ أقسم لكى أنى أحبك

رضا صابر

٢٠٠١/٣/١٦

أكتفى بهذه النماذج والتى حرصت على أن تكون من الفلكلور المصرى المكتوب والمتداول حتى اللحظة الراهنة ، ومن ناحية أخرى نلاحظ أن فى كل النماذج السابقة طبيعة فلكلورية متمثلة فى أنها متعددة بتعدد مستخدميها ومتغيرة سواء فى الأسماء التى توقع عليها أو ترتيب السطور أو حتى فى الأرقام والتواريخ المتعلقة بها فهى متكيفة مع كل استخدام وأداء لها.

إذن نحن مطالبون بتوسيع تصوراتنا عن الفلكلور التى تحصره فى الشفاهى خاصة إذا علمنا أن الفلكلور تجاوز الشفاهى بل وتجاوز المكتوب كذلك وفرض نفسه على الفاكس والبريد الالكترونى والإنترنت والأمثلة على ذلك كثيرة ،ويكفى أن تلاحظ لغة رسائلك الالكترونية أو الفاكسات أو الرسائل عبر المحمول أو حتى اللغة التى يتعامل بها معك الإنترنت عند البحث عن موضوع ما ولسوف تلاحظ الطبيعة الفلكلورية لكل ذلك، فالجملة، الواحدة متعددة بتعدد استخداماتها ومتغيرة فى آن فى جوانب معينة تسمح لها بالتكيف مع كل استخدام . هل هذا فلكلور الكترونى ؟ نعم!.

أمر أخر يتعلق بتصورنا عن علاقة «الفلكلور» بـ «التاريخ» ،إذ يخيل للبعض أن الفلكلور نقيض التاريخ على طول الخط وأنه قرين الخيال فى كل الأحوال ،والحقيقة أن الفلكلور بناء ، قواعده الخرسانية تاريخ ومعماره خيال ،ومن ضيق الأفق أن يحاصر بمنظومة الصحة والخطأ التاريخيين ،ومن البدهى أن ندرك أن القواعد الخرسانية ليست بناء فى حد ذاتها كما أنه لا يتصور تصميم داخلى لبناء معلق فى الهواء.

صورة الإنجيل والتحيز للكتابة

أنكر كثير من الباحثين مجرد إمكانية الحديث عن وجود علاقة بين الانجيل والفلكلور استنادا إلى تصور اختلاف طبيعة كل منهما ،فالفلكلور وفق تصورهم شفهى فقط والإنجيل وثيقة مكتوبة. لكن اتضح بعد التعرف على أن الفلكلور ليس شفهيا فقط وإنما هناك فلكلور مكتوب كذلك صعوبة إنكار العلاقة بين الإنجيل والفلكلور استنادا لهذا التصور وإلا الكشف ما هم فيه من تناقض، بل إنه لم يكن ثمة إدراك لطبيعة العنصر الشفهى نفسه فى الأنجيل بشكل تام، إذ ليس كافيا أن يشير البعض إلى أن الأنجيل كان تراثا شفهيا ثم كتب

، مفترضا أنه بمجرد أن كتب كف عن أن يكون فلكلوراً . وكأن التراث وفقا لـ(Knight.1952) كف عن أن يكون هـو ،إذ يستبعد من سياقه الطبيعي في الحياة ليدخل في التأليف المكتوب ويؤكد ألن ديندس خطأ هذا القياس ، فالأسطورة لا تتوقف عن أن تكون أسطورة بمجرد كتابتها ،فلماذا يفقد الإنجيل طبيعته الفلكلورية الأصلية بمجرد كتابته؟!.

ليس موضع شك أن الناس «حكت» لقرون قبل مجئ الأشكال المكتوبة للغة إلى الوجود وكانت المشافهة وحدها وسيلة النوع البشرى في الاتصال والتواصل في كافة مناحي الحياة والتي لا تستثنى منها الطقوس الدينية .لكننا غير قادرين على تصور مدى تماسك هذه الوسيلة «المشافهة» ومدى قدرتها على أداء هذا الدور الجليل بمفردها ، وذلك راجع إلى أننا في العصر الحديث «عصرنا» نعتمد إلى أبعد الحدود على الوسائل المساعدة «الكتابية» لدرجة جعلتنا نفشل في إدراك أن النوع الإنساني على الدوام له تاريخ جمعي يقتصر في الغالب على المعرفة المنقولة شفاها.

إن نظرة الباحثين لعصور سابقة من على أرضية عصرهم تتيح لهم فقط الفرصة للمغالطة. سواء كانوا منحازين لعصرهم أو منحازين ضد عصرهم ،فالحالتان سواء ، لأن النتيجة النهائية لتقيمهم أنهم لم يروا إلا عصرهم وأنهم قاموا بتحميل عصور غيرهم نتيجة نظرتهم هذه ، سلبا وإيجابا.

لقد مضى وقت طويل لكي ندرك أن هناك صلة بين الفلكلور والإنجيل استناد الحقيقة أن كلا من العهد القديم والعهد تم تناقلهما نقلا شفهيا قبل أن يتخذوا الشكل المكتوب . ويبدو أن أمام كثير من الباحثين مساحة من الوقت لكي يحددوا قوانين النقل الشفاهي والتي يراهن ألن ديندس على أنها سوف تفسر لنا ما الذي يحدث في الفلكلور بانتقاله من شخص إلى شخص ومن جيل إلى جيل ، ويراهن كذلك على أن معرفة قوانين النقل الشفهي سوف تحدد العناصر» الحقيقية في الإنجيل.

ألبرت لورد صاحب نظرية في التراث الشفوى ، واهتم كذلك بالعلاقة بين الأنجيل و«الأدب الشفوى» وقد كتب مقالا اعتبر فيه سيرة المسيح تراث أدب شفهي . لكن ألن ديندس أخذ عليه أنه قرب الإنجيل إلى الحكاية الشعبية حين قال «لو أن الكتب التي تحكى سيرة المسيحGospelsقصة ، وفق الشروط الشفهية لجاز لنا أن نطلق عليها حكايات شعبية (Brewer 1979:39) ،فالحكايات الشعبية ، وفقا لألن ديندس ،قصة معارضة للتاريخ أو للحقيقة . ورغم اختلاف المصطلحات الفلكلورية بين ألن ديندس ولورد يسعد ديندس بجملة لورد: «هذا يكفي ..إنه دليل يوضح أن الإنجيل وثيق الصلة بتراث الأدب الشفوى «والدليل عند لورد أن ازدواج النسخ وتعدد الأشكال ظاهرة خاصة بالتقليد الشفهي وقد عرفها الأنجيل . .

على الرغم من أن كثيرا من الدارسين لديهم إشارات عن الأصل الشفاهي لكل من العهد القديم والعهد الجديد قبل أن تتم كتابتهما ، إلا أنهم -وفقا لألن ديندس-لم يمضوا بإشاراتهم إلى نتائجها المنطقية واستبعدوا احتمال أن يكون الإنجيل تراثا شفهيا ، وذهبوا إلى اعتبار الإنجيل نصا دينيا أو أدبيا على نحو صرف ، وذلك لهيمنة اعتقاد على الأغلبية العظمى من دارسي الإنجيل بأن «التراث الشفاهي غير مؤكد ، وعادة ما يكون مثل سيارة معلومات متنقلة يمكن إفسادها «وأنه إذا ما اجتمع كل من التراث الشفاهي والكتابة فإنها القادرة على طرد التراث الشفاهي إنه تحيز كتابي له عديد من المظاهر ،منها مصطلح «الأدب الشفاهي» نفسه ، الذي يحمل بين حروفه قدرا عاليا من التناقض ، فالأدب قرين الكتابة، وسحبه من مجاله لاضفائه على ما هو شفاهي وإن كان بحسن نية ليس فيه تمجيد للشفاهي ، إنما التمجيد كل التمجيد للكتابة بجعلها وهي اللاحقة على

الشفاهي معيارا للحكم على السابق عليها باستعارة مصطلحاتها ، إنه تعال على المصطلح الأقرب إلى الطبيعة «الشفاهية» ألا وهو «الفلكلور» والإساءة في المصطلح تحتم الرساءة في التقييم فلا ينظر للفلكلور كما هو . وإنما كما ينبغي أن يكون وفق المعايير الأدبية وقصره لأن يتم تفسيره على أنه أدب ومكتوب .وقد استخدم ألن ديندس مصطلح الأدب الشفاهي إلى جانب مصطلح الفلكلور ليس تعاليا ، وإنما لأنه يوضح حقيقة الإنجيل فهو وثيقة مكتوبة بالفعل وهو وفقا له فولكلور.

أما المظهر الثاني للتحيز الكتابي فهو ما أسماه سولومون جاندز **Solomon Gandz**ب استسعار الكتابة **writing in-novation** حيث يتم تجاهل واقع التعايش بين الشفاهية والكتابية والتعاون بينهما وكأن الكتابة في «حالة» سعار تمنعها من إعلان احتياجها للشفاهية ، مثلما كانت الذاكرة بحاجة إليها لحفظ مخزونها وتوصيله لمن يقرأون ويكتبون، وذلك على الرغم من أن الحاجة الآن ماسة لأن تشفى الكتابة من سعارها وتعلن احتياجها للشفاهية ليتعلم من لا يقرأون ولا يكتبون لأسباب كثيرة .وقد أدرك بعض المبشرين جدوى تعليم الإنجيل شفاها . لكن هذا لم يدفعهم لتغيير اعتقادهم بأن الإنجيل كتاب أو كالمكتبة على حد تعبير إيفن سوزان نيدتش **Even Susan Niditch** ، وهذا هو المظهر الثالث للتحيز الكتابي فعلى مستوى الاشتقاق اللغوى نجد اشتقاق الإنجيل **Bible**من لفظ الكتاب **Book**ونعتقد أنها ظاهرة لغوية عابرة للغات تحقق تمييزا من الدرجة الأولى على كل ما غير كتابي ،حتى يتحقق له تمييز من الدرجة الثانية بأنه كتاب« الله» (**The God Book**) وبالتالي فهو كتاب مقدس **ScriptureWriting**، ودلالة كلمة المقدس إحدى الدلالات الجذرية لكلمة الكتابة **writing** .

هذه المظاهر للتحيز الكتابي تمنع ولا شك-وفقا لألن ديندس- دارسي الإنجيل من المخاطرة والمجازفة بالقول بالطبيعة الفلكلورية للإنجيل.

فلكلوريا ..الاختلاف نعمة

إن معظم دارسي الإنجيل الذين لاحظوا الاختلافات سواء في الاعداد أو الأسماء أو ترتيب الأحداث بين النسخ وبعضها البعض قد أهدروا أحبارهم تحت تأثير التحيز الكتابي في البحث عن هوية الأصوات أو المؤلفين سواء في العهد القديم أو في العهد الجديد ، وهذا البحث في حد ذاته مشروع لكن دارسي الإنجيل اندفعوا إليه معاداة للتقليد الشفهي حيث المؤلف في الغالب مجهول الهوية وتحيزا لتقليد الأدب المفضل لديهم لمعرفة هوية مؤلفه . وعلى هذا الزساس دارت عجلة المناقشات التي لم تتوقف حول: من كلن متى؟ من كان مرقس ؟ من كان لوقا ؟ من كان يوحنا؟ وكل ذلك بهدف تخمين كل منهم تاريخيا ، وتحديد درجة نصوصية كل منهم.

هناك نماذج كثيرة للاختلاف بين النسخ الأربع للأناجيل ، يضرب ألن ديندس مثالا للاختلاف في الأعداد بذلك الحدث الذي يروى فيه زيارة عدد من النساء للقبر الذي دفن فيه جسد المسيح، فوفقا لإنجيل يوحنا(٢٠:١).

وفي اليوم الأول من الأسبوع ، بكرت مريم المجدلية إلى قبر يسوع.

إذن لدينا في هذه الرواية امرأة واحدة تقوم بالزيارة، لكن وفقا لإنجيل متى(٢٨:١) وفي اليوم الأول من الأسبوع بعد انتهاء السبت ،ذهبت مريم المجدلية ومريم الأخرى تتفقدان القبر إذن لدينا في هذه الرواية امرأتان يقومان بالزيارة ،ومع ذلك فوفقا لإنجيل مرقس(١٦:١-٢).

ولما انتهى السبت ، اشترت مريم المجدلية ومريم أم يعقوب وسالومة طيوبا عطرية ليأتين ويدهنه.

وفي اليوم الأول من الأسبوع ، اتين إلى القبر باكرا جدا مع طلوع الشمس،

وبذلك يكون لدينا ثلاث نساء يقمن بالزيارة وأخيرا فوفقا لإنجيل لوقا(٢٤:١-٩-١٠).

ولكن فى اليوم الأول من الأسبوع باكر جدا إلى القبر حاملات الحنوط الذى هيأته .وإذا رجعن من القبر أخبرن الأحد عشر والآخرين كلهم بهذه الأمور جميعا وكانت اللواتى أخبرن الرسل بذلك هن مريم المجدلية ويونا ومريم أم يعقوب والأخريات اللواتى ذهبن معهن.

إذن لدينا أربع نساء أو أكثر يقمن بالزيارة، هذا فضلا عن الاختلافات فيما شاهده هذا العدد أو ذاك من النسوة من أعداد الرجال أو الملائكة حول القبر وهل كانوا فى حال جلوس أم وقوف ومتى كان ذلك..فى الليل أم مع طلوع الشمس؟.

ويضرب ديندس كذلك عديدا من الأمثلة الدالة على الاختلاف فى الأسماء ، نذكر منها المثال المتعلق بأسماء الإثنى عشر رسولا ، إذ يقارن بين قوائم هذه الأسماء فى الأناجيل ، ففى إنجيل متى ١٠:٢ ٤ نقرأ:

«وهذه أسماء الإثنى عشر رسولا : أولا سمعان الذى دعى بطرس ، وأندراوس أخوه ، ويعقوب بن زبدى ، ويوحنا أخوه ، فيلبس وبرثلماوس ، توما ومتى جابى الضرائب يعقوب بن خلفى ، وتداوس ، سمعان القانوى ويهوذا الاسخريوطى الذى خانه».

وهذه القائمة من الأسماء متشابهة مع قائمة مرقس لكنها غير متطابقة وبينهما اختلافات ففى، إنجيل مرقس ١٤:٣، ١٦-١٩ نقرأ:

«فعين اثنى عشر ، ليلازموه ويرسلهم ليبشروا ، والاثنا عشر الذين عينهم هم : سمعان وقد سماه بطرس ،ويعقوب بن زبدى، ويوحنا أخوه ، وقد سماه بوانرجس ، أى ابنى الرعد ، وانداروس ، فيلبس ، وبرثلماوس ومتى وتوما ، ويعقوب بن حلفى وتداوس ، وسمعان القانوى ، ويهوذا الاسخريوطى الذى خانه».

وكذلك ثمة اختلاف فى قائمة هذه الأسماء فى إنجيل لوقا(١٣:٦-١٦).

«وفى تلك الأيام ، خرج إلى الجبل ليصلى ، وقضى الليل كله فى الصلاة لله ولما طلع النهار ، استدعى تلاميذه ،واختار منهم اثنى عشر سماهم رسلا، وهم سمعان وقد سماه أيضا بطرس ،واندراوس أخوه ، يعقوب ، ويوحنا فيلبس وبرثلماوس ،متى ، وتوما يعقوب بن حلفى ،وسمعان المعروف بالغيور يهوذا أخو يعقوب ، ويهوذا الاسخريوطى الذى خانه فى ما بعد».

من الملاحظ فى قائمة الأسماء عند لوقا غياب اسم تداوس ،لكنها زادت على غيرها من القوائم السابقة اسم آخر ل« يهوذا » وهو يهوذا أخو يعقوب . فهل هذا مجرد خطأ بسيط ؟.

ولما وصلوا صعدوا إلى غرفة فى الطبقة العليا كانوا يقيمون فيها وهم: بطرس ، يوحنا ويعقوب وأندراوس وفيلبس وتوما وبرثلماوس ومتى ويعقوب بن خلفى ، وسمعان الغيور ويهوذا أخو يعقوب. «أعمال الرسل ١٣"١").

ويمكن أن نلحظ فى هذه القائمة غياب اسم «يهوذا الاسخريوطى» مما يعنى أن يهوذا أخو يعقوب ليس هو نفسه يهوذا الاسخريوطى وهذا ما يؤكده يوحنا(٢٢:١٤) إذ نقرأ:

«فسأله يهوذا (يسوع) ..غير الاسخريوطى».

وهذا يدل أيضا على أن أحد الحواريين كان اسمه يهوذا وانه لم يكن يتم الخلط بينه وبين يهوذا يبدو للمرء أنه أمام قائمتين من الأسماء غير متطابقتين ، القائمة الأولى يمثلها كل من متى ومرقس ويشتركان فى ذكرهما لاسم تداوس ، وفى عدم ذكرهما لاسم «يهوذا أخو يعقوب» أما القائمة الثانية فيمثلها كل من لوقا وأعمال الرسل ويشتركان فى ذكرهما لاسم يهوذا أخو يعقوب وفى عدم ذكرهما لاسم تداوس.

أسماء الأماكن ولعل أكثر الأمثلة دلالة فى هذا السياق هو الاختلاف فى اسم المكان الذى صعد منه يسوع إلى السماء ففى لوقا (٢٤:٥٠-٥١) نقرأ:

«ثم اقتادهم إلى خارج المدينة إلى بيت عنيا

ويباركهم رافعا يديه

وبينما كان يباركهم ، انفصل عنهم وأصعد إلى السماء».

لكننا نقرأ فى أعمال الرسل(١٢ . ١٩):

«قال هذا وارتفع إلى السماء بمشهد منهم ثم حجبته سحابة عن أنظارهم ..

ثم رجع الرسل إلى أورشليم من الجبل المعروف بجبل الزيتون ،

وهو بالقرب من أورشليم على مسافة يجوز قطعها يوم السبت».

الاختلاف حول اسم مكان صعود يسوع ،هل هو «بيت عنيا» ، أم «جبل الزيتون» بين لوقا أعمال الرسل يمكن أن يعنى ضمنا أن لوقا لم يكتب كل روايات الصعود لما بينها من الاختلاف .

ويضرب ألن ديندس العديد من الأمثلة الدالة على النوع الثالث من الاختلاف وهو الاختلاف فى ترتيب الأحداث وتسلسلها ،لكننا نكتفى بمثال واحد فقط وهو ما وقع من اختلاف فى التسلسل فى أحداث اغراءات إبليس للمسيح ،حيث يسعى إبليس لإغراء المسيح ثلاث مرات الأولى عندما طلب منه أن يحول الأحجار إلى خبز ، والثانية عندما طلب منه أن يقفز من فوق الهيكل العالى ليظهر إذا ما كانت الملائكة سوف تتلقفه أم لا؟ والاغراء الثالث عندما طلب منه أن يسجد له فيمنحه بعد ذلك جميع ممالك العالم. تلك هى الاغراءات لكن ما نظام ترتيبها وتسلسلها وما مدى أهميتها؟.

إن المقارنة بين الروايات الواردة فى كل من متى ولوقا يمكنها أن تجيب عن ذلك ، حيث نقرأ فى متى (٤: ١١).

«ثم صعد الروح بيسوع إلى البرية ليجرب من قبل إبليس ، وبعدما صام أربعين نهارا وأربعين ليلة جاع أخيرا فتقدم إليه المجرب وقال له : «إن كنت ابن الله فقل لهذه الحجارة أن تتحول إلى خبز ! فاجابه قائلا:«فقد كتب : ليس بالخبز وحده يحيا الإنسان بل بكلمة تخرج من فم الله! ثم أخذه إبليس إلى المدينة المقدسة وأوقفه على حافة سطح الهيكل لأنه قد كتب : يوصى ملائكته بك فيحملونك على أيديهم لا تصدم قدمك بحجر!. فقال له يسوع : وقد كتب أيضا : لا تجرب الرب إلهك ثم أخذه ابليس ايضا إلى قمة جبل عال جدا وأراه جميع ممالك العالم وعظمتها وقال له: أعطيك هذه كلها إن حثوت وسجدت لى فقال له يسوع: «اذهب يا شيطان ! فقد كتب: للرب إلهك تسجد وإياه وحده تعبد ! فتركة إبليس وإذا بعض الملائكة جاءوا إليه وأخذوا يخدمونه! لكننا نقرأ تسلسلا آخر لهذه الأحداث فى لوقا (٤:١٣)

«أما يسوع فعاد من الاردن ممتلئا من الروح القدس ،فاقتاده الروح فى البرية أربعين يوما ، وإبليس يجربه ، ولم يأكل شيئا طوال تلك الأيام، فلما تمت جاع فقال له إبليس : إن كنت ابن الله فقل لهذا الحجر أن يتحول إلى خبز» فرد عليه يسوع قائلا «قد كتب : ليس بالخبز وحده يحيا الإنسان ،بل بكل كلمة من الله!» ثم أصعده إبليس إلى جبل عال ، وأراه ممالك العالم كلها فى لحظة من الزمن وقال له: أعطيك السلطة على هذه الممالك كلها وما فيها من عظمة فإنها قد سلمت إلى وأنا أعطيها من أشاء فإن سجدت أمامى تصير كلها لك! فرد عليه يسوع قائلا: «قد كتب : للرب إلهك تسجد وإياه وحده تعبد! ثم اقتاده إبليس إلى أورشليم وأوقفه على حافة سطح الهيكل ،وقال له: «إن كنت ابن الله فاطرح نفسك من هنا إلى الأسفل فإنه قد كتب : يوصى ملائكته بك لكى يحفظوك فعلى إيديهم يحملونك لئلا نصدم قدمك بحجر «فرد عليه يسوع قائلا:« قد قيل» : لا تجرب الرب إلهك! «وبعدما انجز إبليس كل تجربة انصرف عن يسوع إلى حين»

تكشف المقارنة بين الروايتين عن اتفاقهما فى البدء بالاغراء الأول وهو طلب إبليس من المسيح أن يحول «الحجارة / الحجر» إلى خبز ، لكنه اتفاق ينطوى على اختلاف فى العدد ، فهل هو حجر بصيغة المفرد كما ذكر لوقا أم حجارة بصيغة الجمع وفقا ل« متى» كما

توضح المقارنة الاختلاف الرئيسي بين الروايتين وهو الاختلاف في ترتيب الأحداث ففي« متى» يسبق إغراء القفز من على الهيكل إغراء عرض السجود مقابل السلطة والسيادة على معالم العالم في حين ينعكس الترتيب في« لوقا» حيث يسبق إغراء عرض السيادة إغراء القفز من على الهيكل.

إن قارئي الإنجيل فضلا عن دارسيه من المؤكد أنهم يدينون الشيطان في محاولاته الإغرائية للمسيح ،لكن هل يدينون الاختلافات الكثيرة التي تصادفهم بين المرويات بعضها البعض أو في المروية الواحدة سواء كانت اختلافات في الأرقام أو أسماء الأشخاص أو أسماء الأماكن أو أختلافات في ترتيب الأحداث؟.

لاشك أن الاختلاف مدان من وجهة النظر التاريخية مع أن ما تنبغي إدانته حقا هو«النظارة الكتابية» التي يرى من خلالها دارسو الإنجيل.

الاختلاف مشكلة من وجهة النظر التاريخية ، لكنه أمر طبيعي تماما لدى المشتغلين بالفلكلور ، بل إن المشتغل بالفلكلور يصدم إذا لم يصادف اختلافاً في أربع نسخ لنفس الحكاية الخرافية على حد تعبير ألن ديندس ، وقد يحبط إذا كان الاختلاف دون المستوى ، ولذلك فمن الحماقة—فلكلوريا- أن نحاول التوفيق بين النسخ المتنوعة فكل نسخة سليمة ،كما أنه ليس هناك نسخة وحيدة هي الصحيحة . إنها نسخ خيارية فحسب . إن التصدي للتنوع لم ولن يجني أصحاب النظرة التاريخية الكتابية من ورائه سوى الشقاء أما عند المشتغل بالفلكلور فالتنوع والاختلاف نعمة ،وشئ ثمين لديه لأنه يشهد على فلكلورية الموضوع موضع السؤال.

كيف يتسرب الاختلاف؟.

يشير ألن ديندس لوجود تطابق بين النصوص في كل من العهدين القديم والجديد ، لكنه ليس التطابق الحرفي بين النصوص،ذلك التطابق الكتابي الذي رسخته المطبعة في أذهاننا .إن ما يعنيه ديندس بالتطابق بين نصوص الإنجيل هو ذلك التطابق الشفاهي ، والذي ينطوي حتما على الاختلاف نظرا لطبيعة النقل الشفاهي وآثارها الواضحة على النصوص . تلك الآثار التي لامسنا بعضا منها فيما سبق ومن المؤكد أنه لن تجدي محاولات البحث عن الأصل في حالات التطابق الشفاهي ، فمن نقل عن من؟ سؤال لا ينبغي طرحه في إطار التراث الشفاهي . ويضرب ديندس عددا من الأمثلة الدالة على أن التطابق الشفاهي ينجب اختلافا ونختار منها ذلك المثال الذي يعرض لروايتي متى ولوقا للموعظة على الجبل / السهل؟!

نقرأ في متى (٥:١-١٢)

«وإذا رأى جموع الناس صعد إلى الجبل.

وما إن جلس ،حتى اقترب إليه تلاميذه ، فتكلم وأخذ يعلمهم

فقال : طوبى للمساكين بالروح فإن لهم ملكوت السماوات.

طوبى للحزانى فإنهم سيعزون طوبى للودعاء ،فإنهم سيرثون الأرض.

طوبى للجياع والعطاش لإلى البر ،فإنهم سيشبعون ، طوبى للرحماء

فإنهم سيرحمون ، طوبى لأنقياء القلب ،فإنهم سيرون الله

طوبى لصانعي السلام فإنهم سيدعون «أبناء الله»

طوبى للمضطهدين من أجل البر، فإن لهم ملكوت السماوات»

طوبى لكم متى أهانكم الناس واضطهدوكم وقالوا فيكم

من أجلي كل سوء كاذبين ،افرحوا وتهللوا

فإن مكافاتكم في السماوات عظيمة

فإنهم هكذا اضطهدوا الأنبياء من قبلكم!.

ونقرأ في لوقا (٦: ١٧، ٢٠-٢٣):

«ثم نزل معهم ، ووقف في مكان سهل ...

ثم رفع عينيه إلى تلاميذه وقال :«طوبى لكم أيها المساكين

فإن لكم ملكوت الله ! طوبى لكم أيها الجائعون الآن.

فإنكم سوف تشبعون .طوبى لكم أيها الباكون الآن

فإنكم سوف تضحكون .طوبى لكم متى أبغضكم الناس

وعزلوكم وأهانوا اسمكم ونبذوه كأنه شرير من أجل ابن الإنسان .افرحوا في ذلك اليوم وتهللوا ،.

فها إن مكافأتكم في السماء عظيمة :لأنه هكذا عامل آباؤهم الأنبياء».

واضح أنهما موعظتان مختلفتان وليستا موعظة واحدة إذا ما وضعنا كليهما نفس موضع الاعتبار دون تمييز إحداهما بأنها الأسبق ،فالموعظة الأولى هي« موعظة على الجبل» وفقا لما رواه متى فيسوع «صعد إلىالجبل» بينما الموعظة الثانية هي«موعظة في السهل» وفقا لما رواه لوقا ،فيسوع «نزل معهم ، ووقف في مكان سهل» أيضا هناك اختلاف في المضمون الذي تشتمل عليه كل موعظة منهما حيث لم تظهر «طوبى للودعاء» في نسخة لوقا وهي موجودة في موعظة «متى» بينما يظهر في موعظة لوقا« طوبى لكم أيها الباكون» والتي لا تظهر في موعظة ««متى» من المهم أن نشير إلى أنه كان هناك موعظة «أصلية» كانت تشتمل على كل ما في الموعظتين الحاليتين «متى ولوقا» من عناصر لكن الأهم من ذلك التذكير بأن كل العناصر لا تظهر مجتمعة في أي من روايتي« متى » «أو لوقا» للموعظة .ويلحظ ديندس كذلك أن ثمة اختلافات في الصياغة تؤدي إلى اختلاف في المعنى ، فعلى سبيل المثال في لوقا (٦:٢٠) نجد:«طوبى لكم أيها المساكين فإن لكم ملكوت الله» وفي المقابل نجد في متى (٥:٣) «طوبى للمساكين بالروح فإن لهم ملكوت السماوات» «من المؤكد أن الأختلاف في الصياغة بين(المساكين /المساكين بالروح والتواضع) يفتح المجال لاختلاف المعنى المراد في الموعظة ،فليس كل المساكين على العموم يعانون من الجدب الروحي ،وليس بالضرورة أن يكون المساكين بالروح مساكين في العموم ، فمن يكون لهم ملكوت الله؟.

ويظهر الاختلاف في جمل لا نتصور في البداية إمكانية أن تكون عرضة للاختلاف والتعدد لكونها غدت ثابتة في أذهاننا على صورة معينة من كثرة استخداماتنا اليومية لها لنحسم بها أمور حياتية خلافية بيننا فهذه الجمل الثابتة نستخدمها لتنهي الخلافات بيننا فكيف نتصور أن تكون هي ذاتها موضع خلاف ؟ من هذه الجمل التشبيهات الثابتة والأمثال المتواترة ،فالتعبير الذائع الصيت في كل الثقافات الإنسانية «ملح الأرض» نجد له ثلاث نسخ متطابقة لكنه ليس التطابق الحرفي .إذ نجد متى بعد أن يروي «الموعظة على الجبل» مباشرة يكتب:

«أنت ملح الأرض . فإذا فسد الملح ،فماذا يعيد إليه ملوحته؟.

إنه لا يعود يصلح لشئ إلا لأن يطرح خارجا لتدوسه الناس» .

ورغم أن مرقس لم يرو «الموعظة على الجبل» «إلا أنه يستخدم نفس العبارة:

«الملح جيد، ولكن إذا فقد الملح ملوحته ،فبماذا تعيدون إليه طعمه ؟.

فليكن لكم ملح في أنفسكم ،كونوا مسالمين بعضكم لبعض !! (مرقس ٩:٥٠)

بينما نجد لوقا الذي ذكر «الموعظة في السهل» لا يعقبها بهذه العبارة وإنما تأتي تلك العبارة في مكان آخر(لوقا ١٤: ٣٤-٣٥):

«إنما الملح جيد . ولكن إذا فقد الملح طعمه ،فبماذا تعاد إليه ملوحته؟.

إنه لا يصلح لا للتربة ولا للسماد فيطرح خارجا».

يلاحظ ديندس أن أجزاء العبارة موزعة على النسخ الثلاث فرواية لوقا تشترك مع رواية مرقس في« الملح جيد» و«فبماذا تعيدون إليه طعمه /ملوحته؟.

لكن نسخة لوقا تشترك مع نسخة متى في أجزاء أخرى من العبارة «فإذا فسد الملح/ لا يصلح لتربة ولا للسماد «فيطرح خارجا» ويعلق ديندس على هذا

الشكل لتوزيع أجزاء العبارة الواحدة على عدد من النسخ المتطابقة فى التراث الشفاهى بأن هذا أمر شائع حدوثه فى الفلكلور .أما التعبير ذائع الصيت «ملح الأرض» فهو تعبير لم يذكره سوى» متى» ،أى لم يكن له نفس تصيب بقية أجزاء العبارة من التداول والحضور فى أكثر من نسخة.

وتزداد فكرة ديندس حول تسرب الاختلاف إلى الجمل الثابتة والشائعة ليتكشف لنا أنها ذات أشكال متعددة عندما نتذكر ذلك الأسلوب الشرطى الشائع فى أغراض التعجب: «من له أذن فليسمع» هل يمكن أن يكون لهذا الأسلوب القصير الدقيق سوى شكله هذا؟.

-«ومن له أذنان فليسمع»! (متى ١٣:٩).

-من «له أذنان فليسمع!(مرقس ٤٠ :٢٣)-

-من «له أذنان للسمع فليسمع!(لوقا ٨:٨ و١٤ :٣٥)).

-من «له أذنان فليسمع! ما يقوله الروح للكنائيس (٢:٧ر٢:١١ر٢ :١٧ ر٣ :٦. ٣ :١٣ . ٣:٢٢).

يعرف الفلكلوريون جيدا أن الأغانى الشعبية غالبا ما تشتمل على مقاطع غنائية تشبه الطيور المهاجرة حيث تطير بحرية من أغنية لأغنية ، وأيضا هناك موتيفات سردية تطير بحرية من حكاية شعبية لأخرى ولا يحدث ذلك من باب أنه مجرد استثناء بل هو القاعدة التى تحكم حركة الفلكلور فى طيرانه . وهناك أمثلة كثيرة فى الإنجيل تنطبق عليها نفس القاعدة فالمزمور يشتمل على ١٣ آية ،والآيات الخمس الأولى هى نفسها الآيات الخمس الأخيرة فى المزمور ٥٧ > أى أن، بلغة الرياضيات.

المزمور ١٠٨ : ١-٥ = المزمور ٥٧:٦-١١ .

بل إن الآيات الثمانى الأخيرة من المزمور ١٠٨ هى نفسها الآيات الثمانى الأخيرة فى المزمور ٦٠ ، أى أن:

المزمور٦ ١٠٨ -١٣ = المزموره ٦٠ : -١٢ .

الوصايا العشر اثنتا عشرة

هل الوصايا هى حقيقة عشر؟ حقا هناك تحديد شائع للوصايا بأنها الوصايا العشر لكن إذا عد أى شخص هذه الوصايا فى نسخة سفر الخروج ،والاصحاح العشرين فسوف يجد إحدى عشرة وصية:

١- لا يكن لك آلهة أخرى أمامى

٢- لا تصنع لك تمثالا منحوتا

٣- لا تسجد لهن ولا تعبدهن

٤- لا تنطق باسم الرب إلهك باطلا

٥-أذكر يوم السبت لتقدسه

٦- أكرم أباك وأمك

٧-لا تقتل

٨- لا تزن

٩- لا تسرق

١٠- لا تشهد على قريبك شهادة زور

١١- لا تشته بيت قريبك

هذه الوصايا الإحدى عشر لا تشمل الصيغة الاستهلالية لشكل الوصايا وهى عبارة «أنا الرب إلهك» والتى لو كنا نعدها بحد ذاتها وصية لصارت الوصايا اثنتى عشرة وليست عشر فقط .خاصة انه عندما سئل يسوع «أية وصية هى أولى الوصايا جميعا؟ كانت إجابته«الرب إلهنا رب واحد» (مرقس ١٢: ٢٨-٢٩).

هناك أيضا اختلاف بين النسخ / الروايات حول القانون الموسوى الشهير -نسبة إلى موسى -ففى (الخروج ٢١: ٢٣-٢٥).

«وإن حصلت أذية تعطى نفسا بنفس وعينا بعين وسنا بسن ويدا بيد ورجلا برجل» أما فى «اللاويين» (١٧:٢٤-٢٠).

«وإذا أمات أحد إنسانا فإنه يقتل

ومن أمات بهيمة يعوض عنها نفسا بنفس

وإذا حدث إنسان فى قريبه عيبا فكما فعل كذلك يفعل به

كسر بكسر وعين بعين وسن بسن

كما أحدث عيبا فى الإنسان كذلك يحدث فيه».

أما فى سفر التثنية(١٩:٢١)

«لا تشـفق عـينك . نفس بنفس . عين بعين . سن بسن .يد بيد . رجل برجل».

القانون فإنه ما اقتبسه لا يتوافق مع أى من النسخ الثلاث لسبب بسيط أن متى لم يعنه كثيرا أن يشير لأى نسـخـة من النسخ الثـلاث . بل نلاحظ أن مـتى قـال : «وسمعتم أنه قيل» ولم يقل «ورأيتم أنه كتب» مما يعنى أنه ربما كان يشير للتقليد الشفاهى ،خاصة أن هذا القانون كـان جـزءا من قـانون شـعـبى ، إنه جـزء من الفلكلور.

ولا يقـتصـر الاخـتـلاف فـى الوصـايا العـشـر على الاخـتـلاف فى عـددها أو الاخـتـلاف فى مضـمـونها بين النسخ الثـلاث واقـتـبـاس مـتى لهـا ، وإنما يثـار حـولها سـؤال له وجاهـتـه ،وهو كيف تم نقل الوصـايا ، هل الله أبلغـها شـفـاها أم كـتـابة؟ هل كـانت صـورتها الكـتـابيـة الأولى من فعل موسى أم من فعل الله نفسه؟.

ترد معظم الاجابات إلينا من سفر الخروج ،فوفقا لسفر الخروج(١.٢٠)

«ثم تكلم الله بجميع هذه الكلمات قائلا:

مما يدفعنا للاعتقاد فى أن أول ظهور للوصايا كان فى شكلها الشفاهى ويدعم ذلك الاعتقاد ما جاء بعد ذلك فى نفس السفر وفى نفس الإصحاح وقبيل ذكر الوصايا

« فـقـال الرب لموسى هكذا تقول لبنى إسرائيل أنتم رأيتم أننى من السماء تكلمت معكم» (الخروج ٢٢:٢٠)

إذن الصورة الأولى للوصايا شفاهية ، ثم كتبت لكن كيف؟.

«فكتب موسى جميع أقوال الرب» (الخروج ٤:٢٤)

لكن فى نفس الإصحاح نجد.

«وقال الرب لموسى أصعد الجبل وكن هناك

فـاعطيك لوحـى الحجـارة والشريعة والوصـيـة التى كتبتها (الخروج ٢٤ :١٢)

المؤكـد أن مـوسى عـاد من مـقـابلة الرب وفى يده الوصـايا للناس ،وهناك أكـثـر من نص يؤكـد على دور الرب فى تسجيل هذه الوصايا بنفسه:

«فـانصرف موسى ونزل من الجبل ولوحا الشهادة فى يده لوحـان مكتـوبان على جانبـيـهـما ،من هنا ومن هنا كانا مكتـوبين ،واللوحـان هـما صنعة الله والكتـابة كتابة الله منقوشة على اللوحين (الخروج ٣٢:١٥-١٦).

لكن عندما عاد موسى ووجد أهله يعبدون العجل غضب وحطم ما معه من الألواح

«وكان عندما اقـترب إلى المحلة أنه أبصر العـجل والرقص ،فحمى غضب موسى وطرح اللوحين من يديه وكسـرهـمـا فى أسفل الجبل . ثم أخذ العـجل الذى صنعوا وأحرقه بالنار وطحنه حتى صار ناعما وذراه على وجه الماء وسقى بنى إسرائيل»(الخروج ٣٢:١٩).

وهذا يعنى أن الله عليه أن يكتب الوصـايا للمرة الثانية على مجموعة أخرى من الألواح :

«ثم قـال الرب لموسى انحت لك لوحين من حـجـر مثل الأولين

فاكتب أنا على اللوحين الكلمات التى كانت على اللوحين الأولين اللذين كسرتهما (الخروج ٣٤:١)

ربما كـثـرة الأمثلة الدالة على أن كـتب الوصـايا بنفسه يدفع لغض الطرف عن تلك العبـارة الواردة فى سفر الخروج نفسه والمستشهد بها أعلاه:

«فكتب موسى جميع أقوال الرب»

لكن المشكلة أن ثمـة نصـوصـا أخـرى تقدم رواية مختلفة للحدث نفسه وترد كذلك فى سفر الخروج:

«وقـال الرب لموسى أكتب لنفسك هذه الكلمات . لأننى فـحـسب هـذه الكلمـات . قطعت عـهـدا معك ومع إسـرائيل .وكـان هناك عند الرب أربعـين نهـارا وأربعين ليلة لم يأكل خبـزا ولم يشـرب مـاء فكتب على اللوحين كلمات العهد الكلمات العشر» (الخروج ٣٤:٢٧-٢٨).

فى هذا النص نجـد مـوسى ليس فـقط كـاتب «الوصـايا العـشـر» وإنما مـأمـور من الله بأن يكتب الوصايا.

ويخلص ديندس للتـأكيد على أن سـواء كان الله هو كاتب الوصـايا أو كان موسى هو كاتبها فـهذا أمر قد

يحلو لأصحاب الرؤية التاريخية واللاهوتيين أن يسعوا لإثباته أو نفيه ، لكنه لا يجذب الفلكلوريين للدخول فى حلبة الإثبات والنفى ، لأنهم يرونهم فى هذا الاختلاف /التطابق الشفاهى دمغة الأصالة الفلكلورية.

أبانا الذى فى السماوات

تسرب الاختلاف إلى النصوص الرئيسية كما رأينا فى الوصايا العشر ولم يكن مقصراً على النصوص الثانوية / القصصية فى طبيعتها .وهو ما يلاحظه ديندس فى« الصلاة الربانية»أيضا حيث يورد الصلاة الوبانية فى استخدامها الشفاهى الأنجلو -أمريكى فى الوقت الحاضر ، أى كما يقولها الناس الآن:

أبانا الذى فى السماوات ليتقدس اسمك

ليأت ملكوتك ! لتكن مشيئتك على الأرض

كما هى فى السماء ،خبزنا كفافنا أعطنا اليوم!

وأغفر لنا ذنوبنا كما نغفر نحن للمذنبين إلينا!

ولا تدخلنا فى تجربة ، لكن نجنا من الشرير!

ويقارن ديندس بين الصورة الشفاهية النهائية للصلة الربانية وبين صورها فى أناجيل متى ولوقا ومرقس:

«فصلوا أنتم مثل هذه الصلاة : أبانا الذى فى السماوات ،ليتقدس اسمك!

ليأت ملكوتك ! لتكن مشيئتك على الأرض كم هى فى السماء!.

خبزنا كفافنا أعطنا اليوم! وأغفر لنا ذنوبنا كما نغفر نحن للمذنبين إلينا إلينا! ولا تدخلنا فى تجربة لكن نجنا من الشرير

«فإن غفرتم للناس زلاتهم يغفر لكم أبوكم السماوى زلاتكم

- وإن لم تغفروا للناس ، لا يغفر لكم أبوكم السماء زلاتكم(متى ٦:٩-١٥).

وفى لوقا (١١:٢-٤)

فقال لهم: «عندما تصلون قولوا : أبانا (الذى فى السماوات)

ليتقدس اسمك ليأت ملكوتك (لتكن مشيئتك كما فى السماء كذلك على الأرض)

خبزنا كفافنا أعطنا كل يوم . واغفر لنا خطايانا.

لأننا نحن أيضا نغفر لكل من يذنب إلينا

ولا تدخلنا فى تجربة (لكن نجنا من الشرير!)

واضح أن ثمة اختلافا بين متى ولوقا فى ترتيب أيهما الأسبق السماء أم الأرض (لتكن مشيئتك على الأرض كما فى السماء) (لتكن مشيئتك كما فى السماء كذلك على الأرض).

أما فى نسخة مرقس(١١:٢٤-٢٦).

- «لهذا السبب أقول لكم : إن ما تطلبونه وتصلون لأجله فآمنوا أنكم قد نلتموه فيتم لكم، ومتى وقفتم تصلون وكان لكم على أحد شئ، فاغفروا له لكى يغفر لكم أبوكم الذى فى السماوات زلاتكم أيضا. ولكن إن لم تغفروا لا يغفر لكم أبوكم الذى فى السماوات زلاتكم.

يعلق ديندس على نسخة مرقس بأنها فى أحسن الأحوال متكسرة ومتشظية ، وهى مجرد صدى ضعيف لبقية النصوص .لكن ربما يفاجأ القارئ بأن الصورة الشفاهية المستخدمة والشائعة للصلاة الربانية لا تتطابق تطابقا حرفيا مع أى نسخة فى الإنجيل وهذا ما يعتبره ديندس بمثابة حكم أصدره التقليد الشفاهى بتفوقه على النص المكتوب.

دراســــة



العالم .. المصادفة والنقد الجدلى (١)

سامح الموجى

قد لايهدف هذا المخطوط فى إستنتاجاته النهائية أن يحتفى بشكل كرنفالى بالأستاذ الكبير محمود أمين العالم فى ميلاده الثمانين فيأخذ طابعاً تاريخياً أو بيلوجرافياً عن فتى الدرب الأحمر « ليس هو الذى جعله أحمر بالطبع » (١) ومسيرته الحياتية فى عوالم السياسة ، والشعر ، والفلسفة ، وسرد أعماله ومواقفه النضالية ، والفكرية بشكل إعلامى .

ولكن أقصى ماتسعى إليه هذه السطور أن ترصد التجربة العامة ، وتجليات الرؤية الكلية لهذه التجربة ، والإطلاع على خط بيانها النهائى ، وسمات الدور الذى لعبه الأستاذ الكبير « وهو لقب شطرنجى » (٢) أمين العالم على رقعة الإبداع الإنسانى ، وأهم مهاراته الفكرية التى أثرت فى تحولات الفكر العربى المعاصر وتطوراته النقدية فى صراعيته وتفاعلاته مع آخر التشكيلات الرأسمالية الراهنة.

فالتجربة الإنسانية للأستاذ العالم فى حد ذاتها شئ يستهوينى ، ورصد التداعيات ، والمنحنيات والتحولات التى طرأت عليها هو مايثير شهوتى البحثية ، فدسامة التجربة وخصوبتها ، وكثافة قوامها التاريخى شئ لايقاوم ، ولاسيما لكونها شاهدة على عصر كامل من الأحداث ، معاصرة لجيل الرواد الذى رسم ملامح الثقافة العربية فى القرن العشرين بكل تنوعها المنهجى ، وتعدد سماتها الأيديولوجية من سلامة موسى ، ولويس عوض مروراً بطه حسين والعقاد إلى عبد الرحمن بدوى وزكى نجيب محمود.

فهذا التنوع والتعدد هو ما أثرى التجربة وأكسبها خصوبة وغنى بفاعلية فى تطور خط بيانها العام ،

واتساق نتائجها مع مواقفها الفعلية فجاءت تحولاتها انعكاساً لصراعية هذا التنوع والتعدد الأيديولوجى ، وجدليته مع واقع اللحظة التاريخية وأدائها الموضوعى.

من هنا تتحدد مهمة هذا المخطوط فى رصد المواقف التى اتخذتها هذه التجربة الإنسانية ، والتعامل النقدى معها كمنتج إنسانى موضوعى فى ضوء تشكيله الاجتماعى ، وظرفيته التاريخية.

.. من الماجستير إلى " الكريملين "!!!

(هكذا تكلم زرادشت) .. كان هذا هو عنوان الكتاب الذى وقع فى يد الفتى محمود أمين العالم طالب الثانوى ، حيث وجده فى مكتبة أخيه محمد فالمؤلف ليس غريباً عنه فقد تعرف عليه من خلال أستاذه بالمدرسة (دانييل) إنه " نيتشه" الذى سلب عقل الفتى محمود وأدهشه بقدراته السوبرمانية وأهداه جناحين وسيفا خشبيا ليحلق فى سماء الميتافيزيقا رافعاً راية المثالية بعيداً عن هذه الأرض المادية التى لاتليق بالإنسان ، ذابحاً بسيفه نظريات العلم المادية قرباناً لمعبد الأب " هيجل"

" كنت أحلم بمغامرة فكرية أتوخى بها حقائق العلم الصلبة ! كنت أرى فى العالم المادى حولى مجرد نسيج وهمى صنعته تصوراتنا الإنسانية . كنت ميتافيزيقياً متطرفاً ، يتحرك بارادة نيتشه ويتعرف بحدس برجسون ويسخر من العلم وموضوعيته بكلمات أدنجتون وجينز (...) وانطلقت بفرس أشواطاً حتى بلغت من تاريخ الفكر أواخر القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين، وأستعد لملاقاة المنجزات العلمية الجبارة فى بداية القرن العشرين بسيف ميتافزيقى ما كان أشد غروره وتعاليه "(٣)

هكذا يصف محمود أمين العالم نفسه فى بدايات تجربته الفكرية ، مثالياً حتى العظم يرى الإنسان والعالم من خلال هيجل ويطنطن بفلسفات بيرجسون وماخ المثالية ، ويدخل قسم الفلسفة من أجل وجودية عبد الرحمن بدوى ، وبدأت تنتابه فى هذه المرحلة حالات من الهياج الهيجلى – على حد تعبيره – مما أسفرت فى النهاية عن تبنيه لمفهوم الضرورة – مما يعكس مبدئياً توجه التجربة وجهة علمية وبحثية فارقة – الضرورة فى العلوم الطبيعية والإنسانية ، مستهدفاً تقويض دعائم العلم المادى والتأكيد على الأساس الذاتى والمثالى للضرورة فى الطبيعة الفيزيائية داحضاً أى أسس موضوعية أو مادية ، مستعيناً بسلاح اللامعقول الذى يراه الحقيقة الوحيدة والثابتة فى العالم.

وبدأ من هنا رحلة الماجستير والعمل البحثى والأكاديمى والتنقل بين عقول الفلاسفة والمفكرين على مدار ثلاث سنوات للتأكيد على مصادفة العالم والانسان حتى أتى ماليس فى الحسبان وبدأ الفعل فى خلق نقيضه الموضوعى مما أسفر عن محصلة جدلية داخل معادلات التجربة وظهور عناصر جديدة أقلقت المستقر الميتافزيقى والمثالى الثابت ، فألغى أمين العالم كل مواعيده مع نيتشه وتخلف عن قداس هيجل الأسبوعى ، بعد ما التقى (مصادفة) وعلى غير موعد مع (المادية والنقد التجريبى) فهذا هو عنوان أحد أهم مؤلفات فلاديمير إيليتش إيلانوف " لينين" زعيم الإشتراكية ومفكرها الكبير ، وهو كتاب يتصدى فى محتواه لمزاعم الفلاسفة المثاليين ويفندها بالنقد والتحليل . « وقفت فى تعال لا حد له ، لأجهز بسيفى الميتافزيقى على هذا الكتاب العارض ، الذى التقيت به ثم أواصل الرحلة إلى هدفى الأكبر ، تقويض العلم الموضوعى ، وقفت عند كتاب لينين ، ثم طالت وقفتى عنده ، ثم توقفت عن الرحلة نهائياً كلها . نزلت عن فرسى الجامح وسقط منى سيفى

المغرور " (٤)

لقد خلع لينين عن أمين العالم رداءه الهيجلي النيتشوى ، ومزق جناحيه وأنزله من الهواء وثبت أقدامه على أرض الواقع المادى ، ولقنه فى حزم ثورى أول دروس السير فى طرقات الأرض الوعرة وبين زحام الجماهير الغفيرة حتى يرى ذاته ويعرف من هو الإنسان.

إن هذا التحول العنيف الذى طرأ على التجربة الفكرية والإنسانية لأمين العالم إنما يعكس فى محتواه الموضوعى مدى التفاعل الجدلى الحار وتصاعد معدلات الصراع الفكرى بين التأويل المثالى للتاريخ والانسان وبين اتجاهات النقد التجريبى والمادية الجدلية وتعاملها مع التجربة الإنسانية كمنتج تاريخى وموضوعى ، فكان كتاب " لينين " بمثابة إعصار جامح أطاح بقصر المثالية الذى ظل الأستاذ العالم يشيده على مدار ثلاث سنوات من التحضير للماجستير كما حول هذا الإعصار شراع سفينة البحث إلى أرض جديدة وميادين بحثية جديدة " تغير البحث من نظرية المصادفة فى الفيزياء المعاصرة إلى نظرية المصادفة الموضوعية وبدأت أدافع عن الأساس الموضوعى للمصادفة واكتشاف الأساس العلمى والموضوعى لكل شئ فى العالم والسياسة والمجتمع والأدب (....) وأنهيت رسالتى للماجستير باتجاه التاكيد على أن العلم قائم على أساس موضوعى وأن المصادفة هى تركيب من ضرورات "(...) (٥) " كنت مقدراً أعواماً ثلاثة انتهى فيها من بحثى عن المصادفة وتحقيق مهمتى الفكرية والتاريخية ، وبدلاً من هذه الأعوام الثلاثة ، رحت أواصل سبعة أعوام ، أراجع فيها رحلتى من جديد ، أراجع بحثى من جديد وأراجع فكرى وحياتى ثم أخلص فى النهاية إلى ماينافض بداية الرحلة ، أخلص إلى إيمان جديد بموضوعية العلم والعالم ، ثم أمتد بايمانى هذا إلى الحياة الإنسانية نفسها (٦)"

من هنا تحديداً – عزيزى القارئ – وفى هذا المنحنى العميق لخط بيان التجربة الفكرية والإنسانية للأستاذ أمين العالم أؤسس ثلاثة مواقف رئيسية تشكل هيكل هذا المخطوط فى مناقشته لهذه التجربة ، وهذا الموقف الإنسانى ، وخاصة عند هذه النقطة المتحولة فى النسق الفكرى والمنهجى للأستاذ العالم وبزوغ النقيض فى محصلاته النهائية مما خلق حالة من الانتعاش الجدلى فى تحليلاته وقراءاته للواقع التاريخى ، تأسست على هذه الحالة وتجلياتها كافة مواقفه الفكرية والإنسانية ، حين اكتشف نقلة " الكش مات " فى معركته الفكرية والبحثية مع " المصادفة " .. هاتفاً بعبارة نيوتن الشهيرة " وجدتها !!" إنها إذن المصادفة الموضوعية والضرورة المادية فى شموليتها ونسبيتها لا فى إطلاقيتها ومثاليتها .. مؤكداً أن " العلم قائم على أساس موضوعى وأن المصادفة هى تركيب من ضرورات ".(٧)

.. على هذا النحو المادى الجدلى بدأت حالات التخلق والإفراز لإبداعات التجربة فى الإنتاج الثقافى ، والفكرى ، والنقدى تتضح مضامينها وتنضج استنتاجاتها على مدى ستين عاماً من تاريخ الثقافة المصرية والعربية ، وتاريخ الفكر المادى الجدلى .

.. كنت أقول أن المواقف الثلاثة القادمة تعد أبرز المواقف الفكرية والمهارات المنطقية للأستاذ العالم وليست كل مواقفه ، فهذا مايضيق به المجال ، ولكنها تشكل السلوك العام والجامع للتجربة ورؤيتها الكلية ، والتكتيك التحليلى العام الذى اتسم به الأداء الفكرى ، والإنسانى للأستاذ محمود أمين العالم.

أولا : الموقف من التراث :

ما التراث ؟ وهل يوجد فى ذاته ؟ وماهى الطبيعة الأيديولوجية ، والدور الذى تلعبه الأيديولوجية للتحقق من هذا المفهوم وتمثلاته التاريخية وانعكاساته السياسية على الواقع التاريخى ؟؟

عن هذه الأسئلة المفترضة يدور الحديث مع الأستاذ أمين العالم داخل معمله الإجرائى حول مفهوم التراث . فالأمر لديه مختلف ، فالتراث لايوجد فى ذاته رغم تحققه مادياً ، وهو هنا لاينفى الحقيقة الذاتية للتراث " إن التراث بغير شك موجود ، قائم ، متحقق بالفعل موضوعياً ومادياً فى فكر ، فى معرفة علمية ، فى ممارسة ، فى سلوك ، فى عمارة ، فى بناء ، فى نظام حكم ، فى أشكال تعبيرية قولية أو حركية أو مادية ، فى أعراف ، فى عادات ، فى آداب شعبية ، فى خبرة ، إلى غير ذلك (....) على أنه فعلاً لا أقوم به ، بممارسته ، بتحقيقه إبتداء . وإنما هو تحقق سابق على وجودى ، ولهذا فحقيقته فى ذاتها مشروطة بمدى معرفتى بها وطبيعة موقفى منها ، وتوظيفى لها"(٨) . ويؤسس الأستاذ العالم الموقف العملى من التراث على أنه ليس موقفاً من الماضى فهو دائماً موقف من النقيض الحاضر ، ومدى التفاعل الذى يتم جدلياً بين هذا الماضى وهذا الحاضر هو الذى يحدد المناخ الأيديولوجى لمفهوم التراث ." ولهذا فان الموقف من التراث ليس موقفاً من الماضى وإنما هو موقف من الحاضر ! فبحسب موقفى من الحاضر يكون موقفى من الماضى وليس العكس كما يقال أو كما يظن " (٩) ويتمثل أمين العالم هذا الصراع فى منجزات مادية وفكرية وثقافية وروحية تمثل إضافات إنسانية متجاوزة ومتخطية ، لكنها لا تتراكم معرفياً بشكل مجرد فى فضاء الأيدلوجية الرحب ، إنما تتجادل ماهياتها فى صراعية اجتماعية وسياسية تحدد مجالها الدلالى العام ." وبهذا المعنى الحى الصراعى المتحرك للتاريخ وفى إطاره ، وفى عناصره العينية ومعطياته المشخصة تتشكل الإضافات التراثية وتتحدد المواقف فى هذه الإضافات (...) ولهذا فان كل إضافة تراثية هى نفسها موقف من إضافة تراثية سابقة عليها وهى موضوع لموقف تراثى لاحق .. وهكذا إلى غير حد "(١٠)

بهذه الرؤية الجدلية للتراث فى شموليته وتاريخيته تتأكد الطبيعة التجديدية والتوليدية للتراث ولايقف الأمر على هذا النحو الميكانيكى الثبوتى بل إن العلاقة القائمة بين هذه المنجزات التراثية على مراحل التاريخ المتعاقبة لاتتم بشكل سكونى إلى تراكمى رأسياً أو مستوى ومتوازى أفقياً وإنما هى علاقة اختلاف ومغايرة ، وصراع . إنه فى دلالته النهائية ." صراع الامتلاك الحاضر وليس صراعاً لامتلاك الماضى وإنما لتوظيف الماضى لصالح الحاضر"(١١) وتتبدى ملامح هذه العملية الجدلية فى إفرازاتها التاريخية ، والاجتماعية فى التشكيلات السياسية المقترحة إجتماعياً .. حتى إنى أتخيل أن هذه التشكيلات الفوقية – حسب لقبها الكلاسيكى – تكتسب مشروعيتها من حركيتها وصراعيتها ومدى قدرتها على التجديد العملى والمفهومى لأبنيتها وهياكلها السائدة . وأرى الأستاذ العالم يساندنى هذا القول مؤكداً على أن الموقف من التراث هو موقف من الحاضر فى معركته المتجددة مع الماضى ." وهى معركة بين الفئات الاجتماعية الراغبة مصلحياً فى تكريس هذه الأبنية والهياكل وإعادة إنتاجها ، وبين الفئات الاجتماعية الراغبة مصلحياً كذلك فى تغيير هذه الأبنية والهياكل تغييراً جذرياً (...) فما أكثر الذين يتصورون أنهم يدافعون عن التراث لذات التراث أو عن لحظة من لحظاته أو عن موقف من مواقفه مدفوعين إلى ذلك بروح دينى أو قومى ويكرسون بهذا أوضاعاً متعارضة مع مصالحهم

وهم لايعلمون"(١٢)

على هذا الأساس المنهجى تتمثل الطبيعة الأيدلوجية للتراث عند الأستاذ أمين العالم فى رؤيتين أساسيتين هما : الرؤية التاريخية والرؤية الاجتماعية.

بيد أن طرح هذه الرؤى لايتقابل بشكل سوى ولايتراكم أبستمولوجياً فهو متناقض متغاير ، ومتصارع حسب الرؤية العامة للجدل المادى ، ويحاول الأستاذ العالم استخلاصه مستنتجاً دور الأيدلوجية فى تحديد مفهومنا عن التراث ، ومدى مساحة الدور الذى يمكن أن يلعب العلم باجرائياته المادية والعينية أمام الأيدلوجية فى إستيعاباتنا العملية لهذا المفهوم موضحاً بأن " التراث لايوجد فى ذاته ، وإنما هو قراءتنا له وموقفنا منه وتوظيفنا له والتحقق العلمى منه قائم وجائز فى نشر أى مخطوط محقق أو وصف أثر أو اكتشافه وتحديد تاريخه (....) فالعلم بالنسبة للتراث يقف عند الحدود الوصفية التقريرية الخالصة للتراث فى مختلف تجلياته . ولكن عندما نبدأ فى الانتقال من عملية التحقيق والوصف إلى عملية التقييم والتوظيف فاننا ننتقل مباشرة إلى أفق الأيدلوجية "(١٣) . أما عن طبيعة هذه الأيدلوجية ورصد الأستاذ العالم لمناخها وقياس درجة حرارتها واستنباط منطقها الزائف فيحدثنا قائلاً " تبرز الطبيعة الأيدلوجية للتراث ، أو بوجه أدق للموقف من التراث فى رؤيتين محوريتين : الأولى هو الرؤية التاريخية والثانية هى الروية الاجتماعية وإن تداخلت الرؤيتان فى النهاية وتتمثل الرؤية التاريخية للتراث فى تحديد معنى تاريخيته ، فهناك من يحدد هذه التاريخية باتخاذ منجز من منجزات الماضى فى لحظة معينة من لحظات الماضى ، باعتباره محور إشارة ثابتة أو نقطة بدء معياريه. مطلقة ، يتم الحكم بمقتضاها على كل فكر وسلوك وقيمة ! والتاريخ بعد هذا المحور وهذه النقطة هو انحدار متصل ! ولهذا تتحدد مصداقية ومشروعية وسلامة أى شئ بمدى اقترابه من أو ابتعاده عن هذا المحور الثابت ونقطة البدء المطلقة (...) أما من حيث الرؤية الاجتماعية للتراث فهى مرتبطة بتلك الرؤية التاريخية . فهناك من يرى ضرورة إتخاذ محور الإشارة ، ونقطة البدء نموذجاً يحتذى عملياً أى إجتماعياً بمعنى محاولة التماثل والتطابق مع محور الإشارة وتكرار نقطة البدء واستئنافها فى مختلف المظاهر الفكرية والسلوكية والتشريعية والقيمية عامة (...) وبهذا تتحرك الرؤية الاجتماعية لمحاولة التوفيق والتوازن والتوازى بين محور الإشارة ونقطة البدء ، وبين احتياجات الأحوال المتغيرة والوقائع المتجددة "(١٤).

أمام هذا التشكيل الهجومى الذى يتمثله الأستاذ العالم فى حواره مع مفهوم التراث ومحاولة سبر أغواره والوقوف على أماكن دفاعاته الحصينة تاريخياً وقدرته على إعادة إنتاج هذه الدفاعات بنقلات تراكمية أريد الوقوف مستأذناً الأستاذ العالم بحياء التلميذ ، ومستغرقا معه فى معادلاته التفكيرية والقيمة النهائية للرؤى المستنتجة حول هذا المحور الثابت ونقطة البدء المطلقة ، ومحاولات التشخيص والتحليل الفكرى والتمثيل الإجرائى ، لعناصر مفهوم التراث ، ومايتشكل حوله من زحام أيدلوجى ومعلوماتى وحشد تفسيرى محتوياً فى بساطة ما أحاول تسميته " أيدلوجية السلوك الإنسانى" عبر تاريخه ، وتمثل هذه الأيدلوجية فى لفظ – التراث – ناهيك عن الدور الخطير الذى تلعبه اللغة فى التشكيل الحركى لمفهوم التراث والأصول السلوكية للفظ اللغوى من " التراث " إلى Inheri Tance– والذى لامجال له الآن –.

مما يجعل الأستاذ العالم يؤكد على حكم المطلق والثابت وإنتصاراته المفهومية والسلوكية على النسبى

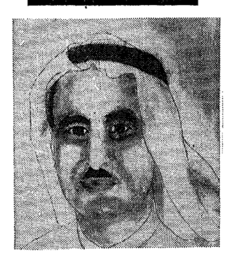
والمتطور كمفاهيم متناقضة ومتصارعة فكرياً على رقعة الجدل التاريخى للإنسان ، وقدرة هذا المطلق وهذا الثابت على التعبئة الجماهيرية وتنشيط مجالات فعله الرئيسية (الدينية ، والثقافية ، والفنية ، والتشريعية) وتشكله فى هياكل بنيوية ضخمة لها مشروعية تاريخية نافذة ، وناسفة لنقيضها الجدلى عند محاولة اقتراب وزير الملك الأبيض المتطور من بيادق التبييت الخاصة بعرض الملك الأسود الثابت.

فأمين العالم لايرى التراث فى حدود هذا المحور الثابت ونقطة البدء المطلقة " بل يرى التراث تاريخاً متحركاً متصارعاً ، منفصلاً متصلاً فى آن ، لايراه فى منجز واحد بل فى كل منجز مادياً كان أو معنوياً ، كما يراه فى النسيج الإجتماعى الشامل ، ثمرة له وقوة فاعله فيه " (١٥) . كما لا يتوافق الأستاذ العالم أو يتوازن فى رؤيته الإجتماعية للتراث ولكن هذه الرؤية " تتحرك لاستيعاب التراث استيعاباً عقلانياً ونقدياً هو إمتداد لموقفها العقلانى النقدى من واقعها عامة ، مستلهمة هذا الاستيعاب العقلى النقدى للتراث فى استيعابها وامتلاكها وتطويرها لخصوصية واقعها نفسه "(١٦) ويحدد الأستاذ العالم فى بيانه النهائى بأن " الموقف من التراث هو بالضرورة موقف من التاريخ وموقف من المجتمع وهو لهذا موقف سياسى عملى أو على الأقل يفضى إلى مواقف سياسية عملية ذات دلالة اجتماعية محددة ، وهذا هو معنى الطبيعة الأيدلوجية للتراث "(١٧).

... من هنا أحاول رؤية الأستاذ أمين العالم حول طرحه " الطبيعة الأيدلوجية للتراث " ومناخ الوعى الزائف لهذا المفهوم وموقفه الفكرى والتحليلى من هذا التراث . بيد أن مناقشة تجليات هذه الرؤية العامة وكليات هذا الموقف وهذه الفكرة عن التراث فى شموليتها ومحاولة التحاور معها قد يكون له مجال " غير هذا داعياً الأستاذ العالم للقاء آخر حتى لاأطيل عليه بهذا المخطوط ، راجياً أن أكون قد هيأت مقدمات متواضعة بخصوص ما أو مناقشته ورؤيته حول طبيعة الصراع المفاهيمى ومعادلات البقاء والفناء ، ودوافع النفى ونفى النفى لجدل المفاهيم الإنسانية فى محاولة ودعوة لتجديد الأرشيف المنهجى لرؤية الجدل التاريخى والموقف المادى من التجربة الإنسانية .

.. إنه رهان فلسفى فى زمن العولمة على قدرة الرؤية المادية الجدلية وأسلحتها المنهجية التاريخية على فهم وتفسير واستنتاج الواقع التاريخى للإنسان ، ومن ثم لتأسيس مواقع التغيير والتطوير .. فما أسهل التفسير الذى ظلّ الفلاسفة منهمكين فيه طوال تاريخهم ولكن القضية هى التغيير – حسب القول الماركسى الشائع – فلا أحد يراهن فى واقعه على التراث ، لكن القادم هو مانراهن عليه جميعاً .

ذكرى



فى الذكرى الأولى لرحيله:
خالد سعود الزيد .. سيرة مثقف

إعداد: عباس الحداد

هو شاعر من الكويت ، ولد فى العام ١٩٣٧ ، قال يصف نفسه فى صباه «كنت صبياً شقياً ، أضرب أصحابى ، وأتحايل على أرزاقهم ، بيد أنى جبان أمام تهديد والدى الذى كان توبيخه أشد إيلاما على نفسى من عصا يضربنى بها» ، درس فى مدارس نظامية حتى المرحلة الثانوية، ثم هجر الدراسة فى العام ١٩٥٧ حيث عمل موظفاً فى الحكومة حتى حصل على التقاعد فى العام ١٩٨٧م.

فى الفترة ما بين ١٩٤٩- ١٩٥٢ اندفع نحو القراءة ، وقد سارت قراءته فى ثلاثة اتجاهات:

الأول : قراءة السير الشعبية ، وخاصة سيرة عنترة وبطولاته ، التى كانت سببا رئيسيا فى شيطنته ، قال «وما كان أشقانى وأنا أشق صفوف أصحابى وأدفعهم بمنكبى صارخا فيهم ، دافعا عقيرتى بقول عنترة:

ولقد ذكرتك والرماح نواهل ... منى وبيض الهند تقطر من دمى
فوددت تقبيل السيوف لأنها ... لمعت كبارق مــن ثغرك المتبسم

حتى إذا ما انفعلت مع هذا القول الجميل ضربت صفوفهم يمنة ويسرة كما كان يصنع عنترة بصفوف الأعداء غير شاعر بما يصيبنى منهم من أذى ، أو شجوج فى رأسى

،وكدمات على وجهى».

وقرأ سيرة الزير سالم الشعبية ، قارن أشعارها المنسوبة لأمرئ القيس بديوان «امرؤ القيس والمراقسة» تحقيق حسن السندوبى -رحمه الله- وكانت تلك أول محاولة أدبية قام بها محاولا إثبات أن السير الشعبية حقيقة ، وأنها مصدر تراثنا العربى الذى يعتد به حين التوثيق.

الثاني: قراءة مكثفة لفتاوى ابن تيمية الفقهية التى وجدها فى مكتبة والده الذى كان حنبلى المذهب وهابى الهوى.

الثالث: قراءة الكتب ذات المنزع الإنسانى العام، كمسرحيات شكسبير والروايات السوفيتية الخالدة لتولستوى ودوستوفسكى.

وفى مارس من العام ١٩٥٤ نشر أول قصيدة شعرية له فى مجلة «اليقظة المدرسية» لسان المدرسة الثانوية بالشويخ ،وكانت القصيدة بعنوان «صيحة عربية» مطلعها:

-انبئ الخطاب يأتى ويرى ما　　دهى الشرقه وماذا قد جرى

- ما هى القدس وما حل بها　　أيـن أين القدس تدعوا عمرا

-كيف أضحى العرب فى فوضى على　　شر حال كيف أضحوا رمزا

ولقد كانت قصائد البداية كلها بلا استثناء ذات اتجاه قومى خالص، ونزعة عربية خالصة:

-يا سائلا عن مذهبى وعقيدتى　　إن العروبة مبدئى ومعادى

وكانت فلسطين ولم تزل جرحا ينزف فينسكب فى أعماقه ، فيخرج شعرا انفعاليا يصور الألم والحزن والمرارة فى لغته وصوره:

-هذى فلسطين الجريحة تشتكى　　فى كل بيت صرخة وعويل

وعندما أمم القائد جمال عبد الناصر　　(قناة السويس)

أقيم احتفال فى ثانوية الشويخ بهذه المناسبة ، فألقى قصيدة مطلعها:

-ما لهذا الصب أعياه السأم　　بات لا يدرى مدى هم الهمم

-والمعالى لا يلقاها سوى　　من تلقاها بسيف وقلم

-أمضت مصر قناها فانبرى　　كل نذل هائجا بالسقم

ولم ينس نضال الجزائر وثورتها الشعبية ضد الاستعمار فقال:

-سل قمة الأوراس من زانها　　مجدا ومن طهرها بالدم؟

-نحن قريناها بأرواحنا　　أكرم بها والمطعم المكرم

-أيامنا فى الدهر مشهورة　　ماعابها مين الحقود القيمى

-ريانة الأمجاد عن قدرة　　　　نشوانة الأعطـاف لم تهرم

ولم يتـوقف عن القـراءة ، فظل يقـرأ في كـتب الفـرق والمذاهـب الإسـلامـيـة (الشـيـعـة، الاسماعيلية ، الزيدية) مفاضلا بينهما ، ساعيا نحو الوصول إلى الحقيقة التى ينشدها ، وقـال يصف تلك المرحلة:«وكـفـى أن أقـول أنى قـرأت كل مـا وقع تحت يدى من كـتـاب فى التـاريخ ، أو الدين أو الأدب أو العلم ، وبينمـا ترانى أعـيش مـوغـلا فى الإيمان ، ترانى متردیا فى سفح حضيض الشك والتردد».

وهذه المرحلة من حياته الفكرية المتأرجحة بين الشك واليقين، بين الإيمان وعدمه ، كانت مرحلة مفصلية ،ومقدمة معرفية لمرحلة التصوف الفكرى والروحى التى عاشـها بعد ذلك ، والتى سيطرت عليه واحتوته «لقد عشت غربة روحية قبل أن ترسو سفينة تطوافى ، وعشت غربة جسدية ، فسافرت كثيرا بمركب الغربتين ، وتنقلت فى بلاد الله الواسعة ، منتشرا فى الأرض وفى الكتب ، متقلبا ما بينهما زمنا طويلا ، كلما لامست القرب ، دافانى لاغتراب يبعدنى ، وكلما شفنى سراب لحظنى غدير يبهرنى.

وفى التصوف وجدت حقيقتى وشاهدت ذاتى ،وما فى ذاتى من وراء مستسلم وأمام يقود ، وقد سجلت بداية اللقاء فى قصيدتى (الحقيقة المطلقة) ١٩٧٠ م،

ومطلعها :

-منك ما فى الحروف من عنفوان　　　　يا ابتسامات ثغرها فى المعانى

يا ارتياد المشوق ينداح بعدا　　　　كلما لاح للعيون الروانى

فتجربته الشعرية / الصوفية تجربة غنية فى معانيها ثرية فى لغتها القرآن مصدرها ، وحب النبى صلى الله عليه وسلم وعشق آله رافدها ، فتجربة (الزيد)تتـألق باللغة القرآنية الرفيعة التى استطاعت أن تعطى كل سائل منها سؤله ، ثم تهديه إلى هذا التشكيل الفنى بالكلمات ، ليصير كل امرئ عن تجربته الذاتية من خلال لغة سماوية علوية لها وقعها على النفوس البشرية وحضورها المتألق على المتلقى.

فما انفكت تجربة (الزيد) الشعرية / الصوفية تستمد من تلك اللغة القرآنية معينها متوالدة فى توالدها المتجدد عبر استخدامه الفنى الواعى ، بما إنه صاحب تجربة شعرية/ صوفية خاصـة، نشأت فى صحـراء شبه الجزيرة العربيـة القـاحلة من الزرع والضـرع الروحيين ، كـأنهـا النخلة التى قليل من الماء يرويها ، وكثرة السموم تحميـها من الفناء وتحفظ لها بقاؤها المستمر.

ويكاد يكون (الزيد) الشاعر الخليجى الوحيد الذى يمتلك تجربة شعرية / صوفية فى المنطقة فى العصر الحديث ،لها ملامحها الواضحة عبر اللغة والموروث الصوفى،فهى بنت

تراث شعرى / صوفى متين يبدأ من الحلاج شاعرا مطوفا فى كل تجارب اللاحقين واصلاً الأول بالآخر، منتجا منهما ومن سلوكه الصوفى الذاتى تجربته الخاصة.

وربما يرجع السبب لهذا التفرد فى التجربة إلى محاربة الحركة الوهابية فى شبه الجزيرة العربية منذ قيامها لكل الحركات الصوفية، والمفاهيم الروحية التى تقيم علاقة مع الغيب الفاعل بالنسبة للصوفية ، والخامل بالنسبة لحركة الإصلاح الوهابية.

وخروج(الزيد) من هذه البيئة الحنبلية الوهابية فى انتقائها الفقهى والفكرى إلى واحة الفكر الصوفى يعد خروجا على السائد ومخالفة للقائم، وربما كان لهذا الخروج مسوغاته فى شخصية (الزيد) النزقة، التى لا تركن للثابت ، باحثة عن التحول باستمرار ،لا تقف ولا تريد الوقوف ،لأنها أدركت بوعيها الصوفى أن« الوقوف سقوط» ، وأن «المتلفت وراءه لا يصل» .

وقد كانت شخصية (محمد) صلى الله عليه وسلم هى النموذج المحورى الذى منه انطلقت تجربته الشعرية بشكل عام ، وتجربته الصوفية على نحو خاص، فمحمد الإنسان ، ومحمد الوجدان ، ومحمد الروح الأعظم ومحمد المثل الأعلى محمد (الذى ليس لمعناه فى الحقيقة حدّ، الوجود بأسره من وجوده مستمد) وربما كان مطلع قصيدة (محمد) التى كتبها العام ١٩٧٦ م تحمل فى طياتها مضمون الحديث النبوى الشريف عندما قال النبى صلى الله عليه وسلم مخاطبا جابر: «أخذ الله... قبضة من نوره وقال لها : كونى محمدا ،ومنها خلق الخلق».

لذا جاءت قصيدة(محمد) وتلتها بعد ذلك قصيدة (صورة) فى العام ١٩٨٦م لتكشف عن أهم دعامة فى تجربة (الزيد) الشعرية / الصوفية ، محمد العربى الأصل والمنشأ ، الذى أحب العرب لثلاث :«لأن القرآن عربى، ولسان أهل الجنة عربى ولأنه عربى» ، وليست عروبة محمد- هنا- عروبة عرقية- بقدر ما كانت عروبة حقية ، عروبة تتصل بالحق الذى(عرى)به الإنسان.

ومن ملامح التجربة الشعرية / الصوفية لديه -أيضا- حضور بعض الشخصيات الصوفية المثيرة للجدل فى تراثنا العربى ، فالحلاج (ت ٣٠٩هـ) شخصية مقلقة فى تاريخ التصوف الإسلامى ، صلبت لتفنى ، فما كان صلبها إلا سرّ بقائها حاضرة ومؤثرة فيمن جاء بعدها ،وكانت الشخصية الصوفية الأكثر استلهاما فى الشعر العربى المعاصر (مأساة الحلاج لصلاح عبد الصبور).

وكذلك شخصية أبى حامد الغزالى (ت ٥٠٥ هـ) ، الذى كان شاغل الناس ولم يزل فى بحثه عن الحقيقة ، وقدرته على الأخذ من الشريعة ، والأخذ من الحقيقة ليكون بينهما

برزخا لا يميل ، وقياما لا يغيب.

كما لا يفوت (الزيد) علينا فرصة التعرف على المدد الغيبى فى نشأة النص الشعرى- كما جاء فى قصيدة الطواسين -عندما سأل معلمه منكراً عن معنى الطواسين فأجابه عن معناها شعرا، إنها أشبه بقصائد الأسلاف من الصوفية الذين كانوا يأخذون مددهم الفكرى والشعرى من مصدر حقى غيبى أمثال(ابن الفارض وابن عربى والجيلى).

ولا تتوقف صوفية التجربة عند هذا الحدّ بل تسعى إلى إضافة فى المشهد الشعرى الصوفى ،عندما تدخل التجربة الصوفية واللغة الصوفية فى قصائده عن الشهداء (شهداء الكويت إثر الغزو العراقى للكويت أغسطس١٩٩٠م) ، فقد كانت لغته الصوفية وصوره القرآنية ، وسلوكه الصوفى ، وإيمانه الروحى متجليا فى تلك القصائد ، حاضرا فى أرجائها طا غ على الصورة الحية ، فالشهيد لم يعد شبحا بل صار روحاً خالصة لبارئها.

موجودة تحت العرش ، ممسكة به، وفى رأسها نور ونار.

إنها تجربة صوفية لإنسان سالك، جاهد فى سبيل الوصول إلى الحق ، وما زال يجاهد ، مترقيا من الكثيف الفكرى إلي الشفيف الروحى ، قاصداً وجهه، ساعيا نحوه، ليكون هو هو أو ليكونه.

محمد

ما لمعناه فى الحقيقة حد

كل شئ من نوره مستمد

هو هذى العصور تترى تباعاً

هو الذى الجموع حين تعد

فهو ما بين ظاهر يتوارى

وهو ما بين باطن يستجد

قد مشى عبره الوجود سباقا

نحو غاياته التى لا تحد

صلبت فى مكانها عاديات

ضبحت والطريق قتل وحد

عقر الدرب حلمها وبعيد

ما رماها إليه وجد ووجد

ما أرى الشمس غير جذوة شوق

ساقها فى مسيرة الحب عبد

والنجوم المسخرات لأمر

قتلت ليلها ولم تجر بعد

غرقت فى فضائه تائهات

مثل قطر لو كان فى البحر يبدو

سل حراء عن ليلة القدر ما من

شاهد غيره هناك يعد

شهد اللحظة اليتيمة لما

وقف الكون خاشعا لا يرد

وصفوف من الملائك رتل

خلف رتل من خير ما صف جند

وتوالى على البسيطة جبريل

وحيداً يروح فيها ويغدو

ثم نادى فى الكون ثم مناد

أيها الظامئون قد حان ورد

قد تلاقى ركب السماء بركب الـ

أرض فى أحمد الهدى وهو فرد

الحلاج

سألت الشبلى فى لحظة إغفاءة :هل شهدت صلب الحلاج ؟ قال : بلى شهدت مولده ، وهو يتخلق فى رحم الحقيقة ليكون للخليقة مثلا.

قال الحلاج

حسب الواحد افراد الواحد له.

وقال الحلاج: ركعتان فى العشق لا يصح وضوؤهما إلا بالدم.

هجرت الطلول وأصحابها ووجهت وجهى محـرابها

وأوقفت قلبى لها قبلة وكعبة من لـم يجد بابـها

فإن يزن بالحرف مستكتب وأرجف بالبيت من رابـها

هجرت منزلى ولن أعود ما بدا صنم

كم رحل لرحلة

وقمة إلى قمم

خلفتها

دنوت منك قاب قوسين ولم

أعد أرى

لا اللات لا العزى ولا ما يفترى

فلتسقط القمم

هجرت منزلى ولن أعود ما بدا صنم

أفتيتنى بك حتى لم أعد جسدا ورب مغتبط فى جنة الجسد

وحسب مثلى إفراد لسيده فليصعق الطود وليبق الهوى مددى

خلفت هارون فى قومى فما حفظوا بيتى ولا صان قدس البيت من أحد

واستضعفوه وشادوا من حليهم عجلا فكسرت الـواحى ولم أعد

هذا دمى يجرى على الأرض اشربوا

يا أيها الأحباب من دمى اشربوا

هدية الدماء لا تكذب

فكم تعذب الذين لم يجربوا

يا ليتهم ، لكنهم ما جربوا الدما

ولم يروك مقلة ولا فما

ولو تذوقوا

لاستعذبوا العذاب ثم لم يعذبوا

أل ... طوى .. س

قلت لمعلمى ماذا يعنى الحلاج بكلمة(الطواسين) ؟ قال:

(أل) بمعنى الذى ، و(طوى) فعل ماض بمعنى أخفى . و (س) تعنى ذلك المخفى.

عد بى إلى حرف الوجو د المشرئب لمنتهاها

من سدرة الحق القديم المستجد على مداها

ما بين غاد أو مقيم لم يكن فيها سواها

يا(سين) إن لم يعرفوا من كنت . إن الله باهى

صلى عليك الله والاس م المترجم عنك طاها

ما كنت إلا المنتهى فيها وإنك مبتداها

جئنا إليك اليوم نفخ ر والفخار لمن أتاها

يا كعبة العافين يا وجه الحقيقة يا سناها

جئنا إلى الأرض المقد سة الحمى، إنا فداها

يا قبلة صلى لها الوجـ	ـدان ما أحلى شذاهـا
ما كان غيرك فى قدي	مات العصور وما تلاها
يا واحداً فى القبلتين	لأنـــت أول مـــن بـناها
لا يحزننك من يســا	رع فى الهوى أو من قلاها
فلسوف يشهدها الجميـ	ـع ،وعندك ربــك منتهاهــا

البحث

سأظل على راحلة الأسفار ، على كتفى مزودة ظمأى
ينهشها ليل وحشى الأنياب
لست الأول مصلوبا فى الدرب
ولا الآخر مقتولا فى الحرب
أجيال من قبلى مرت
هذا مقطوع الساقين
وذا من دون يدين
والدرب على مصراعيه
مفتوح الأبواب
لاتعرف من يدنو أو ينأى
قتلاه بلاحد
والموت بلا أسباب

***

لاصبر فقد أدمى أقدامى شوك الصبر
مزق أحشائى
صير دمعى حجرا
أسقطه فى بؤبؤ أعماقى
يتهاوى ، يرجم أشواقى
يسحقها سحقا فى القعر المظلم ياللصبر

***

لو أبصوت الهيكل تذروه الريح
يطويه الإعصار كما يطوى التبغ

ويرميه بصحراء النار
وما يشعر باللدغ
لم تفتق قشرته الأرضية
لم يخلق
مازال التيه أباه
وهمى التكوين
يبحث فى الطين عن الطين
يا بركان الأرض السابعة المزوى
يانبعا فوقى الأنساب
يطعمه الجوع فينساب
على الأرض حفى الخطو
أطعمنى من زادك شيئا
ما زالت مزودتى ظمأى تنتظر الرى
وخفاف الراحلة المنهوكة مثقوبة
لاشئ سوى الأحلام المكذوبة
فى صحراء تنام على حافات النهر المنسى
***
أشتاقك برقا يلمع مرة
ألقى فى أحضانك كل شجونى
تسقينى قطرة
تسكبنى فيها
تخلقنى منها
فتعيد التكوين الأول للفطرة
حيث عيونى ماعادت تبصر
طمست فى ليل ظنونى
ويعيد الدرب الكرة
المرة تلو المرة
لكن لا أبصر غير مشوه
مقلوب الصورة والنفس مموه

****

ياصحراء الألم الممتد
سلمت بأن الرحلة وجد
يبدأ بالإنسان الكون ويرتد
تتجدد من معناه الأشياء وتولد
لكنى سأظل على راحلة الأسفار على كتفى مزودة ظمأى.

عود على بدء

وسرت بغابة ظلماء لم أبصر سوى أشلاء أحلام
ورائى من خليط الليل أشباح تروعنى ، وقدامى
شجون من شجون الأمس ملأى من جراحاتى
دماء ملء راحاتى ، وأقدامى
لأشواك الأسى والتيه مزبلة ، وآهاتى
يضيق بها المدى المسعور ، آهاتى
ولا من نقطة تصل
كأنى للردى مثل
صلينى يا منى سفرى
بأى غد بأى يد
بشئ ما ليوصلنى
ويربط أمسى المحزون بآلآتى
لعلى بعدها أصل

***

ومن ثقب ضئيل الحجم فى جدرانى الظلماء من مسنون
تكوينى
رأيت وياالمبصرة
سرت فى إثر خيط بارز القسمات من نور
وأدركت الذى قد فات والآتى
وشيئا دونه الكلمات والصور
ألا ياحبذا السفر

لكم أشتاق للنور
أذوب وفيه أنتشر
على آفاق مستور ومستور
تطالعنى سماوات تنادى أيها المسحور بالطين
تأمل سر تكوينى
وأدركت الذى قد فات والآتى
عرفت ولم أكن أدرى الذى قد كان يحدونى
يعلمنى ويغذونى
يضئ كأنه شمس
وطورا إنه قمر
ويبهرنى شعاع منه فى ذاتى يلامسنى
فأحسب أنه القدر
يعلمنى ويغذونى
ولكن لا أرى شيئا سوى لا شئ يغمرنى
وعدت إلى سماواتى
أقلب وجه أعماقى إلى ذاتى
رأيت ..عرفت .. أدركت الذى قد كان يغذونى
ويبعث فى من مكنون مخزونى
(أنا)
لاشمس
لاقمر سواى(أنا)
وتلك يدى
أأجهلها ؟ وإن جهلوا معالمهم
أأجهلها؟
أراها،
ذى أظافرها
أراها،
ذى أصابعها
وذا وجه من أذر

يطالعنى ويبتسم
عرفتك لست أتهم
فما فى باطنى إلا(أنا) وهم
(أناى) وإن هم نكروا
فما ذاقوا الذى قد ذقت مانظروا
أرى المرئى فى أنا
عجيب عالمى ..أأنا
جماع عوالم ؟ أأنا
إذن إنى
بحث
عن أنا فيه ومانظروا
وقبلت الفم العينين والقدمين
سجدت وغبت فى السبحات
وفرت من فمى الكلمات
وددت بأن أكون فما
ورأسا مقلة قدما
ونفسا ترفض العدما
أكونك .. لا ..
فلست كما ..
وفرت من فمى الكلمات
فعودى لحظة الإشراق كم أشتاق للنور
أذوب وفيه أنتشر





الأدب الأذربيجانى فى الدراسات العربية

وأزمة الأدب المقارن

د. إمام وردى حميدوف

ليس اهتمام الباحثين المصريين بالأدب الأذربيجانى من قبيل المصادفة.

يمتد تاريخ الأدب الأذربيجانى خلال العصور التى قضاها الشعب الأذربيجانى فى نضال قاس من أجل وجود . ويتميز هذا الأدب بإنسانيته الرفيعة وله علاقة وثيقة باللغات غير الآذرية كالعربية والفارسية والروسية، كما أنه يزخر بالقيم الإسلامية والحكم الشعبية العميقة الدلالة إذ بدأ تراثه الغنى المتأثر بالثقافة الإسلامية والعربية خاصة والمتفاعل معها يتخذ عمقاً وشمولا فى القرون الوسطى.

ومن أهم أركان الأدب الأربيجانى الإبداع الشعبى . وعلى رأس هذا تبرز الملاحم الشهيرة مثل« دادا قوقورد» و «كورأغلو» و «أغوزنامه» والأشعار المسماة «بياتى» وغيرها . وأكثر ما يميزها بشكل عام الإحساس العالى بالقومية وحب الوطن والتشكيل الواعى للنماذج الإنسانية الموجودة فيها والتأثر الواضح بالروح الإسلامية.

وتعد ملحمة «دادا قوقورد» من أشهر الملاحم الآذرية التركية حيث يعود تاريخ ظهورها إلى فترة زمنية حصرها الباحثون ما بين القرن السابع والحادى عشر ولقد تم الاحتفال فى عام ٢٠٠٠ بمناسبة مرور ألف وثلاثمائة عام على ملحمة «دادا قوقورد» وذلك بقرار من المؤسسة الثقافية التابعة للأمم المتحدة.

حيث قدم فكرة مهمة تشير إلى تشابه بعض المفردات فى هذه الملحمة مع بعض الكلمات المصرية القديمة آخذاً بعين الاعتبار أن المخطوطين النادرين لها موجودان فقط فى الفاتيكان (إيطاليا) ودرزدن (ألمانيا) . ويعتقد العلماء أنه من المحتمل أن نعثر على مخطوطة أخرى للملحمة فى مصر.

أما ملحمة «كورأوغلو» فتحكى عن بطولة البطل الشعبى روشن كور أوغلو وصراعه ضد الحكام الظالمين ويرافقه أصحابه البواسل وصديقته المخلصة ويساعده فرسه . ويلاحظ أن سلاح كوروغلو هو السيف المسمى بالسيف المصرى وهو ارتباط لفظى ومعنوى بمصر القاهرة فى إبداع الشعب الأذربيجانى.

وفى القرون الوسطى درس كثير من الآذريين على يد العلماء المصريين ،كما أن الأديب والنحوى الشهير أبو زكريا الخطيب التبريزى عاش فى مصر حوالى عشر سنوات وتعلم أسس النحو عند أبى الحسن طاهر بن باباشاز.

من المعروف أن الشاعر الأذربيجانى والإيرانى الشهير نظامى كنجوى (عاش فى القرن الثانى عشر) لعب دوراً هاماً فى تطوير القصة المنظومة ومهد لتأليف «الخمسة» وفى هذه القصص توجد صور تمثل الشعوب المختلفة من بينها قصة «مهان » المصرية ويصف نظامى فيها مغامرات مصرى خارج بلده .وفى قصة «إسكندرنامه» أو (كتاب الاسكندر) توصف مدينة الاسكندرية القديمة على النجو التالى :«مدينة مثل الربيع الأخضر» و«جنة فى النور والتعمير».

وهنا فصل خاص عن ماريا القبطية التى تسافر إلى اليونان وتدرس علم الكيمياء وتغنى خزائن بلدها مصر.

ولعل ما أقدمه هنا ما هو إلا تمهيد تاريخى للعلاقات الأدبية الآذرية المصرية وذلك لإعطاء بعض اللمحات عن خصائص الأدب الأذربيجانى الذى أصبح موضوعا للبحث لدى العديد من الباحثين المصريين إذ تتحرك دراساتهم عادة فى اتجاهين لدى الكتابة عن الأدب غير العربى وهما اتجاه الأدب الإسلامى أو اتجاه الأدب المقارن.

ومن أشهر من كتبوا فى هذا المجال عبد النعيم حسنين ومحمد عفيفى هلال وأمير عبد المجيد بدوى وحسين مجيب المصرى ذلك أن دراسات هؤلاء عن مبدعى الأدب الأذربيجانى تشمل أسماء

مثل خاقانى شراونى ونظامى كنجوى وعماد الدين نسيبى ومحمد فضولى.

وفى مقدمة كتاب عبد النعيم حسنين «نظامى كنجوى– شاعر الفضيلة :عصره وبيئته وشعره» يؤكد إبراهيم أمين الشواربى أن هذا الكتاب هدية أدبية عظيمة إذ أفاد المؤلف من المصادر الموجودة فى مكتبات إيران وتركيا والهند وباكتسان وانجلترا وتشيكوسلوفاكيا وفرنسا وألمانيا ويوجد من بين المراجع التى اعتمد عليها مؤلفات باكخانوف الآذرى وقورد لفسكى الروسى ومجموعة من المقالات عن نظامى صادرة فى باكو.

إن آراء عبد النعيم حسنين فيما يتعلق بحياة نظامى تعبر عن موقفه النقدى حيال مصادر المعلومات . من بين ذلك الفكرة غير الصحيحة عن حياة نظامى وما ذكره بعض المؤلفين أمثال قزوينى زكريا وأمين رازى اللذان كتبا أن شاعرنا تعرض للعديد من المصاعب المادية الأمر الذى لا يتفق معه عبد النعيم حسنين . ولقد ثبتت صحة رأيه عندما نشر أكاديمى آخر هو حميد آراسلى فى ثمانينات القرن العشرين «الدفاتر العثمانية للقرون الوسطى» مشيراً إلى أملاك الشاعر نظامى الكثيرة.

وتعتمد دراسة عبد المنعم حسنين على التحليل الأدبى والمقارنة النظرية ، هذا والمنظومة الأولى من سلسلة «خمسة» و«كنز الأسرار» تتم مقارنتها بـ«حديقة الحقائق» لسنائى ويعد مؤلف نظامى أفضل وأكمل.

كذلك يشير الباحث إلى الفرق بين «خسرو وشيرين» لنظامى و«شاه نامه» الفردوس فخسرو نظامى يختلف عن خسرو الفردوسى بعشقه ، كما يكتب الباحث أن منظومة «خسرو وشيرين» لنظامى هى أول مؤلف رومانسى فى الأدب الشرقى يحكى عن الحب كما أنه ـأى الباحث– يطبق المنهج المقارن فى دراسة منظومات «ليلى ومجنون» و«سبعة نجوم» ، و«اسكندرنامه» وتوجد ملاحظات قيمة عن مدرسة نظامى ومقلديه إذ يلفت عبد المنعم حسنين النظر إلى لغة مؤلفات نظامى وكثرة كلمات البديع فيها ونجد اعترافا بأن نظامى كنجوى صاحب منهج جديد فى الشعر الفارسى مع أن العلماء الأذربيجانيين أمثال محمد أمين رسول زاده وحميد أراسلى ورستم علييف قد أثبتوا أن الصعوبة والغرابة فى فارسية مؤلفات نظامى سببها آذريته وتفكيره الآذرى بل واستخدامه للكلمات الآذرية.

الباحث المصرى الآخر الذى أهتم بنظامى هو محمد غنيمى هلال الذى ترجم مقطوعات من منظوماته إلى العربية فى كتابه«المختارات من الشعر الفارسى» تحت عناوين «شكوى خسرو إلى هرموز» ، «الحوار بين خسرو وفرهاد» «حديقة الحياة» «الحب أو الملك» و «المرأة» .ومن بين الأشعار المترجمة فى هذا الكتاب توجد نماذج من أشعار قطران التبريزى وخاقانى شروانى

بينما قدم الباحث أمين عبد المجيد بدوى فصلا خاصا فى كتاب «القصة فى الأدب الفارسى» خصصه لدور نظامى كنجوى -الشاعر الأذربيجانى الشهير.

يلعب الشاعر الأذربيجانى التركى محمد فضولى الذى عاش فى القرن السادس عشر دوراً مهماً فى تاريخ الأدب الأذربيجانى الإسلامى.

لقد كتب فضولى مؤلفاته باللغات العربية والفارسية والتركية . ويعود أصله إلى طائفة «بايات» الآذرية وعاش فى العراق وألف أكثر من ١٥ منظومة وقصة أكثرها بالتركية- الآذرية.

إن دارسى إبداع فضولى كثيرون فى أذربيجان وخارجها وخاصة فى تركيا والعراق وروسيا وإيران وإيطاليا وإلى هذه القائمة يضاف اسم مصر بفضل دراسة الدكتور حسين مجيب المصرى وذلك من خلال كتابه القيم «فضولى البغدادى» أمير الشعر التركى القديم» .فهنا بحث شيق فى الأدب الرسلامى على عظمة حضارة الإسلام ونفاسة تراثه .ويقول الباحث:

«لقد طربت لفضولى منذ أعوام طويلة أحسبها سبعة عشر عاماً أو تزيد ، .وشعرت بتجاوب روحى بينى وبينه يعطفنى عليه ويجيب إلى دراسته وصح منى العزم على ذلك (ص١٠) وبحسب رأى د. مجيب المصرى فإن فضولى كان من أهم من نظم ونثر بالتركية-الآذرية والفارسية والعربية وتصرف فى فنون الشعر جميعاً حتى ذاعت شهرته بين الترك والفرس والعرب «كما كان كاتبا حسن الترسل ، يجرى قلمه فى نثر فنى لأتعهد أحسن منه عند الترك ولا الفرس» (ص٩).

ومن بين المصادر والمراجع التى أستفاد منها الباحث توجد بعض مؤلفات العلماء الآذريين مثل« لمحات فى الأدب الأذربيجانى» ليوسف وزير وزيروف و«تاريخ آذربيجان» لإسماعيل حسنيوف و«كلستان سعدى» لأستاذ رستم علييف.

وجدير بالذكر أن ملاحظات مجيب المصرى فيما يخص لغة مؤلفات فضولى وتحليلها الأدبى ورأيه حول علاقات فضولى بأدباء عصره كلها دقيقة إلى حد بعيد وتتفق مع أفكار الباحثين الآذريين المعاصرين.

وفى الستينيات كانت الدراسات عن فضولى فى أذربيجان قليلة أما بعد ذلك فقد أنجز العلماء الآذريون أمثال حميد أراسلى ومير جلال وميرزا غاقولوزاده ومحمد جعفر جعفروف وصابر علييف ونصيب كيوشوف وغيرهم العديد من الدراسات عنه. لكن ومجيب المصرى كان محقا عندما كتب فى الستينيات :«والبحوث عن هذا الشاعر معدودة ، أو أنها أقل بكثير مما ينبغى أن تكون عليه من الكثرة ، كما أنها تتجاوز ما أختلف فيه المختلفون منذ زمن طويل»(ص٩٠).

ولا يزال علماؤنا يدرسون تراث هذا الشاعر الكبير كما تنشر مؤلفاته المنظومة والمنثورة وتتم

ترجمتها إلى اللغات الأخرى حتى أن الملحن الأذربيجانى الشهير أزير حجيبوف وضع أول أوبرا شرقية فى موضوع «ليلى ومجنون» لمحمد فضولى.

إن البحوث المقارنة فى الأدب الإسلامى لها أهمية خاصة لدراسة العلاقات الثقافية والأدبية بين الشعوب فى القرون الوسطى . وبهذا المعنى فإن الدراسة الأدبية المقارنة بين قصيدتى سينية البحترى ونونية خاقانى لصديقى د. عبد السلام عبد العزيز فهمى تعد أحسن مثال على دراسة العلاقات الأدبية بين العربية والأذربيجانية.

إن خاقانى شروانى هو ممثل المدرسة الأذربيجانية فى الشعر الفارسى ويمتاز شعره بالروح الفلسطينية والكثير من المديح.

ولقد عاش خاقانى فى القرن الحادى عشر .وفى كتابه «إيوان المدان بين البحترى وخاقانى» يقدم د.عبد السلام فهمى معلومات علمية واسعة حياة وإبداع خاقانى وقد ترجم الباحث قصيدة خاقانى« ايوان المدائن» إلى العربية مع تقديم دراسة تحليلية لها.

ويتلخص تقييمه لشعر خاقانى فى قوله: تميز خاقانى باجادته الكاملة فى إسداء النصيحة والموعظة وأورد صوراً شعرية جديدة قد لا يألفها فى الشعر العربى ولا نجد لها نظيراً فى الشعر الفارسى» (ص٨٣) وأيضا إذ يكتب :« أما شعر خاقانى فيشد الانتباه والأحاسيس ويشتمل على اللفظ الرقيق والمعنى الغريب البديع»(ص٨٢).

ويهتم العلماء الأذربيجانيون بدراسات الباحثين المصريين ويقدرونها تقديراً خاصاً .وقد تطرق الباحثان آراسلى وواسم محمد عليف فى مقاله لهما إلى دراسة د. محمد حسنين عن نظامى كنجوى .أما كتاب «فضولى البغدادى أمير الشعر التركى القديم» لحسين مجيب المصرى فقد أصبح موضوعاً للعديد من مقالاتى العلمية الصادرة فى مجلة «المشعل» ومجلة «الأكاديمية الوطنية للعلوم» وجريدة« الأدب» ،وقد ترجمت مقتطفات من هذا الكتاب (لحسين مجيب المصرى) إلى الآذرية.



مياه الشهاوى فى أصابعه

حلمى سالم

عرفت أحمد الشهاوى منذ عام ١٩٨٣ ، فى ندوة بجامعة المنصورة ، وألقى يومها قصيدة «ركعتان للعشق» التى هى أولى قصائد المجموعة الشعرية التى صدرت أخيراً، بالقاهرة، ضمن سلسلة «مكتبة الأسرة» ، بعنوان «مياه فى الأصابع» مشتملة على« مختارات » من دواوين الشاعر التى أصدرها عبر عقدين.

وقد أخرج الشهاوى ، حتى الآن، عشرة كتب هى: ركعتان للعشق ، الأحاديث (السفر الأول) ، كتاب العشق ، الأحاديث(السفر الثانى) ، أحوال العاشق، الأحاديث (مختارات) ، كتاب الموت، قل هى، الوصايا فى عشق النساء ، مياه فى الأصابع.

وأحمد الشهاوى واحد من شعراء الثمانيننيات فى مصر(حسب تصنيفات أصحاب الأدراج الخشبية)، ذلك الجيل الذى تعرض -فى رأيى لظلم بين ، حينما زعم شعراء ونقاد أن جيل الثمانينيات الشعرى العربى (وخاصة فى مصر) لم يقدم شيئا ، وأنه اعتاش على تجربة شعراء السبعينيات ترسما ، واجترارا وتقليداً.

وأغلب ظنى أن هذا الزعم غير الصحيح ينطوى على غرض فى نفس يعقوب ، هو إقصاء جيل الثمانينيات لصالح جيل السبعينيات وجيل التسعينيات ، وقبل ذلك لصالح إقصاء رواد حركة الشعر الحر ، إن بعض القائلين بهذا الزعم المغلوط هم من أصحاب النظرية التى ترى أن الشعر

العربى الحديث قد شهد ثلاث ثورات جذرية هى: المدرسة الرومانتيكية فى الأربعينيات ، وجيل السبعينيات،، وجيل التسعينيات.

وتفصيل وجوه الخطأ فى هذا الزعم المزعوم ليس هنا مجال له . وأكتفى بالتأكيد على أنه ينظر إلى شعراء الثمانينيات نظرة مجحفة . فعندى أن شعراء الثمانينيات لم يكونوا عالة على شعراء السبعينيات ، وإن تأثر بعض أولئك ببعض هؤلاء ،وخاصية فى بدايات طريقهم الشعرى ،وهو أمر طبيعى يحدث فى كل مرحلة . لكن الحقيقة الأبرز هى أن جيل الثمانينيات قد أخرج لنا مجموعة (محدودة، مثل كل جيل) ذات بصمات خاصة وسمات متميزة. وأستطيع أن أشير كأمثلة -إلى أسماء :فاطمة قنديل وإبراهيم داود وسمير درويش وعلاء خالد ومهاب نصر وياسر الزيات ومحمود الحلوانى وخالد عبد المنعم وحسين خضر وأحمد الشهاوى.

الشهاوى ،إذن ، واحد ممن يثبتون لى صحة اعتقادى بأن شعر الثمانينيات فى مصر كان (عبر مجموعة من مبدعيه) يجسد إضافة واضحة على شعر السابقين بلا اجترار أو احتذاء ، بل إننى أزيد فأقول إن بعض شعراء هذا الجيل الثمانينى المظلوم قد أثر على بعض شعراء الجيل التسعينى التالى له: سواء من جهة الذهاب إلى قصيدة النثر، أو من جهة المنح من خزان الطفولة المغلق ، أو من جهة الالتفات إلى الصغائر اليومية المنسية والابتعاد عن «الكلام الكبير».

ويصح لى ،هنا ، أن أقرر أننى كنت -طوال قراءاتى المتفرقات لشعر الشهاوى -قد كونت رأيا يرى أن هذا الشعر يمضى على وتيرة واحدة، أفقية رتيبة، تخلو من التصاعد والتنوع . لكن قراءاتى لمختارات «مياه فى الأصابع» ،التى تعرض مساراً كاملاً ، بينت لى أن ذلك الرأى الذى كونته القراءات المتباعدة ليس سليماً .فالمسار الذى تحتويه هذه المختارات- عبر عقدين- يوضح أن القصائد التى تمثل عقد الثمانينيات تجسد مرحلة ، وأن القصائد التى تمثل عقد التسعينيات تجسد مرحلة مختلفة. تتسم قصائد المرحلة الأولى بالرومانتيكية ومستلزماتها من عاطفية زائدة ورغبة فى التوحد بالطبيعة والكائنات والذات . وتتسم كذلك، بحضور الوزن حضوراً قويا ملحوظاً . وتتسم أخيرا بتسرب رائحة بعض الأصوات الشعرية الرائدة إلى تضاعيف النص.

أما المرحلة الثانية فيتجلى فيها ابتعاد الشاعر عن الرومانتيكية الزاعقة السابقة ، باتجاه نبرة من الحكمة الذهنية المشعرة . ويتجلى فيها التخلى عن الالتزام المدرسى بالوزن الخليلى التفعيلى الرسمى ، باتجاه تعديد الوزن تارة، وإحداث خلل به تارة ثانية، ومزاوجته بالنثر تارة ثالثة . ويتجلى فيها خلوص صوت الشاعر من أحبال صوت الآخرين ، ليصفو له صوته المخصوص والحق أن« صفاء» الصوت من شوائب السابقين علامة جوهرية من علامات الشعر الجميل ، بحيث قد نختلف على كثير فى مثل هذا الشعر أو نتفق ، لكننا لن نختلف على أن خلوص صوت الشاعر لنفسه هو موجب أولى لتثمين شعره عالياً.

فى هذه المرحلة الثانية من شعر الشهاوى برزت ثلاثيته المعروفة :العشق ، الصوفية ، الموت ، وعناوين كتبه وجدها تعلن حضور هذه الثلاثية حضورا ضاغطاً : أربعة من هذه العناوين ترد

فيها مفردة العشق، وستة من هذه العناوين ترد فيها مفردات من مستلزمات الصوفية والتراث الدينى كالأحاديث والكتاب والأحوال فضلا عن« قل هى» المتناصة مع القرآن الكريم ، أما الموت فهو مبثوث فى معظم شعر المرحلة حتى وأن اختص به عنوان واحد.

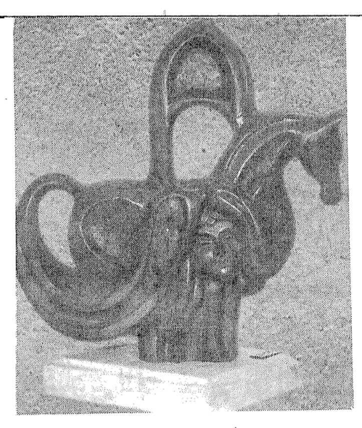
ولا ريب أن هذه الثلاثية (العشق ، الصوفية ، الموت) يربطها جذر واحد جامع هو: الفناء أو التفانى أو الانمحاء .فالعشق فناء فى الآخر المحبوب والصوفية، فناء فى الذات الإلهية ، والموت فناء فى الأبدية والمطلق .ولعل هذه الثلاثية تشكل مصداقا -بتحويرات طفيفة- للعلاقة المثلثة المتداخلة التى وحدها بعض النقاد والمحللين بين: الجسد (أو الأنوثة أو الحس) ،والشعر(أو الفن أو الكتابة) واللاهوت (أو التدين أو القداسة أو الألوهية)، حيث فى الشعر خيط من الكهانة وخيط من الوصال الجسدى ،وحيث فى التدين خيط من المجاز وخيط من التجربة الحسية ، وحيث فى الشهوة خيط من الكتابة وخيط من التوحد الصوفى . أما الطائر المرفرف فوق كل أطراف هذه الثلاثية فهو الموت :العشق موت من حيث هو ذوبان المحب فى المحبوب أو تذويب المحبوب فى المحب ، والشعر موت من حيث هو تصفية للروح فى كلمات ، واللاهوت موت من حيث هو اتحاد بالرب وانمحاء فيه.

فى وجود هذه الثلاثية(العشق والصوفية والموت) يجوز أن نتوقع حضور «تيمة» الكتابة عن الكتابة ، أو الشعر عن الشعر، وهو ما حدث فى المرحلة الثانية من شعر الشهاوى وهى بكثافة (وان وجد فى المرحلة الأولى خفيفا) .تعنى هذه «التيمة» أن الشعر صار هو «الحياة» و«التعبير» عن الحياة ، فى آن ، إذ تغدو معاركة التجربة الشعرية بديلا أو رمزاً لمعاركة تجربة الحياة أو العيش ، ليصبح الانتصار أو الانهزام فى تلك انتصارا أو انهزاما فى هذه ، بينما يلف كل ذلك لبس عميق بين الحياة وشعرها.

فى حديث- سابق أخذت على أحمد الشهاوى استغراقه فى استلهام النص الصوفى والتراثى ، مشيرا إلى أمرين:

الأول : هو ضرورة الحذر من التطابق مع النص الصوفى ، فالشاعر المعاصر لا يمكن له أن يكون صوفيا ، ولكنه يستطيع أن يستفيد فنيا ولغويا وجماليا مما يزخر به النص الصوفى والتراثى القديم، على أن تكون هذه الاستفادة خيطا من نسيج الشاعر المعاصر وتجربته المعاصرة.

الثانى :هو ضرورة الانتباه إلى أن الإسراف المفرط في مضاهاة النص التراثي- أو تعديله أو مناقضته -هو مقامرة حرجة قد تنقلب إلى نحر الشاعر ، حينما تخفق فى التدليل على اجتراء الشاعر على« القديم» ، بل تذهب (على عكس ما يهفو الشاعر) إلى التدليل على« إجلال» الشاعر للنص القديم باتخاذه مثالا أو نموذجا علويا كاملا : ينبغى احتذاؤه بالصعود إليه ، أو ينبغى تهشيمه بطرحه أرضاً .وكلتا الحالتين -على تعارضهما- تشيان بمعنى واحد، هو اعتبار «القديم» مقياسا ونبراساً».

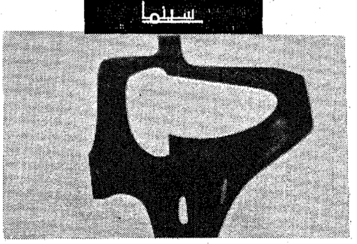


ولقد تمنيت –ولا أزال –أن يكتفى أحمد الشهاوى بما حققه من خطوات طيبة ملحوظة فى هذا الطريق ، وأن يتجه إلى درب جديد لم يطرق ، ليحفر فيه حفراً دءوباً ، ويقطع فيه شوطاً مضيئاً ،كذلك الذى قطعه فى الطريق الراهن.

وأنا أعلم أن الشهاوى لا تعجبه منى هذه الأمنية، وعادة ما يرد على كلما ذكرتها له:«ومن ذا الذى يجرؤ على أن يقول للشاعر :افعل كذا ، ولا تفعل كذا؟» وأجيبه : «لا أحد يجرؤ بالطبع» ، ولكنى أعبر عن قناعتى –كقارئ –بأن الشاعر الفطن ،حينما يكتمل له طريق جميل ، يتوجب عليه أن يغادره إلى طريق آخر مختلف وجميل . وأظن أن صدور القصائد المختارة فى كتاب واحد هو «مياه فى الأصابع» ينطوى على إلماحه رمزية إلى أن الشاعر يقدم «كشف حساب» لمرحلة مضت ، مرهصا بالدخول فى غياهب جميلة جديدة.

أليس الشعر –كالحياة والحب– «مياها فى الأصابع» ، تتسرب ، وتتسرب ، لنكون فى حاجة إلى مياه جديدة :كالحياة والحب والشعراء؟ ألم يقل الشهاوى

«راقبى الأرض وهى تمشى
ففيها سيرتى
وكلامى عن حنين الأرض لى
فيها شموسى
وشرابى من مياه أناملى».



رسالة الإسكندرية

أسبوع الفيلم الألمانى

محمد عبد العظيم على

من (٢) إلى (٧) أكتوبر أقيم أسبوع للفيلم الألمانى فى قصر التذوق بسيدى جابر .. وكالعادة – فى السنوات الأخيرة – مثل غالبية الحضور أرباب المعاشات وربات البيوت ، وعدد لابأس به من الفتية والفتيات أغلبهم من رواد أندية القصة والرواية بالثغر.

ويبدو أن معهد جوته الثقافى كان يدرك هذا الأمر الممتد على مساحات من الوطن (قصور ثقافة : بنها ، شبين الكوم ، الإسماعيلية) حيث عرضت الأفلام نفسها .. وذلك بجوار أمور أخرى منها أن حال الكرة الأرضية فيه ماقد يغنى المرء عن الذهاب إلى أى فيلم جاد ، حتى ولو كان جيد الصنع وجميل ، وهذا الحال تتضح به الجرعات الأليمة المتتالية عبر الصفحات المقروءة - الصحف والمجلات) والصفحات المنظورة (الشاشات التليفزيونية) ، وتدفع المرء إلى البحث الغريزى عما يجعله يتوازن دراميا ونفسيا مع كينونته التى صارت المستطيلات البيضاء تملك أربعة أخماسها ، أى نفس النسبة تقريبا التى تملكها أمريكا من رغيف الخبز.

لذا اختار معهد جوته خمسة أفلام تجارية ، ذات كاميرات محايدة ، ولقطات تتماهى مع منظور عين المتفرج ، وتمثيل فيه من التلقائية والبساطة ماينسى المتفرج أنه إزاء فن التمثيل ، لذا تتعامل هذه النوعية من الأفلام مع العامة بارتياح تام ، قد ينقص قليلاً أو يزيد حسب درجة تزمت كل متفرج حيال العرى والممارسات الجنسية التى لم يخل منها فيلم . ولم ينس المعهد (كتأكيد على فكرة التعامل مع الأغلبية من محبى السينما) أن يقدم فيلماً عن كرة القدم.

وبسرعة أنقل لكم ماجاء في ـ البانفليت) عن هذه الأفلام وفق عرضها :

* ماوراء الصمت (١٩٩٦) :

إخراج : كارولينة لينك

تمثيل : سيلفى تيستود ، سيبيل كانونيكا ، ايمانويل لابوريت ، ماتياس هابيش

ولدت " لارا" لوالدين صم بكم ، ولهذا فقد حملت منذ نعومة أظافرها مسئولية عظيمة : فهي وسيلة اتصال والديها بالعالم الخارجي ، ومترجمة والديها عند اجراء المكالمات الهاتفية وفي أثناء إجراء المعاملات البنكية أو مقابلة المدرسين ، تبدأ لارا في اللعب على آلة الكلارنيت ، وتقرر أنها سوف تنتقل بعد إتمام الدراسة من المدينة البافارية الصغيرة التي تعيش فيها إلى برلين لدراسة الموسيقى ولكن الافتراق عن الوالدين أليم..

* رجال (١٩٨٥) :

إخراج : دوريس دوري

تمثيل : أوفه أوكسنكسنشت ، هاينز لاوتر ترباخ ، أواريكة كرينر

" يوليوس ارمبروست " مصمم أغلفة طموح للغاية في عمله ، لدرجة أنه لم يلحظ خيانة زوجته " باولا " له فترة طويلة ، والتي اتخذت لنفسها من الرسام العاطل " ستيفان " عشيقا ، وهو طراز من الناس يختلف تماما عن يوليوس الأنيق الذي يختفى ويستأجر حجرة في شقة شتيفان ، ويبدأ في أن يريه مالذ وطاب من رغد الحياة ماهو رد فعل باولا إزاء التغيرات الطارئة على يوليوس وشتيفان ؟

* في شهر يوليو (٢٠٠٠) :

إخراج : فاتح اكين

تمثيل : موريتس بلايتروى ، كريستيانه باول

يتعرف " دانييل بانير " مدرس الفيزياء الممل بعض الشئ ببائعة المجوهرات المرحة " يولى" التي تقع على الفور في حب المدرس ، الذي يحلم بسيدة أخرى ويتتبعها عبر نصف القارة الأوروبية – من ألمانيا ، عبر المجر وبلغاريا ، حتى تركيا ، هل سينتهي هذا الفيلم الرومانسي بنهاية سعيدة ليولى ؟

* كرة القدم هي حياتنا (١٩٩٩) :

إخراج تومى فيجالد

تمثيل : أوفة أوكسنكنشب ، رالف رييشتر ، أوسكار أورتيجا سانشيز

" هانز " مشجع متعصب لنادى " اف تسى شالكه " ١٩٠٤ فريق كرة القدم الألماني الشهير لدرجة أنه قد خسر منزل عائلته في رهان على هدف يحرزه " ديوس " مهاجم نادى شالكه ، ولكن ديوس كان مختلفا تماما عما كان المشجع يتصوره ، فيبذل هانز قصارى جهده ليحفز اللاعب صعب المراس ...

* لبن الخريف :

إخراج جوزيف فيلسماير

تمثيل : كلارا ليدوفا ، دانا فافروفا ، فيرنر شتوكر

تضطر " أنا " بنت الثامنة بعد موت الأم أن تعتنى بشئون منزل عائلتها المكونة من تسعة أفراد وبعد مرور

عشر سنوات فى عام ١٩٣٩ ، تقع أنا فى حب الفلاح الشاب " ألبرت " ويتزوجان ، ولكن سعادتها لاتدوم سوى بضعة أيام ، دخل بعدها ألبرت ضمن تعبئة الجيش العامة للمشاركة فى الحرب وتجد أنا نفسها مضطرة لمواجهة موقف جديد ...

فى الفيلم الأول نتعايش مع مشكلة (لارا) ، فمستقبلها هناك فى (برلين) ، وفى صحبة الآلة الموسيقية (الكلارينيت) (المزمار) ، لا فى مدينتها الصغيرة ، وبين أبويها اللذين لايسمعان ، ولايتكلمان ، ويعيشان أياما مكرورة ، كأنها الحاضر يعيد إنتاج نفسه شاددا كل ممن يقع فى نطاقه إلى ثبات عقيم..

وربما كان فى اختيار (الكلارينيت) دلالة ما ، فهى ذات عيون كعيون أبويها ، تتحرك (لارا) عليها بأصابعها ، بمثلما تحرك هى أصابعها أمام عيون أبويها ، فيفهمانها .. وفى كلتا الحالتين هى تجود بأنفاس صدرها عبر شفتيها اللتين تساعدانها على سهولة توصيل المعلومات إلى أبويها ..

وربما أيضا هى رغبة من المخرج لتوصيل فكرته عن العالم الذى ازدحم بالكلام المقول والمكتوب ، حتى صار من تضاربه المستمر لايعنى شيئا .. كذلك ازدحامه بالضجيج ، مما قد يدفع المرء غريزيا إلى رحلة مع نفسه أو أخر عبر الجمال المبثوث على جانبى الطرق السريعة الواصلة مابين ألمانيا وتركيا ، عبر المجر وبلغاريا ، هذا الجمال لايتطلب ارتشافه من أجل تجديد الروح سوى شيئين اثنين هما ازاحة عضوى السمع والكلام (فيلم : فى شهر يوليو) .. وإلا سينجح هذا الضجيج الصاخب ، وهذا الكلام الزاعق المتداخل فى بعضه البعض فى شد المرء الى ساحة ملعب كرة قدم (فيلم : كرة القدم هى حياتنا) ، وهذا الفيلم هو الطرف المتطرف الآخر لفيلم (ماوراء الصمت) الذى عرض بعده : فى مساء اليوم الذى يليه فيلم (رجال) الذى اختزل جغرافيا فيلم (فى شهر يوليو) ، وناس (كرة القدم هى حياتنا) والتاريخ الممتد فى الفيلم الأخير (لبن الخريف) ، وجسد الموسيقا المنسابة فى الهواء ، ضاغطا اياها فى مساحات الأغلفة واللوحات عبر الرجلين المتصارعين على امرأة هى زوجة لأحدهما وعشيقة للآخر ، وكأنه صراع بين الغلاف المسوك بأيدى باعة المجلات والكتب ومشتريها من القراء ، وبين فن اللوحة التشكيلية التى يحظر مجرد لمسها ، والاكتفاء – فحسب – بالنظر إليها والتأمل فيها عن بعد مناسب ، الأولى مكرورة فى عشرات ومئات الألوف من المطبوعات ، والثانية هى لوحة واحدة مفردة تعرض لجمهور مخصوص حتى يقتنيها شخص واحد .. الفن الأول يشبه العاهرة ، والثانى يشبه الزوجة ، وكأن المرأة تلك ، المحتارة بين زوجها وعشيقها ، هى تمثل نفس الحيرة لدى كل من فنان الغلاف ، وفنان اللوحة ، فالأول يحاول أن يرتفع بغلافه الى مستوى اللوحة ، لكن البعد التجارى للمطبوعة بالتأكيد يقف حياله بالمرصاد ، والثانى يأمل فى جمهور كجمهور المطبوعة ولكن هيهات.

وهذه المرأة المحتارة بين رجليها فى فيلم (رجال) هى صورة أخرى من الفتاة (لارا) فى فيلم (ماوراء الصمت) فهى مكثت فترة فى حيرة بين حاضرها الحبيب المتمثل فى أبويها ، ومستقبلها الحبيب أيضا ، والذى فرض عليها الابتعاد عنهما .. فى كلا الفيلمين كان الفن هو المحرك للصراع الفوقى (فيلم : ماوراء الصمت) والصراع التحتى (فيلم : رجال).

وقد نالت الأفلام جميعها استحسان رواد (قصر الشوق) وإن تفاوتت درجة هذا الاستحسان من فيلم لآخر.





حلمى سالم .. الولع بفك الحصار!!

نجوى على

أقامت «أدب ونقد» أمسية للشاعر العائد من فرنسا حلمى سالم وذلك لقراءة مختارات من أحدث مخطوط لديوانه الجديد الذى لم يسمه بعد.

وقد أدارت الأمسية الشاعرة والكاتبة غادة نبيل فأشارت إلى أن حلمى سالم من الشعراء الذين لديهم القـــدرة على الادهاش بمحض ارتجاله الكلمات حتى أن أحد الأصدقاء قال له مرة«لو اعتصروك لما نزرت سوى الشعر».

وقالت الشاعرة «أتصور أن التجريب فى الحياة أساس التجريب فى أشياء كثيرة منها التجريب فى الشعر وحلمى سالم يريد أن يعيش ،ومن أجل هذا الطموح شديد الاغراء -وفق مفهومه هو- فدائما ما يكتب حلمى ويسافر ويجرب ، يسعى وراء الحصار فى بيروت ويصر على أن يبقى فيها ويكتب «سيرة بيروت» فى الوقت الذى يغادر فيه الآخرون بيروت.

وأشارت غادة نبيل إلى إصدارات حلمى سالم الشعرية والكتب النقدية أو بعضها ومنها «حبيبتى بين السماء والأرض ،فقه اللذة، الواحدة الواحدة ، » الشغاف والمريمات ، البائية والحائى ، و«هاليزى والصيف ذو الوطء ، وأخيرا ، يوجد هنا عميان» .ومن الكتب« ثقافة تحت الحصار»، الحداثة أخت التسامح» وغيرها .

ولقد اختار الشاعر التواصل مع جمهوره بقراءة الجديد من الشعر بديلا عن إلقاء الأسئلة من قبلهم أو تحدثه المباشر عن تجربة الشعر والسفر ومن ثم قام بالقاء العديد من القصائد الجديدة المعنية بالعلاقة أو التماس والاحتكاك بين الشرق والغرب عبر شخوص تمثل الرموز الفكرية والفنية لكل من الشرق والغرب ومن هذه القصائد : الشريان، مرثية العمر الجميل، اللوفر ، طه حسين ، نابليون ، أبو نواس، الوهرانيون ، السهروردى ، العرب ، الحلاج ، المتنبى ، فصل فى الجحيم ، الطهطاوى ، المصرى ، تطور ،وعيد الموسيقى.

وتعقيباً على القصائد قال الشاعر فريد أبو سعدة الذى قرأ المخطوط كاملاً قبل التعديل الأخير، أن الديوان ينقسم بين الوطن والمنفى على طرف البحر المتوسط وبه جزء آخر يقاتل فيه الشاعر فنيا وفكريا ١٥ شخصية منها شخصيات مصرية (الطهطاوى ،طه حسين، حجازى) وشخصيات فرنسية ممثلة فى فيكتور هوجو وبودلير وشخصيات عربية أخرى منها مغاربة وابن زياد وابن رشد بالإضافة إلى وجود خطاب عربى مزهو على الأغلب تلخصه عبارة «نحن الذين علمنا أوروبا».

وأضاف فريد أبو سعده :من حيث الوزن فالإيقاع عروضى والوزن هنا له ميزة وعيب كبيرين أما الميزة فهى لكون الإيقاع واحداً وثابتاً يتيح الفرصة، لتجلى خلفية متكلمة، وأصوات أنين الضحايا وآهات وصرخات المقتولين مثل كورس خاضت طوال الوقت ..

والوزن أيضا يعد بمثابة استفزاز وحوار خلاق بين الشعر واللغة فى نوع من العراك مما جعل الإيقاع يساهم فى صنع مفارقات لبعض القطع الشعرية.

أما العيب فى نظرية فريد أبو سعدة فهو يتجلى فى إصرار الشاعر على وزن كل شئ مثل أسماء الشخصيات والمدن وحتى المقولات الفلسفية مما كبده جهدا شاقا فى تأخير وتقديم الجملة ليستقيم الوزن على حساب الجمالية.

ونوه فريد أبو سعدة إلى التكوين الدرامى للشخصيات فهى شخصيات يمكن تصورها مسرحياً مثل مونودراما شعرية أو قصيد درامى.

وأعلن د.محمد عبد المطلب عن حاجته إلى الوقت والقراءة المتأنية لمعايشة هذا النص الذى قرأه للتو لحلمى سالم الذى لا يقصد أن يكتب شعرا موقعا أو قصيدة نثر فهو يترك نفسه للدفق الشعرى وثمة قصيدتان ستمثلان نقلة كبيرة له وللشعرية العربية وهما- فى رأيه- المتنبى و«طه حسين».

وتحدث الناقد والشاعر أمجد ريان فقال إن أهم ما يميز تجربة حلمى سالم الشعرية هى قدرتها على أن تساير الواقع وهذا هو ما يطرح شاعراً حقيقياً فحلمى يطور نفسه ويحاور الواقع ويتجادل معه.

الذات والعالم

ومر الناقد على التحولات السياسية فى العالم وأثرها على الشعر فذكر أن فترة

التسعينيات بما رافقها من تفتت الكيانات الكبيرة كان لها انعكاس فى شعر حلمي سالم إذ أصبح للذات وجود كبير فى النص وأصبح هناك تجاور بين الذات والعالم وفى تجربته الأخيرة- والكلام ما زال لأمجد ريان- ابتداء من فقة اللذة» وحتى» يوجد هنا عميان «تحضر الذات بالمعنى الشخصانى ، أما قصائده التى ألقاها مؤخرا فتبين قدرة غير عادية على دمج مشاهد كبيرة وكثيرة مع مونتاج ومقتطفات كاملة فى أقوال قدماء وتقدميين إلى جانب لحظات عادية فى الحياة.

اللبس بين الشرق والغرب

وفى تعليق سريع تحدث حلمى سالم عن تجربته الشعرية الأخيرة فقال «أتصور أن المحاولة الأساسية لهذه القصائد هى تصوير الاحتكاك أو اللبس بين الشرق والغرب ، بين مصر والغرب، توجد غلبة للفكر بلا شك لكنها طبيعة التجربة ولا يزال يعتقد حتى الآن- خطأ أو صواباً -أن قصيدة النثر تنتمى إلى الغرب عند بودلير وغيره.. لذا رأيت من المناسب أن يدخل الشرقى على الغرب بتراثه الأخلاقى والحضارى وأيضا بتراثه الموسيقى كى يتم اختبار هذه الأداة فى التعامل مع مجتمع جديد.

وألمح د. صلاح السروى إلى أن شعر حلمى سالم بشكل عام يكون موزوناً فى المناطق التى يتجشم فيها حلمى التعبير عن شئ آخر لا يخص ذات الشاعر وتعد هذه مرحلة تطرح قضايا خارج نطاق الذات ..أما إذا كان الموضوع شخصيا ونابعا من الذات فلا حاجة للوزن لدى حلمى سالم.

وحدد الشاعر على عطا أن تجربة الديوان مرتبطة بالسفر إلى فرنسا وقد كتبت بإحساس يمكن أن يكتبه الشاعر وهو هنا فى وطنه لأنه يتجاوز أنساق معرفية معروفة وتساءل الشاعر: «أين ذاتك ، هل ارجأتها لديوان آخر؟».

شعرية الشك

ووصف الكاتب عبد الخالق فاروق قصائد الديوان بأنها تنتمى إلى« شعر الشك». لأن نبرة الشك داخل القصائد واضحة على الصعيد الفكرى والفلسفى.

وكانت كلمة الناقد عزازى على عزازى مغايرة تماما لما سبق ، فقد رأى أن الشاعر بدا مطمئنا ويملك اليقين كما يملك زمامه لإعادة قراءة التاريخ وتأويله ومحاولة وضع الأنساق البشرية فى نسق آخر.. إضافة إلى الثنائيات التى وردت وتداخل العصور فى القراءة.

وقال د. عزازى :«لم أرتح للتطامن الشديد وامتلاك اليقين وتحديد الأطر المعرفية بطريقة لا تقبل الشك أو اللبس ، إنه يقيد القراءة باستخدام (الألف واللام لليقين) ، ووصف الطهطاوى بأنه «مندوب الميتافيزيقا».

ورد الشاعر حسن طلب بأن هذا الديوان وأن حلمى سالم تحديداً أكثر شعراء السبعينيات قلقاً وتجريباً فى الشعر.. وأن القلق ليس محموداً أو سيئاً فى ذاته إلا بمقدار تأثيره الايجابى فى الإبداع».



وشددت الشاعرة غادة نبيل على أهمية وجمال حال التماهي وإضفاء الدرامية على الشخصيات في الديوان وأكدت على حق الشاعر في أن يكتب ما يريد ولو كان ذلك مخالفا لتوقعات وتصورات ومفاهيم القراء.

وانتهت التعليقات بمداخلة من الشاعر السوداني الياس فتح الرحمن الذي قال :«أتفق مع د. محمد عبد المطلب في أن هذا الشعر الجميل ، ربما لو علقنا عليه بعد قراءته مباشرة ، ربما أفسدنا هيبته فقد جمع حلمي سالم بين جمرة الشعر وجمرة المعرفة، وأحي هذا الضلوع الشديد في كسر اليباب الذي تراه الشعرية المعاصرة التي استعصت في زمن اختلط فيه حابل الشعر بنابله ، ربما بعد أمل دنقل.

النص النموذج

وألمح د.عبد المطلب إلى عدم ضرورة الجدل حول الوزن والقافية وما أثير حولهما بصدد قصيدة النثر كما أعرب عن رأيه في أن تجربة مثل تجربة حلمي سالم ينبغي التوقف فيها عن هذه الأمور (من النقاد القراء) ، فالنص الذي ينشد حريته هو النص المنشود.

ويرغب أن يرى حلمي قائماً بالحوار وليس متحاوراً معه، لأن خريطة الشعر العربية بحاجة إلى النص النموذج الذي هو نتاج المجمل فالأجيال الجديدة تعاني من مجمل نصوص لا تقول شيئا.



عصفور غريب

إلى أحمد

محمد البرغوثى

ريحة أدان الفجر ف ودانى .

يا ابنى

ياضى عينى والزمن أعمى

يا خطوتى والسكة مكفيه

أنا لسه ماشى زى عودِ صابح

سرحان فى غيمة قديمة منسيه

والمغربية حنونه زى أحزانى

سيبانى أرعى ف أرض مرويه

طين الأراضى تقيل ف رجليا

وعنيا إيد ممدودة فى الغيشه

راجع لبيتى زى ديب طيب

....

....

يا ابنى

يا ضحكة تشبه دمعتى الأولى

على حاجة كانت دنيتى التانيه

أنا جى لسه م الحنين دايخ

شراايينى دبلانه، وأيامى شجر مقلوع

وأنت بتسألنى ..؟

ماقدرش أقولك إيه مزعلنى

يا ابنى

ياكل خوفى م الفرح

إن يسألوك إنت ابن مين؟.

اضحك وقول : أنا ابن كلب جميل
أبويا كان بنا وكان ملاح
فلاح فصيح الخضار
مازرعشى بالأجره
شرشوح قليل الأدب
ماجرحش ولامره
....
....
أبويل كان أو يمجى وكان موال
عتال هزيل البدن بيهدهد الأحمال
أبويا صاحب مرض
وصحيح كأنه براح
مت مرة قلبه انكسر
طلع له ألف جناح
عصفور غريب مدبوح
طاير حلاوة روح
شايل على ضهره سكن مكسور
ف عنيه هديل مبحوح
وغناوى تملا البلد رفرفه وتنهيد
....
....
أبويا كان أسطى وكان حريف ملاغيه
إن مد إيده ف إيد
يدوب رخام الصبايا وينز حنيه
يطلع صهيل النهود شهقه منديه
أبويا كان سقا وجناينى
ماسابش عنقود على خدود عطشان لبلة ريق
ولاشاف جنينه إلا واتمنى
لو إنه سرب فى أمة التغريد
لو إنه عتمة ليل مغطيه
على بنت شاقه التوب ومشتاقه
مهره طلوقه وحضنها حواديت
....
....
أبويا كان فلتان
عيل عديم الحكمه والحيله
حردان من التوابيت
العدل هج ف دمه زى الموج
خلاه كأنه سيف
ف جراب ضعيف معووج
خلاه كأنه نهار
مرمى ف طريق الليل
أبويا كان ياما كان
وأنا ابن كلب جميل .



الفنانة فاطمة مدكور:

لو عاد بى الزمن.. لاخترت الطب

أخى الأكبر فتح عينى على عالم الابداع الجميل

فاطمة مدكور

* مواليد الاسكندرية عام ١٩٤٦.
* تخرجت فى كلية الفنون الجميلة بالاسكندرية – قسم النحت – بتقدير جيد جدا بمرتبة الشرف عام ١٩٧٠.
* شاركت فى الحركة الفنية منذ تخرجها.
* أهم المعارض التى شاركت فيها:

– الصالون السنوى لأتيليه الاسكندرية منذ عام ١٩٧٥.

– المعرض العام بالقاهرة عام ١٩٨٣.

– معارض فنانى الاسكندرية بالقاهرة منذ عام ١٩٧٦ وكفر الشيخ عام ١٩٨٣.

– معرض فنانى الاسكندرية بمناسبة انعقاد دورة نقابة الفنانين التشكيليين العرب عام ١٩٧٨.

– المعرض السنوى لفنانى الاسكندرية بمتحف محمود سعيد منذ عام ١٩٧٥.

– معرض فنانى الأربعينات بقصر ثقافة الحرية عام ١٩٨٢.

– معرض خاص مع الفنان عصمت داوستاشى بقاعة الحزب الوطنى بالإسكندرية عام ١٩٨٠.

* حصلت على تفرغ الدولة فى فن النحت لمدة عام ١٩٧٩/ ١٩٨٠.
* عضو بأتيلية الاسكندرية الفنانين والكتاب.
* عضو بنقابة الفنانين التشكيليين.
* عضو بجماعة محبى الفنون الجميلة بالقاهرة.
* عضو مؤسس بنادى علوم الآثار بالاسكندرية – هيئة الآثار.
* عملت كمرممة للآثار بالمتحف اليونانى الرومانى منذ عام ١٩٧٢ حتى عام ١٩٨٢.
* عملت رئيس قسم الرسومات الفنية الأثرية بمنطقة آثار غرب الدلتا بالاسكندرية بهيئة الآثار المصرية.
* نشرت لها كتابات أدبية بمجلة الانسان والتطور عام ١٩٨٣/١٩٨٤.
* أصدرت عام ١٩٨٤ أول مؤلف لها فى التحليل الفنى للآثار بعنوان « قراءة فنية لآثار مصرية» مشاركة مع الأثرى أحمد عبد الفتاح.

١- ماهى بداياتك الأولى وروافدك القديمة التى شكلت تجربتك الفنية.

- كنت أراقب أخى الكبير وهو يرسم التلاميذ فى حوش المدرسة عندما كانوا يلعبون الألعاب الرياضية وكان يرسمهم بمهارة وأيضا كان يرسم صور الملوك والآلهة المصرية القديمة ليرفقها بكراسة التاريخ .. كنت مبهورة فأجلس أرسم بينى وبين نفسى . وكنا نعيش فى مدينة سيوة بالواحات فكنت أرسم النخيل كثيراً لأنه يحيط بالمدينة من كل جانب بكثافة كبيرة . واكتسبت خبرة فى رسم النخيل وخاصة الزعف لأنه كان يستعمل بكثرة ويعبر عن الفرح والاحتفال فى مشاهد الأفراح والمناسبات الاجتماعية لأهل سيوة.

- ولأن أخى كان يكبرنى بأربع سنوات تقريبا فكنت أراه فى حصة التربية الفنية فى مرسم المدرسة يشكل الطين أيضاً ويصنع منه أشكالاً وموضوعات فنية وكنت أتمنى أن أعمل مثله لذلك عندما أصبحت فى الثانوية وأعطتنى مدرستى الصلصال لأشكله انطلقت فى تشكيله ببراعة وحب كبيرين.

٢- اللوحة الأولى والتمثال الأول وعلاقة الرسم والتشكيل معاً ولماذا اخترت النحت كتخصص أثناء دراستك بالفنون.

- كما ذكرت فى مدرستى التى سعيت إلى الالتحاق بها وهى مدرسة لوران الثانوية الفنية والتى بها قسم رسم كتخصص وليس كمادة عابرة مثل أى مادة وفى الدراسة أثناء - المرحلة الاعدادية - كانت مدرستى هى الأستاذة / فايزة ماهر - أمساها الله بالخير والبركة - كانت صديقتى ومشجعتى فبجانب الرسم وتفوقى فيه انطلقت فى إنتاج مواضيع التشكيل فى النحت وكان رافداً ومنطلقاً بى فى التعبير الفنى العميق لذاتى وكانت أسعد أيام دراستى وحياتى . وانطلقت بمخزون نفسى ومشاعرى كلها ، أنجزت عملا تلو الآخر ومدرستى سعيدة وتتحدث عنى فى كل مجلس وأعمالى فى الرسم والنحت كانت منتشرة فى جنبات المدرسة وحجرة الناظرة وكنت أتطلع للالتحاق بكلية الفنون الجميلة لكى يستمر تحقيق مسارى فى الحياة والدراسة الفنية والتحقت بقسم النحت ، لأن النحت كان تشكيلاً بنائياً يعبر عنى تعبيراً صادقاً وقوياً.

وفى ذلك الوقت عرضت أعمالى على المثال الكبير أحمد عثمان الذى أسس كلية الفنون الجميلة بالإسكندرية فشجعنى وأعجب بأعمالى وتمنى أن ألتحق بالكلية لأدرس الفن بعد تخرجى فى المدرسة الثانوية الفنية وهذا ماحفزنى لتحقيق هذه الأمنية وقد كتب لى كلمة

تشجيعية على إحدى لوحاتى مازلت فخورة بها .. وكافأنى بأن التحقت بالقسم الحر مجانا بالكلية كمنحة فنية بالاتفاق مع قسم الرسم بالمدرسة وذلك قبل التحاقى طالبة منتظمة بالكلية حيث تخرجت فى قسم النحت عام ١٩٦٩.

٣- ماهو سبب التوقف عن الإبداع وهل كان السبب إن أحد المهووسين قام بالركوع أمام أحد تماثيلك كما يقال

- توقفت عن الإبداع لسببين مهمين

أولهما :- تدهور صحتى بعد إصابتى بجلطة فى الدماغ وشلل نصفى للنصف الشمال من جسمى والإجهاد العام لصحتى.

وثانيهما:- هو بلوغ إبنى عبد الله (آتون) للمرحلة الثانوية وكان عنيف الطبع ويحتاج إلى رعاية دائمة فشعرت بأنه لايجب الإنشغال عنه بأى شئ - بينما أختاه البنات التوأم سحر وسامية كانتا مختلفتين أثناء دراستهما ، كنت مستقرة ومستمرة فى عملى بنظام بدون قلق أو إحساس بالبعد عن مسئوليتى أثناء عملى الإبداعى - وكان هذا هو الفرق فى تربية البنات الهادئة وتربية الصبيان الصاخبة المزعجة فكان خيارى رعاية إبنى الكائن الحى من دم ولحم أولاً بدلا من فنى وإبداعى - والحمد لله مرت هذه المرحلة وكانت من أشق مراحل حياتى صحياً ونفسياً وأخيراً تخرج فى كلية الحقوق بعد حصوله على ليسانس الحقوق فى ستة سنوات مزعجة ومربكة وكئيبة.

أما بخصوص ركوع أحد المهووسين أمام أحد تماثيلى فليس له أى أثر عندى .. كان مجرد حادث عابر.

٤- لقد تزوجت من فنان فماهى تأثير هذه العلاقة على مشوارك الفنى.

- لإن زواجى من فنان (عصمت داوستاشى) - هو إستمرار للمناخ الثقافى والفنى واستقرار هذا المناخ الواجب توفره للفنان المبدع وإن كل منا ينتج فيه ويعبر به عن كيانه وذاته باستقلالية وخصوصية والآن أرى بعد وعكتى الصحية وإنقطاعى عن الإنتاج الفنى أن زوجى كفنان منتج ومبدع يشبع فى نفسى أى رغبة فى الإبداع وكأنى مستمرة ولم أتوقف - فدائما مانتبادل الآراء والتوافق المنسجم فى عمله وإبداعه الذى هو نتاج علاقتنا وحبنا وعشرتنا الطويلة التى بلغت ٣٢ عاماً وأصبحنا عماد أسرة كبيرة تحوى فى كنفها ابنتين متزوجتين وحفيداً وإبننا عبد الله.

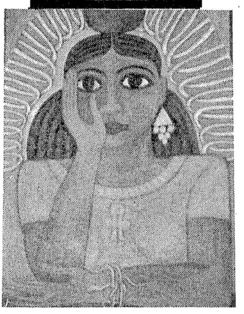


٥- من خلال بعض أعداد مجلة أقلام الصحوة ومجلة الإنسان والتطور قرأت لك نصوصاً نثرية أدبية - أتمنى أن تحدثينا عن هذه التجربة ولماذا آثرت التوقف عنها كما حدث فى الرسم والنحت.

- لقد كنت فى حالات التوهج الفكرى والفنى والثقافى والعاطفى أعيش فى مناخ بعيداً عن وسائل التعبير التشكيلى الإبداعى .. أعنى المكان والخامات وحرية اختيار الموضوع وكنت أندفع إلى الكتابة اندفاعاً حراً وكأنى أتخطى عوائق وحواجز ، أحمل اللفظ عميق المعنى والتناغم - فالكتابة منفذ للإبداع الطليق بعيداً عن الخامة وقيودها .. وكانت هذه الحالة مرتبطة بى منذ طفولتى وصباى ، كانت لى كراسة أدون فيها ماأكتبه وأحتفظ بها كشئ غال وثمين وذات مرة سرقت منى فحزنت ولكن مع الوقت أصبح عندى العديد من الكراسات . وبعد فترة كتبت (رحلة لا مجدية) التى نشرت فى مجلة (الإنسان والتطور) وأعتبر هذه الكتابة بمثابة عمل إبداعى شديد الخصوصية.

٦- هل لديك رغبة الآن للعودة للإبداع

- ليس لدى رغبة الآن للعودة للربداع فان استمرار زوجى فى الإنتاج الفنى والإبداعى هو إشباع لى وسكن . فحالتى الصحية تكاد تكفينى لأتنفس وأتحرك لأعيش مابقى لى من عمر فعند الإقتراب من سن الستين تصبح الحياة صعبة والمسئولية ثقيلة والأمل فى الأجيال القادمة ولو عاد بى الزمن لأختار طريق دراسة وحياة لاخترت دراسة الطب لأخفف عن المرضى الآلام وعن الكبار أحمال الكبر والمرض والشيخوخة.



خضة الموت

احمد ابو خنيجر

.. ولم يعد مجدياً أن تقلب فى بحور الندم والأسى ، ذلك أن الموت كفاصلة أخيرة غير قابل للنقض أو حتى التمهل ، يكفى إذاً لحظة تعجب عابرة ، قصيرة كوقع الحياة ذاتها ، فلايمكن للعجب أن يطول ، فهى هكذا عودتنا دائما - الحياة - على مد يدها القادرة لتخطف بين لحظة وأخرى واحداً منا ، ربما كانت المودة والألفة ودوام العشرة فيما نظن ، هو مايسبب الفجيعة ، والتى هى بلا طائل أيضا.

كان " فنجرى" كغيره من عباد الله الساعين فى الحياة بنبض المحبة للناس والشعر ، يملك قلباً طيباً وصوتاً جهوراً أوقعه كثيراً فى المشاكل والخلافات ، التى كان ينهيها بعد أن يفرغ من زعيقه ، بأن يعزم عليك بكوب شاى وسيجارة أو شيشة إذا كنت مشيشاً كحاله هو فى الفترة الأخيرة من حياته.

وكنا - أصدقاؤه - إن جاز التعبير الآن - نعرف ذلك فنصبر عليه حتى يفرغ ، أما الغشيم غير العارف به كان يحولها إلى مسألة شخصية لاتسمح له بالتعرف على إنسان طيب القلب ، رائق المزاج ، حلو الشعر والشعور والإحساس.

.. ياه يافنجرى..

حتى الآن لا أزال أعتقد أنها إحدى ألاعيبك ، وفى لحظة ما ستجدنى واقفاً قدامك ، لايهم الكيفية ، لكنه الشاى على " ليالى الحلمية " وعشرة الطاولة التى تلابط فيها دائما ، وإن لم تصدقنى أسأل " جار النبى الحلو" ، أرجوك بخفف هذارك أمام الأغراب ، يابن والدى : ياللى شايل هموم الوطن فوق دماغك ، ايه يفيد كونه حزب ناصرى ولاحتى المحاماه

اللى جات مع الاصرار والصبر ، إيه يفيد حتى كونك شاعراً ، فى وطن لم يعرف قيمة عياله ، سيبك من الشعر والفن والدوشة ، وشوف شغلانة تجيب قرشين على رأى " يوسف ادريس" ينفعوا العيال ، مش أحسن برضه !!..

لكن الزمار ، كيف يترك الغناء ، وأصابعه دون أن يحركها تلعب لتصنع أنغامها ، إنها أصابع الروح ، المضروبة بالغناء والعشق الذى لاينتهى حتى بخروج هذه الروح ، فالنغمات تظل سارية فى الأثير / الوجدان ، داخل قلوب الأحبة سيذكر كثير من الناس ، كيف أنهم التقوا بك للمرة الأخيرة ، وسيقص الأهل كيف أنك قمت بزيارة على الأقارب والأصدقاء قبل رحيلك . كعادة كل من يقبل على الموت دون أن يدرى بطبيعة الحال ، لكننى سأقص حالة أخرى ، حتى الآن لاأجد لها تفسيراً ، ولاأبغى أن أجده ، فقط أحكيه حتى أوسع من طاقة التعجب والدهشة بداخلى ، كان فنجرى معتاداً الجلوس على مقهى " ليالى الحلمية " لقربها من المحكمة ولطبيعة عمله كمحام ، وكنت كلما أريده أو أرغب فى لقائه أذهب إلى هناك ، ويكفى أن تقول لعامل المقهى :" فنجرى " فيدلك عليه ان كنت لاتعرفه ، أو يخبرك عنه إن لم يكن موجوداً ، فى يوم الخميس / يوم الوفاة ، توقف التاكسى لينزل أحد الركاب أمام المقهى ، وكنت ذاهباً إلى عملى ، لاأدرى ما الذى دفعنى إلى النزول أيضا ، والدخول إلى المقهى والسؤال عن فنجرى دون سابق تفكير ، وأيضا كونى متأخراً فى الذهاب إلى العمل ، قال لى العامل : ليه أيام غايب ، باين عليه مسافر ، فى المساء كان الخبر فوق رأسى يجلجل ، حتى الدمع ، الحيلة الوحيدة الناجحة فى مواجهة قهر الموت ، الدمع كان عصياً محتبساً ، كانما الميتات السابقة " لإبراهيم فهمى وحجاج الباى وفاطمة الأولى ، وخالد عبد المنعم ثم فاطمة الثانية وسيد عبد الخالق ثم فنجرى ، كأنها - كلها ميتة واحدة ، طويلة وممتدة ، ماتلبث إلا أن تكرر نفسها كل حين

* حكاية ..

فى أواخر العام ١٩٨٩ ، كنت لتوى انهيت الجيش ، ويدى تجرب بعض الأقاصيص القصيرة جداً ، كنت مفتونا - ولاأزال - بالممارسات الشعبية العلاجية ، وكيف كانت طرقهم مع قسوتها الشديدة ، التى تماثل قسوة الحياة ذاتها ، تأتى أحيانا بنجاحات باهرة ، وكان عالم الطفولة هو الأثير لدى ، وكانت خضة القلب ، وكيف قامت جدتى باللازم لطرد هذه الخضة ، كنت قد عملت على مسودة وثانية وثالثة ، دون أن أصل إلى النغمة التى أريدها ، ومن شدة زهقى قرأت هذه المسودة للصديقين :" أيمن حسن وبدر عبد العظيم " ، ودار كلام حول عدم اكتمال النص ، والقيت النص من يدى ، فى نفس الفترة عقدت أمسية شعرية بالثقافة ، ألقى فيها فنجرى النابه قصيدة " خضة الكلب ":

ياخضة الكلب .. اطلعى من القلب
وتدق صدرى جدتى وضهرى
مركوبها غارز فى الحشا يهرى
أزعق بحسى أنده الغايب
ضهرى اللى محنى بالعلل والكرب
ينخ طابب ياخد النايب ".

كانت النغمة الأساسية التى تشكل القصيدة هى السخرية ، السخرية القاسية والتى أطلقت عاصفة من الضحك عند انتهاء القصيدة ، السخرية هى التى كنت افتقدها ، كانت المسودة نصاً متجهماً كئيباً ، مقبضاً ، خالياً ، غير معبر عن هذه القسوة التى تفوق خضة الكلب ، لتأخذ إلى الأمل فى الانعتاق من مركوب الجدة وسخريتها المريرة ، التى تهدف من ورائها إلى بناء يستطيع مواجهة الخضة أيا كانت ، ومتى جاءت.

" والجرو خضك وردك ع القفا ياجبان
وانت اللى عامل شيخ غفر فى الكفر "

كانت الجدة تمارس طقوسها بوله صوفى متوحد فى تسابيحه ، غير مدرك للنار التى يقلب جمرها بأصابعه

" هات ورى قلبك اشقه أخلع الخضة

لاسمك وشانك فى البلد يوطى "

.. ياه يافنجرى ..

جريت إليه مهنئاً ومباركاً على القصيدة ، قال لى بعادية شديدة : دى ليها سنتين مكتوبة.

جاك حش بطنك ياعرة الولاليد

لما انت خايب

ليه تعاكس الكلب:

عندما عدت إلى البيت نفضت يدى من المسودة ومزقتها مكتفياً وممتلئاً بالقصيدة " خضة الكلب"

* خاتمة :

بالتأكيد أنا لاأرثيك يافنجرى ، أنت تعلم ، وأنت ليس فى حاجة إلى الرثاء ، قل : هل مت ؟؟ أم أنها احدى فترات غيابك التى كنت تمارسها علينا حتى نسأل عنك ، لتأتينا بعدها بـ " زعابيب أمشير " فنصبر عليك وتصبر علينا حتى تفوت " التوهة " والهوجة وبعدها ، خبرنا من يبدأ بتقديم الشاى وتوزيع السجاير.

* تناتيش

" قرصتك والقبر " غاير

تنفرس والدم فاير

ماانت لافف وانت داير

فى البيوت عمال تعاير

* * *

ياعديم الشوف تماين

من جرايرك بص عاين

الرجال راحوا رهاين

والحريم لبسوا الخزاين

* * *

بالعناد ناشفة الجناين

والماجور مكفى وهاين

ماتلاقيش " جنس كاين "

غير مدين وغير مداين

* * *

مين يقوللى ع المطايب

مين حيجنى ياحبايب

هو فيه غير الترايب

فوق دماغ معيوب وعايب

* * *

ياغراب البين ياشايب

فى البلاد شفنا العجايب

الجثت ماشية فى كتايب

حاجة صح من الغرايب

* * *

آه ياوعدك فى الأواخر

ضهر محنى وسن كاسر

فى الوشوش نابته الضوافر

ياقرين فيك حيل تعافر !!

* * *

* رشا

أنا كل ماأشوفها أتهز

وتفط الدمعة فى عينى

أمسحها بطرف صوابعى

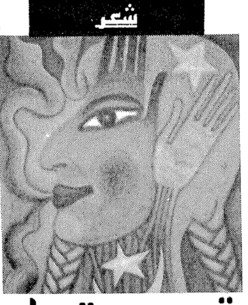
واقرب منها أسألها

كيف حال الدنيا معاكى

بشويش ترد تقوللى

أهى ماشية الدنيا ياعمى

شعر



قصيدتان

صلاح جاد

مفارقات يوليه

(١) جحيم يوليه :

فوق الأربعين حرارة الجو
إلى آين تدهب ؟؟
(قوات الاحتلال تقذف بالقنابل أحياء غزة)
إلى أين تذهب ؟؟
(تسعة أطفال وقائد وعشرات الجرحى)
إلى أين تذهب ؟؟
وحدها ستريح الآن سمعى وبصرى
بينما قرد جنوب الوادى يصارع آخر
تحت الشجرة
فى قفزة نسناس عجوز تذكرت وجهاً كريهاً
وكتاباً " لدارون".

إلى أين تذهب ؟؟
عجوز فى عمر جدتى بامتعاض تسألنى
أين بيته ، كان خلفك منذ سنوات.
أين أسد الحديقة ياولدى ؟
– حقا إلى أين أذهب ؟!
– حقا إلى أين نذهب ؟!

(٢) روح يوليه :

المارد الذى أطلقته الثورة
من قارورة " الويسكى " ليبارك خطاها
فأبدى اعجازا فى الحروب وفى البناء
وفاق الخيال بعبر الهزيمة
اعترف " يهوذا " أخيرا بفشله
فى قتله أو اعتقاله



بعد خمسة وعشرين عاما يصرح يهوذا
بأنه لم يحضر عشاء (كامب ديفيد الأول)
ولم يره فى الثانى
المارد الذى يبحثون الآن عنه
بلا جدوى لتسليمه أو اعتقاله

الغــربــان

(١) من نفسه

من بيته وأهله
من وطنه الصغير والكبير
ولم يعد
خرج المواطن

(٢) خراطيم المياه التى عبرت

من ثلاثة عقود للضفة الأخرى
هى – نفسها – الآن – تجاهنا
تطلقها (الكراسى)
تجاهنا لنصمت لنغرق
كسرب غربان فوق جثث الضحايا
حلقت الكراسى
تنعب فى وجهة أخرى

(٣) الذين اغتصبوا المدينة

سرقوا حليها وثيابها
لم يكتفوا بصمتنا
يطلبون الآن منا
شهادة زور عما جرى
للحاضر..

قصـــة



نفحة ، يـــدى ، ومـازال يلعب

حنـــان سـعيد

نفحـة

اليوم خذلتنى الصديقة الحميمة التى وعدتنى بأن تقضى اليوم معى ..

انتظرت رنين الهاتف ليكون هو .. تلقيت آلاف المكالمات إلا مكالمته.

بثتنى مربية ابنتى الصعيدية المنبت كلمات تشى بحب وتقدير ..

اختصتنى بحكاية أبكتنى عرفت منها أنها لم تبح بها لمخلوق سواى لا لشئ سوى أن "قلبها انفتح لى"

تذكرنى حبيب اعتقدت أنه نسى حروف اسمى بمكالمة طويلة من أقاصى الأرض.

داعبنى طفل أسمر .. فتحت حقيبتى المملوءة دائما كجعبة حاو بلبان وحلويات وبالونات.

صاح بى رجل لأنى اقتحمت بسيارتى شارعا ممنوع الدخول فيه وتصاعدت أصواتنا بالسباب.. كانت الشوارع خانقة وكنت أتوق لمكان فيه صخر وبحر وخضرة وتنساب منه موسيقى حانية فلم أحظ الا بمكان صغير مزدحم فيه صخر وبحر فحسب والحد الأدنى

لطلبات الفرد مبالغ فيه .. حاصرتنى فيه نظرات الناس واعتقد بعضهم أنى مجرد أنثى باحثة عن صيد .. حاولت أن أكون محايدة لكن البحر كان ثائراً .. ينتفض موجه للذرى كبركان ثم تسقط ذراته متتابعة كالطلقات .. كان صوت وجيب موجاته الرعناء تلطم الصخر بعنف .. يريحنى ويغرينى بمزيد من الصمود للنظرات المتفحصة .

قريبون البشر منى يجلسون بجوارى أكاد أسمع أحاديثهم وحكاياتهم وأكاد أمد يدى فالمسهم لكن ما أصعبها هذه القدرة العجيبة على التواصل بين جزر منفصلة.

أخذتنى سيارتى للمقابر بعد أن انتهت غايتى من البحر قرأت الفاتحة لروح الغاليين والداى وجدت دموعى تنساب رغما عنى تعجبت لأنى مازلت أحتفظ بذكراهما طازجة رغم شسوع المسافات وبعد الزمن وعند خروجى كنت مفعمة بحزن شديد خاصة عندما وجدت التورتة التى اشتريتها خصيصا لعيد ميلادى قد عجنت واختلطت ببعضها وذابت الشيكولاته وسالت على أطرافها .. أدركت أن اليوم قد مضى دون أن أفعل شيئا واحدا مما كنت أتمناه.

..................*

يـدى

وتذكرتك وأنا فى مطبخى أسعى مهرولة بين الحوض الممتلئ بالأوانى والموقد الذى عليه أكثر من قدر تغلى تنتظر يدى لتقلبها .. تتابع درجة نضجها .. والغسالة المكتظة التى تلفظ دفعات جديدة من الملابس خاوية الوفاض .. مبتلة ترقد فى استسلام يائس تنتظر يدى لتشجبها على الحبال فتطير وتهفهف فى سعادة .. ولفائف ابنتى التى تنتظر مزيدا من عمليات الدعك والتطهير والغلى لتستعيد بهاءها ونصاعتها.

تذكرتك وأنت تلثم تلك اليد المنقوعة فى مبيضات الألوان والصابون السائل .. هل تدرى أن هذه اليد تمسك أحيانا بالشبشب لمطاردة صرصور هارب أو منفضة لإزالة التراب العالق بأهداب سجادة .. هل رأيتها وهى تنهال على مؤخرة طفلتى لتنهرها ؟ أو هى تمسك بفرشاة المرحاض لتنظفه .. وسلك المواعين لإزالة سواد اعتلى الأوانى وأذهب بريقها .. هل تعلم كم تعبت لأزيل رائحة مبيض الألوان السمجة منها ؟ كم تعبت لأجعل يدى ناعمة لأنسيك كم تعرضت هذه اليد لعمليات بربرية وحشية .. كم احترقت بقذائف الزيت المقدوح .. ومفرقعات السمن الذى يجيد اختراقها والتصويب عليها كأنها هدفه الأسمى .. أعجب وأنا أراك تلثمها .. وكأنى انفلت من جلدى وتقولبت من أجلك .. لأكون لك امرأة أخرى .. أعجب وأنا أراك تتأملها

فى وله .. تطرى نداوتها وانسيابيتها وتتأمل وجهى .. لاتدرك كم من أقنعة صنعت .. قناع اللبن وقناع العسل وقناع الفاكهة وكريمات ترطيب البشرة ومقاومة التجاعيد .. كم شددت بطنى المترهل من عمليات الولادة المتكررة .. كم بحثت ونقبت وأنا أنتقى ملابس أكثر خداعا .. تدارى ماتراكم من شحوم تحمل فى كل سنتيمتر منها تجارب وعمرا وسنين .. جاهدت وأنا أسجن جسدى فى مشدات للبطن والأرداف وبنطلونات مخنوقة تضغط أنفاسى لتقول لى أنى أبدو أصغر سنا.

كم تصنعت الغباء وأنا أرى عينيك المتخابثتين تعابثان أثداء مراهقة أو مؤخرة أخرى - رغم يقينى أنها خصلة رجالية بحتة - أصبحت أسلم بأن السير فى دروبك اللولبية وأنا أجاهد بناقتى المتعثرة لألحق بطائرتك المارقة بسرعة البرق أمر مستحيل وأنى تعبت من الوقوف بوجه التيارات المعاكسة .. وأن الفرق بين عمرينا كان يمكن أن تصنع شابا مراهقا وأنى لن أستطيع أن أحلم يوما أنى امرأتك ولن أملك رفاهية أن أعيد ترتيب لبنات حياتى من جديد لتكون أنت فيها لأن أمك سوف تسقط مغشيا عليها ووالدك سوف تفاجئه أزمة السكر .. عندما يعرفان أنك تحب امرأة مطلقة ولها أطفال وتكبرك بكثير من الأعوام.

* * *

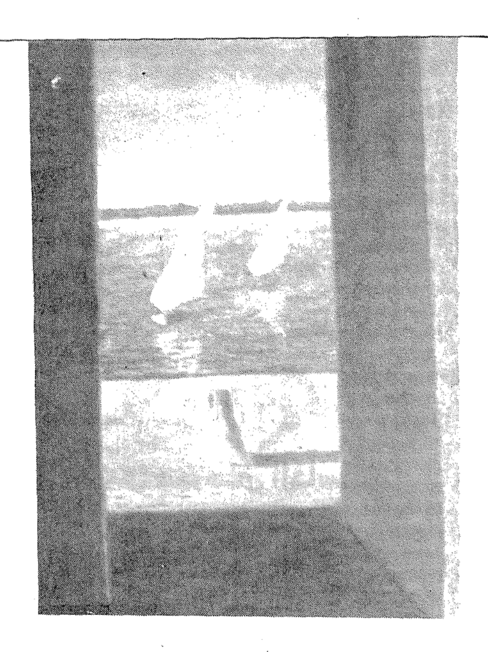
ومــازال يلعب !

صرح من الجرانيت البنى والرخام .. ترقد فيه كائنات ومكاتب .. أجهزة كمبيوتر .. فاكس .. مقاعد هيدروليكية .. طابعات .. غرف واسعة .. صالونات وثيرة .. انتريهات فارهة وزجاج الفيميه الأسود العاكس يرتفع عاليا يفصل القيظ الخارجى عن البرد الداخلى الذى صنعته أجهزة التكييف.

تدخل الصرح كأنك فى أحد دور السينما الفاخرة .. أبواب الألوميتال تفصل المكاتب .. تعزل الناس .. تمنع الضجيج .. والمكاتب الزجاجية أنزلت الستائر ذات الشرائح المعدنية المتعددة لضمان خصوصية كل مكتب عن الآخر.

قاعة التدريب الخضراء .. المفروشة بالموكيت .. يقف المحاضر على منصة عالية ويجلس المتدربون ينصتون فى خشوع.

فى اللحظة الفاصلة بين المحاضرتين وقفت بالشباك .. من خلال الستائر كانت أمامى أرض فضاء شاسعة .. امتلأت بأكوام القمامة والنفايات وعروق الأخشاب المتكسرة والصفائح



الصدئة وإطارات السيارات .. تسعى فيها حشرات وكثير من الزواحف مجهولة الاسم وكائنات غريبة تفر مسرعة من مكان لآخر تتقافز فئران وقطط وربما اختفت ثعابين بين الشقوق.

كان هناك بيت صغير من الأسمنت .. على سطحه وضع صاحبه كثير من عروق الأخشاب المتكسرة التى رميت بساحته .. فجعلها سقفا وعلى مدخله بضع بلاطات متكسرة بفعل الزمن كلما ابتعدت عن مدخل البيت تباعدت المسافات بينها وتلاشت إلى أن تصبح ترابا.

وقف هناك طفل ذو شعر ناعم أسود يلعب صنع لعبة من الصفائح الصدئة والعلب القديمة وعروق الأخشاب المكسورة صنع دراجة وسيارة وطائرة صغيرة .. كان مسترسلا فى ضحكاته أسمعها من خلف نوافذ الألوميتال فاندفع لأطل عليه لأجده مازال يلعب.



علـى مـرمـى الحاســة

عاطف عبد العزيز

فضاء واسع،
من الطرف القريب يطل على
غابة عطنة
تأخذ فى خرائطنا شكل طحلب،
وينحنى
عند نهايته على سوق للغجر.

بلدتنا-هنا
سنخصص فيها شارعاً لليأس،
مليئا بدكاكين العطارة
والمقاهى ،
مليئا بشرفات لم تزل هدومها
مبتلة،
شارعاً
لايعرفه الشعراء بسجائرهم الرديئة،
لاتمشى الشهوة فى منازله على
أطراف الأصابع،
ولا
تتقصه نهود فى ريعانها
أرهقها السعى تحت مصابيح
شاحبة.
سنحمل حقائبنا إليه ،

باحثين
عن غرفة رخيصة لدى الأرملة :
الأرملة التى مات عنها الحلاق
قبل عشرين سنة،

لن نأبه لخربشات سنلمحها على
الحوائط الواقفة :
خربشات
ربما تفض سر الوحدة
أو
تدخل بنا تاريخ الكراهة من
بابه السرى

لن نأبه
لتكاثف الشعيرات على جسد
هذه الإنصات
لحفيف الغرف المجاورة
ثم
أسلم سره إلى شمس الصباح
على سطح البناية

سوف
لاندع الخيال يدمر الفرصة
فيمزج
كعادته
ملاط الواجهات المتاكل
بعابرين،
أو

يدحرج خريطة العلاقات الجاهزة
على أرضية المشهد
لترتعش الغواية
أو يصل
مابين الظلال على المشى الحجرى،
وأشكالنا الأولى.

سنكمن له فى الحارة المظلمة
على مقربة من البئر،
ونصيده أعزل
غارقا فى السكر ،
نصيده فحسب،
ونودعه قفص العصافير الفارغ
دون أن نمسه بسوء
على أى نحو
ليكون شاهداً على ملكوتنا
الجديد.
وكلما ساورته التذكارات الرديئة،
شج السقف رأسه.

سوف
لاندع الماضى يصدع سقف المكان
بأفخاذه الثقيلة.
المكان الذى ربيناه فى حظيرة الكلام
يتيماً،
صامتاً،
ومنطوياً على رطوبته.
لن ندعه يصدع سقف المكان،

لأننا
سنختار من صندوقه
ماينفع الناس:
سكاننا الجدد الذين وفدوا
هذا الصباح.

سنختار لهم حقاق الليل :
حقاقاً
اعتدنا رصها فى المسافة
من الفراش الضيق ،
إلى نافذة تطل على الفناء الداخلى
ثم
من النافذة إلى المرآة التالفة

سنختار البوق الفخارى بديلاً
للساكس:
الساكس الحزين ،
الخائن ،
طويل اللسان ،
الذى دأب على ملاحقتنا بأفخاخه ،
من مدينة ، إلى أخرى ،
ومن حانة تنام على نفسها ،
إلى غرفة
غادرها أصحابها متعجلين.

البوق بعدالته
كى
يختصر الضجيج الطالع من
الطرقات،
فى مخروطه العريض الأملس.

سنختار منه أحذية التزلج،
علنا
نفض اشتباك الأرض بأخفافنا ،
نبرأ
من تتبع رائحة ما فى تشتتها
بين آباط نسوة مررن بنا عرضا ،
فى حديقة بائرة:
حديقة جيراننا القدامى الذين
رجعوا ،
بعد انقضاء الحرب ،
إلى الساحل.

ربما أيضاً
عيننا ، بعجالتها ، على المآخاة
بين خضار،
وزرقته الوشيكة،
وعلى اعتصار القوس السماوى
بألوانه الحرة ،
لينسكب بياضا
يليق بشارع نبنيه لليائسين،
فى بلدتنا الجديدة .

بلدة،
تتراكم على مرمى الحاسة.





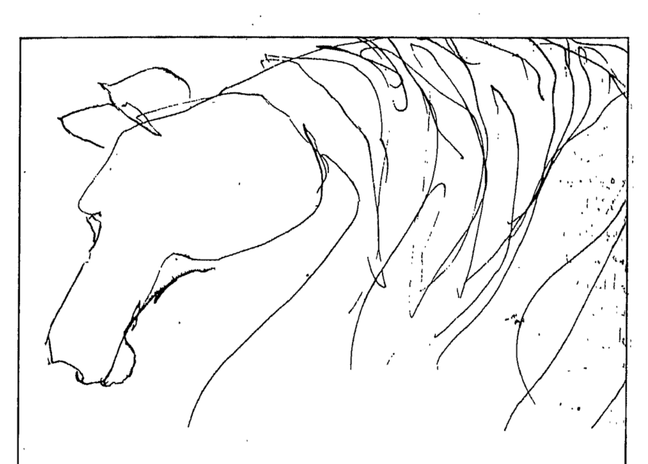
عدودة مصرية

عبده المصرى

صدر حكم فى قضية قطار الصعيد الذى احترق ومعه أكثر من ثلاثمائة راكب من الفقراء الذين كانوا فى طريقهم إلى بلداتهم وقراهم ليحتفلوا مع أهلهم بالعيد . وقال القاضى إن المسئول الحقيقى عن الكارثة ليس موظفا صغيرا هنا أو هناك وجهوا له الاتهام وأن المتهمين الحقيقيين هم خارج القفص ..

***

يا وابور الساعة اتناشر
يا مجبل ع الصعيد
عيّد على الغلابه
بعدودة ونحيب
وأطحن رفات حبيبى
تحت العجل الحديد
دم الفقرا اللى سايل
زى النميل ف الرسايل
متبعتر ع القضيب
صبرنا ع الأطبه
وزهقنام المحبه
حديت ملهوش عازة
ولا يودى ولا يجيب
خابت كل الأغانى
ومصر اليوم بعيد
أبعد من شط نيلها



عمالها وفلاحينها
محكومه بالعبيد
ياقمر اياك تزورها
خللى الضلام ساكنها
والقهر يبيد رجالها
أحرق وأحنا الوقيد
يا وابور الساعة اتناشر
يا مسافر ف الوريد
طرح الموال ليالى
وشوش ف الاستباليه
وجتت نزت صديد
يا وابور الساعة اتناشر
لملم شعر البنات
وسيب عيون قرايبى

تحرقها الذكريات
شبابيك سجن الحكومة
بتعيط ع اللى مات
جدعان وصبايا زين
دفنوهم من سكات
من غير مايبل ريقهم
ولا تطفى نار قلوبهم
أحضان الأمهات
أحلام تتاويها تربه
وليل لّيل ف غربه
ع الجاى واللى فات
يا وابور الساعة اتناشر
يا مجبل ع الصعيد

قصة



أصابع صغيرة لها بهاء الحصرم

عماد أبو زيد

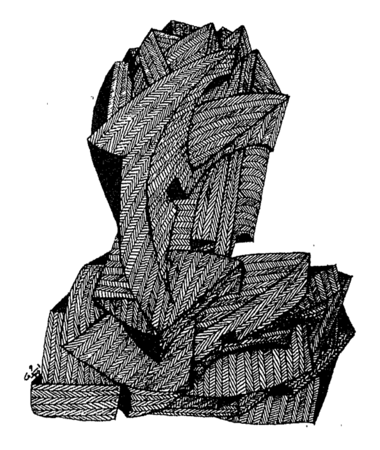
لست فى حاجة لأن تقص على ما حدث حينما تنبهتَ لأصابعنا الصغيرة، فما زلتُ أتذكر قسماً أخذته على نفسك رغم حداثة سنك وقدميك اللتين لم تكونا تعرفان سوى الركض وراء ابتسامة شفاهنا نحن الكبار عنك قليلاً.

اجتاحت أصابعنا مشاعرك حين شاهدتها فتفجرت عيناك بدموع اعتادت أن تنقش اسم أمك على خريطة وجهك صباح مساء، تتذكرها وهى تحكى لنا «الحواديت »، وتُضحكُنا تحت «الكرمة» قبل أن تشعل فيها صراخنا .

ولست وحدك من تذكرها إذ كيف ننساها وقد رموها بالرصاص وهى تبحث عن أخينا الكبير الذى لم تخل جيوبه يوماً من قطع الحجارة؟!

اتسعت عيناك محدقةً فى أصابعنا المخضبة بدم «الثور» المذبوح تحت نعش أمك، تحترق المسافات فكأنما تراها الآن مُسجاةً أمامك .. تقول:

وإذ أخذوا منى الميثاق لحظة وداعك: بأننى سأسلط عليهم الريح، وأبث الرعب فى قلوبهم. وإنى لأوفى بالعهد.



أذكرك حين وقفتَ تحاكينا ونحن نلطخ أكفنا بدم « الثور»، فنصلبها تدمى على بابنا الخشبى الكبير، وقد سجلنا إلى جوارها تاريخ ذلك اليوم المشئوم، آثرت من بعد أن تنقل ذلك الباب معك أينما رُحتَ أو رحلتَ أو عشتَ، تحتفظ به وحدك ما دام هو المتبقى من رائحة بيتنا القديم، تنظر إليه فى تأسٍ، ترى من خلاله البيت«الناصرة».. ترثى حالك:

- «العنبة» حزنت.

تبقى عينك على الباب، وكأنما الزمن لم يمض، أو كأنك لم تعترف بعد بمروره.

تعيش مع أبيك وأمك وأخوتك خلفه ، تنصت كل يوم إلى أبيك:

- بابك متفتحوش للغريب، وإياك تغيب عن دارك، دارك هى أمك وأخواتك ، دارك هى عرضك.

هكذا يذكرك الباب، ولست فى حاجة يا عزيزى لأن تقصص على المزيد من ....، فأنا أول العارفين بك، ولن أندهش إذا قلتَ : إن صوتاً يأتى إليك من هذا الباب فى بكارة كل صباح يحمل بشارةً لك.

---

* صغاراً ألصقناها على بابنا الخشبى بارتعاشة، صدمة دم له طلاوة النضارة.

يعـ (ن م ز ل أ) ـدو

شعر



قولى لهم

عارف البرديسى

قولى لهم
إنى أحبك
وجذوة الضمير
ضعفت
يا أيها الممدود فى انهزامنا
أطلقت فينا شكلاً
صح أحزاننا
دمائنا
كرامة الندى
قولى لهم
إنى أحبك
ابتسامة



وهدباً
منشداً
قولى لهم
إنى أحبك
ترانيم صلاة
وأذان
بعدما قد رحلت
من ساحة الأرض الرجال
قولى لهم
إنى أحبك
وجذوة الضمير
ورقت
حب القتال.

السرد المكتنز

" السرد المكتنز ، كتاب جديد للباحث والناقد النشط أيمن بكر ، فى هذا الكتاب يشتبك الباحث مع المصطلح النقدى ، لعل عنوان الكتاب سعى للتعامل مع مصطلح جديد : السرد المكتنز من اكتنز – كمثل مضطرب (من اضطرب) – إذن يدل بصورة مبدئية على سرد مجتمع وممتلئ داخل النص الكبير الذى يقع ضمنه ، وبحكم تأثير ظلال المعانى الأخرى فى مادة كنز ، يشير المفهوم أيضا إلى فكرة الخبيئة القيمة " الكنز" ويقول زيمن فى مقدمته إن للكتاب توجهين فهو أولاً يسعى لإثارة بعض الجدل المتسائل حول مايمكن أن نراه واحداً من أهم الافتراضات الواقعة فى الأساس من " النظرية السردية البنيوية" الثانى يهدف إلى تقديم عدد من الدراسات التطبيقية على نصوص سردية وشعرية باستخدام مقولات النظرية السردية البنيوية أحياناً ، وبالخروج عنها أحياناً أخرى.

ثقوب فى الجدار

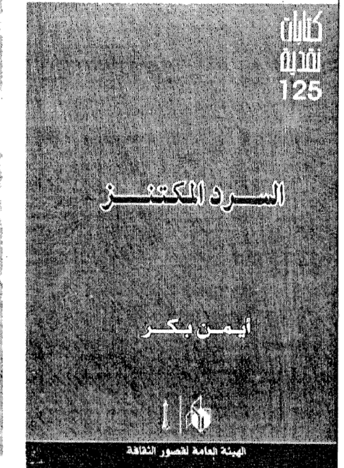
دراسة فى العلاقة بين الحق فى الخصوصية والحق فى السكن الملائم مع التطبيق على حالة مصر.

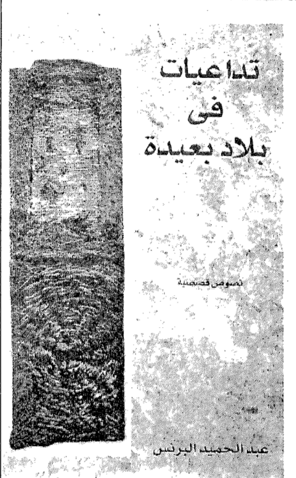
صدرت هذه الدراسة عن : المبادرة المصرية للحقوق الشخصية . للباحث حسام الحملاوى .

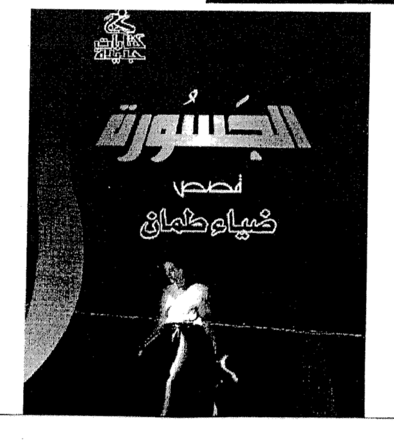
تأسست المبادرة المصرية للحقوق الشخصية كمنظمة غير حكومية من أجل العمل على تعزيز الحقوق والحريات الأكثر التصاقا بالإنسان مثل الحق فى سلامة وصحة الجسد والحق فى الخصوصية وحق الحرية والأمان الشخصى . هذا إلى جانب البحث والتوثيق والتوعية.

تداعيات فى بلاد بعيدة

المجموعة القصصية الأولى للكاتب والناقد السودانى عبد الحميد البرنس ، هذه المجموعة تتراوح قصصها بين القصر الشديد الذى يبلغ عدة أسطر وبين القصة الطويلة . هذه القصص التى قال عنها د. صلاح السروى ويدهى إننا لانلمح أثراً للراوى . كما لانلمح أثراً الشخصية محددة الملامح من حيث الشكل الخارجى والصفات الأخلاقية وعالمها النفسى ، حتى الاسم غير موجود ، وإنما نتعامل مع مشهد يمثله بشر مجهولون لايحملون أية سمات ، فقط يحملون سمات الإنسان الضعيف الأسيان ، فى شفافية ، ورغم جهلنا بخلفيات الحياة الخاصة لهذه الشخصيات ، إلا أن هذا الإيهام هو الذى يتيح كل التأويلات


كتابات
نقدية
125
السرد المكتنز
أيمن بكر
الهيئة العامة لقصور الثقافة


تداعيات
فى
بلاد بعيدة
نصوص قصصية
عبد الحميد البرنس


كتابات جديدة
الجَسُورة
قصص
ضياء طمان

الممكنة ، مما ينتج لنا نصاً مفتوحاً فى مقابل النص المغلق.

الجسورة

مجموعة قصصية جديدة للشاعر والكاتب ضياء طمان ، صدرت المجموعة عن سلسلة كتابات جديدة الهيئة العامة للكتاب ٢٠٠٢ " الجسورة تتراكم ، تدفعه نحوها بشعاع من الخلف ، وترفعه من السقوط ، وتؤسس شمعة تزخر له بالبر وتحترق أيضا بالماء".

أنين المأ سورين.

مجموعة قصصية للكاتبة الفلسطينية بشرى محمد أبو شرار ، وكما فى كلمة الغلاف ، هى قاصة تمتلك لغة فنية وصورة موحية ومعنى قد يبدو صوته عالياً فى بعض القصص ولكنه متوافق مع المعانى القوية والقضايا التى تطرحها.

سيدة الطقس

عن أتيليه الإسكندرية ٢٠٠٢ صدرت مجموعة قصصية للكاتب أحمد فوزى بعنوان " سيدة الطقس".

كسر الرجال

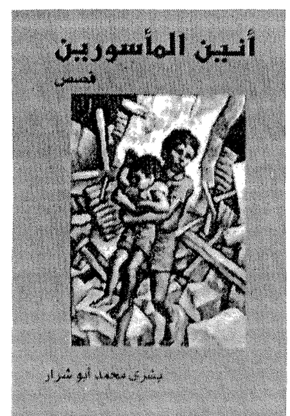
مجموعة قصصية للكاتب أمير سالم ، صدرت فى طبعة أنيقة صمم لها الغلاف واخرجها فنياً الكاتب نفسه . وقد أهدى المجموعة إلى المخرج الراحل " رضوان الكاشف".

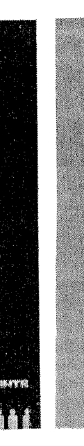
معارك على الورق

الكاتب والصحفى المصرى الذى يعمل فى لندن ، يسرى خميس ، صدر له عن الغد للنشر والصحافة ، كتاب " معارك على الورق" فى الكتاب مقالات متنوعة عن الديمقراطية والاستمنار والإرهاب والمسرح ومعرض الكتاب.

وفاء إدريس

وفاء إدريس وقصص فلسطينية أخرى كتاب صدر عن مكتبة الأسرة ، الهيئة العامة للكتاب للصحفى والكاتب المسرحى محمد سلماوى ، يحوى الكتاب مجموعة نصوص من وحى الانتفاضة الفلسطينية وشهدائها.





باب السفينة

الرواية الثانية للكاتب سعد القرشى ، صدرت عن دار البستانى للنشر والتوزيع ٢٠٠٢ .

قبل هذه الرواية صدر له ثلاثة كتب ، رواية « حديث الجنود» ١٩٩٦ ومجموعة قصصية بعنوان " مرافئ الرحيل " فى عام ١٩٩٣ و" شجرة الخلد" ١٩٩٨.

" هذا نبى غير منتظر ، تحدث أحلامه من النبوة إلى الولاية إلى السعادة الزوجية المستحيلة ، إلى التوسط لدى القاضى لتحصل صديقته على البراءة – ولايليق ذلك بأصحاب الرسالات " ، إلى انتظار النجاة من الطوفان بركوب السفينة . ليس لديه عصا سحرية ، ولاقوة ساعد موسى ، فيقتل ويغير. إنه ينشد الراحة فى اليقين ، واليقين هارب " مشاهد الرواية كتبها سعد القرشى بدقة وشاعرية وإحكام والشخصيات م رسومة بحذق.

تواصل

للحلم .. أغنية

شعر /أشرف أبو الحمد الخطيب
جرجا

تثاءب الليل
وراح يحط على عينيها حلماً وردياً
ويدى تزحف فوق النرجس والياسمين
تتحس بدايات الوقت المنهزم فى كفيها ..
أحلق خلف سراب مبلل بالنشوة.
ثم .. أرتمى فى فراغ عينيها..
أسب صديقاً لى كان يخبرنى كل مساء
كيف يضاجع أغنية عاهرة مثلها..
فأيقن أن قصيدتى صارت حبلى
بمفردة جديدة..
وحتى تكتمل أدعوها..
لتمرر من بين شفتيها لحنى..
لأقتنص الخمر المنساب على ناصيتى
ولون الفجر .. وبعض الشعر..
وصوت أمى
حين تهز الصبح فى أوردتى..
(أيها النعسان قم)
قد أوشك عمرك أن ينقضى..
فبأى بلد أنت ....؟؟!!!

حـــنين

وليد السيد زكى

قال لى صاحبى متأثرا ببرد الشتاء
إننى لم أر يوماً أصعب من هذا ولا أمطاراً أغزر من هذى تذكرت أول يوم استقبلتنى فيه محافظة المفرق- بالأردن - عدت بذاكرتى
كان الجو شديد البرودة والثلوج تتسارع سقوطاً من السماء لنتراص فوق الأرض لتصبح لوحة بيضاء متناسقة مع زرقة السماء وأشجار الزيتون الخضراء
ووسط هذا الجو خرجنا للعمل ما أصعب ساعات العمل فى هذا الجو القاتل ، لكنها الغربة لكم قارنت بين هذا الجو القارى وبين النعيم الذى نحيا فيه بمصر جذبتنى الذاكرة إلى أيام قاسية كلما طافت بخيالى اعتصرنى الألم وشعرت بالمرارة.

فان أقسى اللحظات التى تمر بالإنسان هى المرض وإن كانت قصيرة فما أضعف تلك النفس عندما تلقى فوق الفراش تنازع وهن الاسقام بلا حول ولاقوة وما أشدها عندما تصبح وحيداً بلا صديق يخفف عنك وماأهون المرء وأهون الحياة فى نظره عندما يعيش هذه اللحظات فى بلد آخر ، يصارع الأمراض وحيداً ، يحاول فى يأس أن يتحمل ويصبر.

إنها تجربة قاسية مررت بها ستة أيام لا أستطيع التحرك من الفراش حتى لإحضار كوب ماء.

الجميع يخرجون للعمل وتظل نفسى تقتلنى وتنهرنى وتسألنى دوماً : لماذا جئت إلى هنا ؟
هل يوجد شئ يستحق؟

أى مال هذا يعوض المرء عن لحظة واحدة يعيشها بذلك الشعور القاتل فلكم شدنى الحنين فى هذه التجربة إلى تقبيل « تراب مصر» وملء صدرى من هوائها وشربة ماء من نيلها هى نوائى الآن

وكم سألت نفسى هل يوجد هذا الحنين والترابط بين المرء وأى أرض يعيش وسط خيراتها ويشرب من مائها ويمشى فوق ترابها لا أعتقد ذلك فمصر تنفرد بهذه العلاقة الروحية

فأبناؤها وحدهم دائما يشدهم الوجد والحنين إلى ترابها ومائها مهما قست عليهم.

أفقت على صوت صاحبى وهو لايزال متأثراً ببرودة الجو قائلاً كيف يمكن أن نؤدى أعمالنا فى هذا الجو.

ابتسمت له ، وأسرعت الخطى حتى لانتأخر.

*الصديق وليد ، نشكرك على التواصل مع المجلة ، ونأمل أن تكتشف من القراءة فى الفن القصصى ، كى لاتكون قصتك نصفها قصة والنصف الثانى مقال.

من هو المثقف ؟

على عوض الله كرار

أنت .. أنت أنت أيها المثقف .. من كم ورقة مطبوعة (وجهاً لظهر) صُنِعْت .. ألف .. عشرة آلاف .. مئة ألف .. مئات الآلاف .. ملايين..

هل تعرف أن من بعض الأشياء التى كانت تدخل فى صناعة الورق هى مما كان يلقيه فقراء الأحياء الشعبية على أرصفة الطرق ..

إن كنت لاتتذكر .. أذكرك :

ملابسهم المهترئة...

وخيشة غسل ودعك أرضيات غرفهم الضيقة..

ملحوظة : لأول مرة يداهمنى ظن من قوته ظننته حقيقة :

أغنية (كداب ياخيشة) لشعبان عبد الرحيم وراءها فلسفة عميقة..

ولم لا ؟ .. وشعبان أمضى سنوات تكوينه وتلوينه فى أعماق الطبقات الاجتماعية تحت خط (إنسانى) خالص

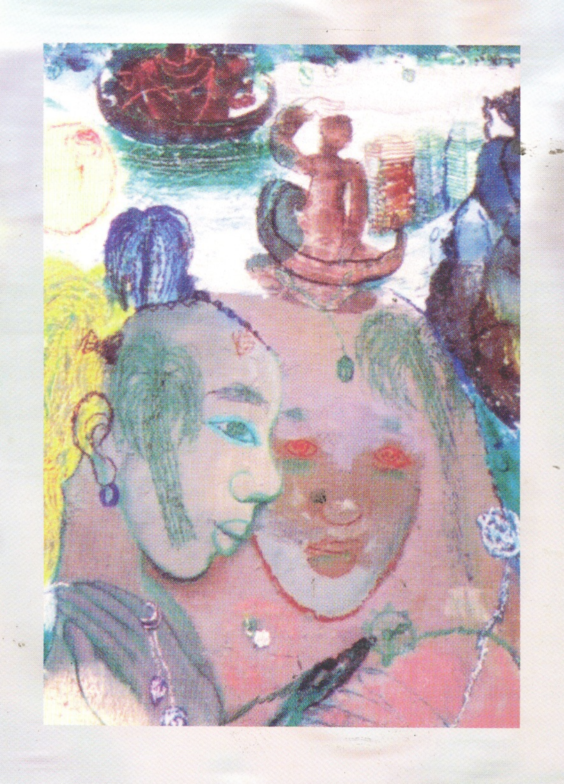
* ...... * ...... *

اكتشاف علمى غير معترف به :

أعظم فلاسفة المصريين هم (الناجون من المناهج التعليمية والإعلامية والثقافية) ، التاركون أنفسهم فى أحضان الروح الآخذة بهم إلى المسارب الخفية فى دنيانا ، حيث تتراءى لهم المخبوءات المخبوزات بعنصر الزمن ، مخبوءات تستنطقهم بركاكة عجيبة حتى لايطمع فى منتجهم الوليد أى واحد من طوال أو قصار المثقفين الرسميين و شبه الرسميين..

تماما مثلما كانت تفعل الأم الريفية :

تدعك وجه ابنها الجميل ذا العينين الخضراوين بقليل من الطين أو سناج فرن الخبيز أو تتركه على حاله الذى صحا عليه من نومه .. وتناديه باسم غريب لامعنى له حتى تبعد عنه شرر العيون .



الأمل للطباعة والنشر رقم الايداع ٧٥١٢ / ٩٢ «الثمن: جنيهان»